وزارة الثقافة
مكتبة الأسرة الأردنية
القراءة للجميع 17

إيان جبسون

غرناطة لوركا

ترجمة: حسين عبد الزهرة مجيد

الإصدار رقم (927)
آداب وفنون

مكتبة
t.me/soramnqraa

غرناطة لوركا

إيان جبسون

غرناطة لوركا

ترجمة

حسين عبد الزهرة مجيد

مكتبة
t.me/soramnqraa

البرنامج الوطني للقراءة
مكتبة الأسرة الأردنية

سلسلة تصدرها وزارة الثقافة الأردنية منذ العام (2007)، ضمن البرنامج الوطني للقراءة وتهدف (مكتبة الأسرة الأردنية) إلى نشر المعرفة وإثراء مصادر الثقافة وتنمية التفكير الناقد ورفع مستوى الوعي لدى الأسرة الأردنية من خلال توفير الكتاب بجودة عالية وبأسعار رمزية. تضم السلسلة ستة حقول أساسية: دراسات أردنية، تراث عربي وإسلامي، آداب وفنون، فلسفة ومعارف عامة، علوم وتكنولوجيا، وأدب الأطفال.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2023/10/5504)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب : غرناطة لوركا
تأليف : جونسون، إيان
ترجمة الفتلاوي، حسين عبدالزهره
بيانات النشر : عمان: وزارة الثقافة، 2023
رقم التصنيف : 861.9
الواصفات /النقد الأدبي//التحليل الأدبي//الشعر الإسباني//الأدب الإسباني/
الطبعة : الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية.

ردمك: (978-9923-59-011-9) ISBN

- الطباعة : مطبعة حلاوة النموذجية

الفهرس

إلى قرّائي العرب 7

مقدّمة: لوركا وغرناطة 9

الجولة الأولى: الباب الملكي، وما يجاوره 20

الجولة الثانيـة: قلـب غرناطة..... 39

الجولـة الثالثـة: الحمـراء وجنّـة العريـف..... 60

الجولـة الرابعة: تل الحمراء 89

الجولـة الخامسة: تل البيازين..... 114

الجولـة السادسة: بستان القديس بيثنتـي، بيـت روزاليس والسجن 127

الجولة السابعة: الجبـل المقـدّس، وكنيسـة القديـس ميكائيل ذي الرفعة..... 154

الجولـة الثامنة: موت شاعر 168

الجولـة التاسعـة: عين رعاة البقر (مسقط رأس الشاعـر في (الغوطة)، 182
بَلَدْروبيو، ومُقلين

الجولـة العاشرة: جبال الثلج، والبشرات 221

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى قرّائي العرب

في بداية الحرب الأهلية الإسبانية، وقبل أسابيع قليلة من اغتيال لوركا بأيدي الفاشيين في آب 1936، سُئِل الشاعرُ عن رأيه في سقوط غرناطة بأيدي النصارىٰ عام 1492، فأجاب: "كانت نكبة، على الرغم من أنّهم يلقنوننا العكس في المدارس· حضارة رائعةٌ، وشعرٌ، وفلكٌ، وعمران، ورقةُ شعور فريدةٌ في العالم··· ضاعت كلّها لتقوم محلّها مدينة فقيرة هي "جنّة البخلاء"، والتي يلعب بمقدراتها الآن أرذل البرجوازيين في إسبانية" وقد ظهر هذا التصريح المناوئ علىٰ صفحات أكبر جريدة في مدريد، وكان سبباً مباشراً في موت الشاعر وهو في الثامنة والثلاثين·

وقبل خمس سنين من ذلك قال لوركا في مقابلة أخرىٰ: "أعتقد أنّ أصلي الغرناطي منحني شعوراً بالتآخي مع جميع المضطهدين غجراً وسوداً ويهوداً··· مع المورسكيين الذين نحفظ ذكراهم نحن الغرنوطيين في قلوبنا"·

لا شك في أنّ الشاعر كان علىٰ علاقة وثيقة بغرناطة التي ضاعت إلىٰ الأبد عام 1492· ولو لم يكن لوركا ابناً باراً لمدينته لما صار أدبه المعبِّر الحقيقي عنها: ففي أساس ذلك الأدب يكمن إحساس مأساوي بالخسران·

ولا بد من أنّ لوركا كالعديد من الإسبان قد أسف كثيراً لأنّه جاهلٌ بالعربية، ذلك لأنّه كان يعي بأنّها تزوّده بفهم عميق لجذوره· لكنّه من ناحية

أخرى سعى جهده للإطلاع على الشعر العربي في الأندلس، ورجع إلى ما توافر منه مترجماً، ودهش لما قرأ. وما ديوان التماريت إلاّ دليل إعجاب وتقدير لشعراء غرناطة المسلمين.

وبالنسبة إليّ فأنا مثل لوركا لا أعرف العربية، وهذا يؤلمني بشدّة ويجعلني أقدّر كم هي ناقصة معرفتي بإسبانية (وبالطبع فلكي يكون المرء خبيراً بالأدب الإسباني، لا بد له من معرفة العِبرية أيضاً!). وقد أخبرني أصدقائي العرب بأنّ شعر لوركا يخاطبهم بعمق، وأنّهم يجدون فيه صلات قوية بشعرهم، خصوصاً في الصور الشعرية. وهذا لا يدهشني البتّة. فربما أحسّ لوركا نفسه بأنّ شعره سيصبح يوماً ما محبوباً في الوطن العربي.

يسرّني كثيراً ظهور كتابي الصغير هذا باللغة العربية، وأؤمّل أن يجلب المسرّة على منْ يقرأه. وقد نهض العراقي، حسين عبد الزهرة مجيد بالترجمة بإخلاص شديد، وأنا ممتن له. وبودي القول إنّ القارئ وإن لم تسعه زيارة غرناطة بشخصه فعسى الكتابُ أنْ ينقله روحياً هناك. زيادةً على ذلك، فالكتابُ يمدّه بالفهم العميق لواحدٍ من أعذب شعراء ومسرحيي القرن العشرين، والذي كما قلت آنفاً، لولا نور غرناطة، لخبا ضوء أدبه.

إيان جبسون

رستابال (غرناطة)، إسبانية

1999/4/14

مقدّمة

لوركا وغرناطة

كان يروق للوركا القول إنّه من مملكة غرناطة، وغالباً ما يضيف بأنّه لم يولد في المدينة عينها بل في قلب الغوطة، سهل غرناطة الخصيب.

وتبعد قرية عين رعاة البقر حيث ولد الشاعر في 6/ 5 / 1898 ثمانية عشر كيلومتراً عن غرناطة. قضى لوركا فيها وفي قرية أسكيروسا (وهي اليوم بلد روبيو) السنوات الإحدى عشرة الأولى من حياته. ولم ينتقل أهله إلى عاصمة الإقليم إلاّ في عام 1919، عندها أصبحت الغوطة بالنسبة إلى لوركا جنّته المفقودة، وملعباً لكل أعماله. وتظهر الغوطة صراحةً في العديد من قصائده الأولى، أو تلميحاً في المآسي الريفية التي تعتمد بقوّة على كلام الناس وعاداتهم وتقاليدهم في هذا السهل المنبسط الذي أحبّه أولاً الرومان فزرعوه، ثم جاء العرب المسلمون ليعيشوا فيه سبعة قرون.

كان لوركا في المقام الأول ابن الغوطة. وإذا كانت طفولته المتوارية بكل صورها وإيقاعاتها قد أثّرت عليه العمر كلّه فإنّ غرناطة المدينة قد تركت أثرها العميق الذي لا يمحى. ولا بديل لنا من معرفة المدينة وتأريخها والظروف التي مرّت بها من الناحيتين الفنيّة والثقافية والتي كانت سائدة في فتوّة الشاعر.

بُنيت غرناطة على عدّة تلال، وترتفع عن البحر بنحو خمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعين قدماً. وتقع بينها وبين البحر الأبيض المتوسّط ـ الذي يبعد ثمانية وأربعين كيلومتراً حيث تطير الغربان ـ سلسلة جبال السيرا نيفادا (جبال الثلج) الشامخة، أعلى جبال إسبانية، التي تنمو على سفوحها وعلى طول البحر أنواع من أشجار الفواكه شبه الإستوائية. ثلوج دائمة، ومياه غزيرة، وأرض خصبة، وشمس صيفية حارقة: كلّها مقوّمات تجعل غرناطة مدينة فريدة في نوعها.

وقبل البدء بجولتنا الأولى، لا بدّ لنا من أن نلقي نظرة عابرة على رأي لوركا في غرناطة، وخصوصاً رأيه في سقوط هذه المدينة ـ آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية ـ على أيدي النصارى عام 1492، فحينما أطاح الملك الكاثوليكي فرديناند، وزوجته إيزابيلا بحكم العرب تلك السنة، وعدا يهود غرناطة وعربها بصون ممتلكاتهم، واحترام شعائرهم. لكنهما نكثا عهدهما، وخانا الكلمة بعد استيلائهما على المدينة، فخيّرا اليهود بين التنصّر، أو الطرد الذي لم يقتصر على يهود غرناطة وكانوا نحو عشرين ألفاً، بل شمل النصف مليون يهودي من مجموعة سبعة ملايين إسباني. والنتيجة، فقد هاجر نصف، وتنصّر النصف الآخر الذين ظلّوا في إسبانية فدعوا "بالمسيحيين الجدد" ولم يكن للمهاجرين من خيار غير بيع ممتلكاتهم بسعر التراب، مات الألوف منهم في المنفى بحثاً عن وطن جديد.

أما بالنسبة إلى المسلمين فقد نكص الملكان عن كلمتهما عام 1502، بعد عشر سنين من سقوط غرناطة، فأعطياهم الخيار الذي أعطياه لليهود من

قبل، فإما أن يصبحوا كاثوليك، أو يخرجوا في الحال، فهاجر عشرات الألوف من وطنهم، فيما قبل غيرهم التنصّر، فاحتقروا، وصاروا يدعون بالمغاربة، وأصبحوا عرضة للغارات المتكرّرة. وأخيراً، في عام 1609، طُرد الباقون من ذريّتهم.

نفيٌ، وقمع، واضطهاد، وريبة: تلكم هي صفات الحياة الإسبانية منذ عام 1492. ويُعتقد بأنّ محاكم التفتيش عذّبت، وقتلت مليون عربي. وأخذ المسيحيون الجدد، وهم يهودٌ، ومسلمون في السر (وفيما بعد بروتستانت) يخافون على حياتهم وهم يرون أكثر البلدان الأوروبية سماحة تصير أكثرها تعصباً. ولا يدهشنا أن نجد البعض من أسوأ أعضاء محاكم التفتيش ـ كتوماس دي توركويمادا ـ من أصل يهودي.

تعاطف لوركا بقوّة مع ضحايا هذه الهمجية فقال عام 1931: "أعتقد أنّ أصلي الغرناطي منحني شعوراً بالتآخي مع جميع المضطهدين غجراً، وسوداً ويهوداً... مع المورسيكيين الذين نحفظ ذكراهم نحن الغرنوطيين في قلوبنا" وسئل الشاعر قبل أشهر قليلة من وفاته عن رأيه في سقوط غرناطة المسلمة بأيدي النصارى فقال: "كانت نكبة، على الرغم من أنّهم يلقنوننا العكس في المدارس. حضارة رائعة، وشعر، وفلك، وعمران، ورقّة شعور فريدة في العالم... ضاعت كلّها لتقوم محلّها مدينة فقيرة هي "جنة البخلاء"، والتي يلعب بمقدراتها الآن أرذل البرجوازيين في إسبانية" وتلك كلمات قويّة سارعت في موته حين احتل الفاشيون غرناطة في تموز 1936.

ولم يستطع الشاب لوركا في البعض من قصائده الأولى التي كتبها عام 1917 و 1918 تفادي إغواء الصورة الرومانسية لغرناطة التي ساهم في رسمها على نحو بارز الكتّاب الأجانب مثل شاتوبريان، وواشنطن إرفنغ، وفيكتور هيغو، وتيوفيل غوتيه، ودوماس الكبير، لكنّه سرعان ما تحرّر من إسار هذه الروح، فلم يظهر قصر الحمراء وجنّة العريف إلاّ لماماً في أعماله. وحتّى لو ظهرا فهما متحرران من التأثيرات العاطفية الكاذبة التي طبعت بميسمها الشعر العربي وأغرقت الشعراء الإسبان قبل لوركا.

أما بالنسبة إلى إشارة الشاعر شديدة القسوة إلى الطبقة المتوسطة في غرناطة، فلا بد من القول إنّه كان صادقاً في نظرته إلى أبناء جلدته. وغالباً ما يعود إلى هذا الموضوع في رسائله قائلاً إنّ الغرناطيين ليسوا أندلسيين أصلاً، بل أبناء بررة للمحتلين النصارى الذين جاءوا من الشمال، وأقاموا في الأندلس، فأظهروا بلادة شديدة لكل ما وجدوا.

أما مشاعر لوركا نحو ما تخفيه غرناطة تحت سطحها الكاذب، فقد أوضحها بجلاء في محاضرته عن الشاعر الغرناطي بيدرو سوتو دي روخاس (1585 – 1658) والتي استمد عنوانها من قصيدة لهذا الشاعر بعنوان "جنة مغلقة على الكثيرين، وحدائق مفتوحة للقليلين" ويعتقد لوركا أنّ هذا أحسن تعريف للروح الحقيقية لغرناطة. وحين فكّر مليّاً بمضامين قصيدة روخاس، صار يطابق بين ما يدعوه "بجمالية التصغير" ـ ويعني به حب الأشياء الصغيرة، والاهتمام الرفيع بالتفاصيل ـ وبين جوهر الفن الغرناطي، فالفنان المحلي وهو أنموذج الإنسان الوحيد المتحفّظ قليل

الأصدقاء كما يخبرنا لوركا، ينزع إلى عمل الأشياء الصغيرة المشغولة بدقة. مثالاً على ذلك يورد الشاعر فسيفساء وزخارف قصر الحمراء، وتماثيل العذراء من صنع النحّات ألونسو كانو (1601–1667). ويمكن أن نضيف إلى هذين المثالين الخشب المطعّم، والخزف اللذين تُعرف بهما غرناطة. ولا يدهش الشاعر كثيراً إذ يجد الرقّة الغرناطية التي تنحني بإجلال "للبرج البارد الكبير" لكاتدرائية المدينة التي أقيمت في عصر النهضة على موقع المسجد الجامع خير مثال على هزيمة الإسلام.

وغرناطة التي تفصلها عن البحر جبال الثلج، هي بالنسبة إلى لوركا مدينة "مليئة بالأفكار، لكنّها تفتقر الفعل"، فتفضّل رؤية العالم من حولها بعينين معصوبتين. فصوتها الحقيقي حزين، ويعبّر عن "تصادم الشرق بالغرب في موضعين فارغين تسكنهما الأشباح اليوم: قصر الإمبراطور شارل الخامس، والحمراء."

يقول ريتشارد فورد في كتابة المعروف "دليل السيّاح في إسبانية، والقرّاء في البيوت" (1845) عن قصر الحمراء، وكان محظوظاً إذ قضى صيفين في قاعاته:

> لا يذهب إلى القصر ولا يفهم تأثيره الطاغي، وذلك العشق الذي يكرّسه لدى الزائر الغريب غير القلّة من الغرناطيين، فلم تولّد الألفة لديهم غير الازدراء الذي يقابل به البدوي آثار بالميرا،

واللامبالاة بالشعر قديمه وحديثه، وبقصص الحب، والفروسية.

يوافق لوركا على هذه الملاحظة فيقول: "يحاط الغرناطي بالطبيعة السخيّة، لكنّه لا يخرج لملاقاتها. المناظر خلاّبة، لكنّه يفضّل رؤيتها من النافذة."

و"الشرفة" هي الكلمة المفتاح في غرناطة كما هي في شعر لوركا ذي الروح الغرناطية. وبما أنّها تعني حرفياً النظر، والإشراف من عل، فلها أن تشير إلى آلاف المواقع الممتازة (كالحدائق، والساحات، والشوارع) في هذه المدينة كثيرة التلال التي نرى منها أبهج المناظر، وأندرها. والحقيقة أنّ غرناطة بمجموعها أشبه بالشرفة، وما علينا حين ندخل شارعاً غير النظر إلى أعلى لنرى جانباً من الحمراء، أو نلمح طرفاً من قمّة دوارة الريح التي تنتصب أعلى المدينة.

وغالباً ما تعرف غرناطة في إسبانية بمدينة الكرمات. والكلمة في أصلها العربي تعني دارة على سفح التل ذات حديقة مسيجة. تزخر غرناطة بالكرمات، وخصوصاً أعلى حيّ البيازين، عبر نهر دارو، وأمام تل الحمراء. تحتجب الحدائق حين نسير في الشارع. وفي الداخل، وسط تعاريش الكروم والياسمين، والفواكه، والغرنوقي، لا بد من نافورة يتساقط منها الماء. ولكل كرمة شرفة، إن لم تكن هي الشرفة عينها. أكّد لوركا لأحد أصدقائه عام 1924 أنّه لو عاش في غرناطة لسكن إحدى الكرمات القريبة من "كل ما هو عزيز على النفس: السور المبيّض بماء الكلس، والآس الفوّاح، والنافورة."

ولكي نقدّر غرناطة لوركا حقّ قدرها، علينا قضاء ساعات قليلة في واحدة من هذه الجنّات. ويمكن للزائر أن يحظى بذلك حين يزور كرمة مانويل دي فايا الصغيرة تحت الحمراء (الجولة الرابعة)، على الرغم من أنّ كرمات البيازين خاصة تمنحنا مناظر مدهشة لجبل الثلج، وكرسي العربي، وجنّة العريف، وقصر الحمراء، وسهل دارو، والمدينة نفسها، والغوطة خلفها... وفي كرمة في البيازين تعيش بطلة مسرحية دونيا روسيتا، وهي من أكثر الأمثلة التي خلقها الشاعر إثارة لتجسيد رؤيته لغرناطة.

قال الشاعر في محاضرته "كيف لمدينة الغناء من تشرين الثاني إلى تشرين الثاني": "في غرناطة نهران وثمانون برجاً، وألف قناة، وخمسون سبيلاً وألف نبع، ونبع، ومائة ألف نسمة" لكنّه نسي آبار البيازين التي ترمز في أعماله الأولى إلى الحزن الأسود الذي يخيّم على هذا الحي العربي بعد أن استولى عليه النصارى، وطردوا ساكنيه الأصليين.

ثم ماذا عن غجر غرناطة، وكانوا منذ وقت قريب يسكنون كهوف الجبل المقدّس ويسلّون السيّاح برقصهم العنيف، وغنائهم؟ نجدهم على رأس قائمة الضحايا الأبرياء الذين يصفهم لوركا بالغرنوطيين، والذين مثلوا للشاعر أعمق الجذور في الروح الأندلسية.

وجد لوركا في الأغنية العميقة وهي أصل الفلامنكو الحديث، أكثر التعابير أصالة عن الروح الأندلسية، فضلاً عن الدور الأساس الذي قام به الغجر في تطور هذا النوع من الغناء، والمحافظة عليه. وقام لوركا، وهو الموسيقيّ الموهوب، يساعده دي فايا، بالتنقيب عن أصول الأغنية العميقة،

وجذورها · ونتيجة لهذه الريادة أصدر ديوان "قصيدة الأغنية العميقة" ليتبعه مباشرة بديوان "أغاني الغجر" الذي سنتعرّف إلى ملاعب بعض قصائده في زيارتنا الجبل المقدّس، وجبل القديس ميكائيل·

لا بد من أنّ غرناطة كانت شديدة الحرّ في تموز وآب من عام 1928 قبل بداية أيام الشعرى الصارمة· ويؤيّد هذا ما قاله لوركا من أنّ الصيف أسوأ أيّام غرناطة· ولا مناص عن موافقته الرأي· ومن المستحسن زيارتها في الخريف أو الربيع، وكلاهما فصلان بهيجان على الرغم من اختلافهما· ويبدو من رسائل الشاعر أنّه يفضّل زيارة المدينة في الخريف، حالماً يصل أيلول إلى نهايته، وتبدأ أولى زخّات المطر، فتستعيد غرناطة سماءها الزرقاء بعد أن كانت بيضاء تقريباً في تموز، وآب، لتبدأ حياة جديدة مختلفة· كتب لوركا إلى صديقه الموسيقار أنخيل باريوس في تشرين الثاني 1919 يقول: "غرناطة مدهشة، يملؤها ذهب الخريف· وكنت أفكّر فيك كثيراً في أثناء جولاتي في الغوطة· لا أستطيع أن أصف لك ألوان المكان، وحزنه·" وبعد سنتين من ذلك، تسلّم صديق آخر من غرناطة وهو ميلشور فرناندیث ألماغرو، رسالة مماثلة تقول: "أريد الهرب من هنا فقط حين تصبح كل الأشياء ذهبية تماماً· أودية دارو، وشينيل في الخريف، الوحيدة التي تقودنا إلى بلاد المجهول المستخفية في مكانٍ ما في أعالي الضباب·"

وغالباً ما يشير لوركا في رسائله إلى حبّه لملقة وتلهّفه على البحر· وإحدى الصفات المميّزة لغرناطة التي يحب الشاعر تأكيدها، افتقارها البحر· وهي حقيقة مخيّبة للآمال على الرغم من قرب المدينة من البحر

الأبيض المتوسط الممتد على الجانب الآخر من الحاجز الكبير لجبال الثلج. أما بالنسبة إلى الشاعر، فعزل غرناطة عن البحر ذو دلائل رمزية على الحرمان. يصفها لوركا في "قصيدة الغناء العميق" بالمدينة التي تتحسّر على البحر. ولاحظ الشاعر مرّة، أنّ الكثيرين يعتقدون أنّ "أغنية السائر في نومه" تعبّر عن "تلهّف غرناطة على البحر، عن ألم مدينة لا تسمع هدير الأمواج، التي تبحث عنها في لعب مياهها الجوفية مع الضباب المموّج الذي تغطّي به تلالها."

كان الوصول إلى الساحل في أيام لوركا مأثرة، أما الآن فالبحر "أقرب" ما يكون بعد أن جعلت الشوارع الفسيحة الوصول إلى موتريل لا يستغرق غير ساعة. إلاّ أنّ جبل الثلج المهيمن على المدينة شاهد ثابت على أنّ غرناطة ليست إشبيلية المفتوحة على البحر.

سيكون الكتاب دليلاً ناقصاً، إن لم نشر إلى مفكّر غرناطة، وروائيها أنخيل غانيفيت الذي انتحر عام 1898 عن اثنين وثمانين عاماً في السنة نفسها التي ولد فيها لوركا. وكان جيل لوركا يعدّ غانيفيت أحد أساتذته، وتأثّر خصوصاً بمقالته القصيرة "غرناطة الجميلة" التي ظهرت عام 1896 قبل سنتين من وفاته. وقد أوضح فيها اهتمامه بالشرور التي يقترفها المستثمرون بحق المدينة. يقول إنّ "وباء توسعة الشوارع" ـ كما يدعوه ـ قد استفحل، وأصبح رجال الأعمال المحليون مهووسين بالخط المستقيم، وهذا يتعارض تماماً مع جوهر الروح الغرناطية. كان غانيفيت، ومن بعده لوركا، يريان ذلك الجوهر في كل صغير، ورقيق، وحميم، وكانا يحلمان بغرناطة أخرى

حيث احترام التراث في تنافس مع متطلبات الحياة الحديثة. يقول غانيفيت في بداية مقالته: "غرناطتي ليست غرناطة اليوم، بل هي تلك التي تقوى على البقاء على الرغم من أنّي لا أعرف إن كانت راغبة فيه."

تبنّى لوركا وأصدقاؤه تحدّي غانيفيت، وقرّروا العمل على بناء غرناطةٍ أخرى أكثر تحرّراً وأشد حساسية للفنون، مدينة تعرف قدرها. عملوا لغرناطة التي كما قال غانيفيت تحافظ على أحسن ما في الماضي، وتعيش في تناغم شديد مع الأيام. وقد أوضح لوركا مرّة، أن جيله يتوق إلى غرناطيةٍ جديدة عالمية.

يؤكّد لوركا في مقدّمته لكتابه الأول "انطباعات ومناظر" (1918) على أهمية عالمنا الداخلي، ومن بين النصائح التي يقدّمها التأكيد على "رؤية أرواح أولئك الناس تهيم في كل ساحة نراها ومرّوا بها من قبل." وقد حاولت الاحتفاظ بهذه الكلمات حيّة في ذاكرتي وأنا أعدّ لهذا الكتاب. مرّت غرناطة بتغيّرات قاسية منذ أن غادرها الشاعر. فقد توسّعت بشدّة، وبطريقة مبهرجة ينقصها الذوق، وامتدّت أطرافها بوحشية حتّى وصلت إلى الغوطة. إنّها الآن أكثر صخباً، وأكثر ازدحاماً، متخمة بخطوط المواصلات. لكن ليس من الصعب إعادة بناء مدينة الشاعر في خيالنا، حتّى أننا نمرّ أحياناً بزاوية لم تنل منها يد الإنسان، ولم تخربها صروف الزمان، فنجدها ما زالت تحتفظ بأغنى الذكريات عن لوركا.

كان لوركا على علم بأنّه لن يعيش العمر في غرناطة، لكنّه يحب العودة إليها في الصيف لإراحة النفس، وبعث النشاط بعد هرج ومرج مدريد.

زيادة على هذا، كان يقول إنّ غرناطة ـ بغوطتها والمدينة ـ قد صنعت منه شاعراً.

***

أخيراً، أرجو أن تطيعني في نصيحة أخصُّك بها. اسع للحصول على سكن في تل الحمراء، ليلة واحدة على الأقل. وهو هنا أغلى كثيراً من وسط المدينة. لكن إذا كنت ميسوراً فستجد أنّ ما تنفقه في الحمراء يساوي ثمنه، وستضيع تجربة فريدة لو زرت غرناطة بحثاً عن غارثيا لوركا ولم تنم بالقرب من القصور العربية، أو بالقرب من كرمة فايا.

أتمنى لكم السعادة الغامرة التي أحسستها بنفسي في غرناطة، والفضل للوركا.

الجولة الأولى: الباب الملكي، وما يجاوره

الزمـن: ساعـة تقريبـاً مشيـاً على الأقدام

أشرتُ في المقدّمة إلى أنّ لوركا لم يولد في غرناطة نفسها، بل في قرية عين رعاة البقر التي تبعد ثمانية عشر كيلومتراً عن المدينة ناحية الغوطة. ويفترض أن تأخذنا الجولة الأولى إلى هناك طبقاً للمبدأ القائل أول الأشياء أولاها، لكن يبدو أنّ معظم الزوّار يودّون التأهّب في غرناطة قبل البدء باستكشاف الفرودس الذي قضى فيه الشاعر طفولته. وإن كنتُ مخطئاً فَلَكَ الإنتقال إلى الجولة التاسعة.

ولكي تبدأ جولتك إبحث عن الطريق المؤدّي إلى الباب الملكي، مركز غرناطة اليوم كما كان بالأمس. جد على الخريطة التي بين يديك تلك البناية التي كانت رائعة يوماً ما، بين تقاطع شارع الفنادق والهونديغا. ستجد في الطابق الأرضي مقهى غرناطة الكبير، والذي يُعرف محليّاً بالمقهى السويسري. وفي أثناء عملي في هذا الكتاب كان هذا المقهى المهيب بموقعه الجيّد، والذي يؤمّه الأدباء في غرناطة مغلقاً منذ سنين (وهذا ما أرعب كل محب للمدينة) ونأمل أنّه سيفتح من جديد بإدارة جديدة، حينها أرجو أن تتناول فطورك الأول فيه، فتجلس إلى طاولة حيث ترى جانباً من الباب

الملكي. وما دمت أتألّم لإغلاق مقهىٰ كهذا إلىٰ الأبد، أسمحُ لنفسي الافتراض أنّه مفتوح بالفعل. لا شك في أنّه من أقدم المقاهي في إسبانية، وبجسب علمي، فهو الوحيد الباقي من المقاهي التي كان يتردّد إليها لوركا وأصدقاؤه.

حينما بدأت أحقّق عام 1965 في اغتيال لوركا، كنت آتي إليه كل صباح لتناول الفطور ووضع خطّة عملي اليومية. وكان المقهىٰ يقدّم أشهىٰ اللحوم التي ذقتها في حياتي، وألذ أنواع القهوة الفاخرة. كان فطوراً لا ينسىٰ. وغالباً ما أعود في الأصيل لمقابلة المحامي والكاتب أنطونيو بيريث فونيس،صديق الشاعر، وجماعته مختلفي الآراء. هكذا بدأتُ دخولي "أسرار غرناطة" كان الناس ما زالوا يخشون التحدّث صراحة عن الظروف المحيطة بموت لوركا، لكن بيريث فونيس تحدّث بالفعل، خافضاً صوته، وأعطاني المعلومات الضرورية للخطوات الأولىٰ في بحثي. وستقدّر أيّها الزائر مشاعري نحو المقهىٰ السويسري، وتفهم لماذا أطلب منك الذهاب إليه والتمتّع بمباهجه؟

قد يصعب التصديق أن نهر دارو (حَدارُّه، أو حيدرة) يجري تحت شارع الملكين الكاثوليكيين، والباب الملكي، ثم ينعطف بحدّة حالما يمر من أمام المقهىٰ السويسري ليلتقي نهر غرناطة الثاني شينيل في نهاية الشارع. ولغانيفيت الذي ورد ذكره في المقدّمة الكثير من الانتقادات التي يوجهها إلىٰ تغطية النهر، فيقول في "غرناطة الجميلة":

أعرف الكثير من المدن التي تقطعها الأنهار
العظيمة والصغيرة، من السين، والتايمز إلى نهر
المثنار الصغير العطشان في مدريد. لكني لم أر
نهراً مسقوفاً مثل نهر دارو الذي يحمل الذهب.
وأؤكّد أنّ الشخص الذي فكّر في تطويقه بقنطرة
قد فكّر بليل، في ليلةٍ لها نتائج رهيبة على مدينتنا.

وحين انتقلت عائلة لوركا إلى غرناطة عام 1909 واستأجرت بيتاً في رصيف دارو، كان النهر ينبثق من نفقٍ على بعد مئات الأمتار من المقهى السويسري، ثم يقطعه بالقرب من جسره الأخير الباقي، جسر عذراء الآلام. وقد اختفى هذا المشهد الرائع بعد الحرب الأهلية حينما سقفوا الجزء الأخير من النهر.

تُرى ما الذي حدا بمسؤولي غرناطة إلى التمادي، والحكم على النهر بالتعتيم في مروره بالمدينة؟ السبب ترويض الوحش الهائج في النهار حين ينزل المطر فجأة على التلال الممتدة.. خارج المدينة، والتي لا تبعد غير ستة عشر كيلومتراً، فيغيّر النهر طبيعته الهادئة، ويدمّر في ثورته كل المنحدرات، وتغطّي مياهه الشوارع المحيطة، ويقذف بكل ما يعترضه. هكذا حكم على دارو الذي تغزوه الفئران، بالظلام الأبدي في مروره تحت شوارع غرناطة.

وفي عام 1835 تفتّقت العبقرية الغرناطية عن أغنية شعبية احتفاءً بالمطر الغزير تلك السنة حينما جنّ النهر، فسجلها لنا ريتشارد فورد في كتابه:

وعد دارو

شينيلَ الزواج،

وسيكون مهرها الذهاب

إلى الساحة الجديدة وشارع السقاطين.

يبدأ النفق من الساحة الجديدة، بجانب كنيسة القديسة آن. وسنرى بدايته في الجولة الخامسة. أما شارع السقاطين الضيّق الذي يبعد خطوات قليلة عن المقهى السويسري، فيبدأ من ساحة باب الرملة المزدحمة، ويمضي في موازاة شارع الملكين الكاثوليكيين متجهاً نحو الشارع الكبير. وقبل الاصلاحات الكبيرة التي جرت في المدينة في القرن التاسع عشر، كان السقاطين شارعاً رئيساً يحاذي دارو.

وما زال دارو إلى اليوم يثور على سجّانيه. وفي عام 1951 هطلت الأمطار بغزارة، وسدّت مجرى النهر الأشجار النازلة من التلال، وارتفع المنسوب، وفاض النهر حتى غطّت مياهه قنطرة الباب الملكي، فأعادت ما جرى عام 1835 حين غمرت المياه الشوارع المجاورة.

تجدر الإشارة إلى أنّ حدارة (حيدرة)، وهو الاسم العربي للنهر، قد ولّد اسمين في الإسبانية، "دارو" و"دورو" ويعني الأول في غرناطة، مجرى المياه القذرة، لأنّ النهر يشبه مصرفاً للمياه. أما الاسم الثاني فاشتق من الذهب

على الرغم من أنّ النهر لم يحمل ما يكفي من هذا المعدن الثمين. وشاعت التسمية الأولى على الرغم من أنّ شعراء القرن التاسع عشر، ثم لوركا من بعدهم، يفضلون الاسم الثاني لشعريته. وسواء في قصائده الأولى، وفي أول قطعة نثرية نشرها بعنوان " خيال رمزي" (1918)، أو في كتابه الأول "انطباعات ومناظر" (1918)، غالباً ما يشير الشاعر إلى النهر، وخصوصاً في مجراه خلف المدينة حيث يمتد نزولاً في الوادي الأخضر المعروف بوادي الجنّة.

وبعد أن ذكرنا التهديد الذي يشكّله النهر لغرناطة، لا بد من أن نعرّج على أمر آخر أشد خطورة، فغرناطة من أكثر المدن الإسبانية عرضة للهزّات الأرضية، ولحسن الحظ، فإنّ أكثرها يمر بسلام من دون أن يلاحظ أحد. وحدثت في القرن التاسع عشر عدّة هزات في مناطق مختلفة من الإقليم، كان آخرها عام 1956، حين هزّت واحدة العاصمة نفسها، فقضت على الكثيرين، وهدمت المباني. ويعتقد كثير من الغرناطيين باليوم الذي تفتح فيه الأرض فكّيها، وتبتلع المدينة بما فيها، الحمراء وجنة العريف. ويبدو أنّ واشنطن إرفنغ قد آمن بذلك أيضاً، فيأتي في كتابه الفريد " قصص الحمراء" (1932) (والذي أنصح كل محبي غرناطة بقراءته) على ذكر شق طويل شاهده في برج قمارش في قصر الحمراء. ويقول، إنّه دليل على أنّ البرج قد "صدعته إحدى الهزّات التي تجعل غرناطة نهباً للذعر، والتي عاجلاً، أو آجلاً ستحيل هذا المبنى المقوّض ركاماً." لكن البرج ما زال قائماً

بعد أكثر من مئة وخمسين عاماً على زيارة هذا الأمريكي الموهوب الذي كان يحلم على ضفاف الهدسون، وهو طفل، بسحر غرناطة.

ولكن لنعد إلى لوركا. كانت في أيّامه عدّة مقاه معروفة في الباب الملكي، لكنها اختفت منذ زمن، فكان على الجانب الآخر من شارع الفنادق، وعن يسارنا عند زاوية شارع الملكين الكاثوليكيين، مقهى كولون (في المكان الذي تشغله الآن قرطاسية الباب الملكي). وكان على رصيف المقهى، يسار الباب الملكي، المقهى الذي يرتاده فدريكو غارثيا رودريغيث، والد لوركا (وكان مشهوراً بمحافظته على القديم). وبجانبه في الموقع الذي يشغله اليوم البنك الشعبي الإسباني، مقهى الإمبريال، وأمامه على الرصيف، فسحة جميلة كان لوركا يحب الجلوس عليها.

دعونا الآن نغادر المقهى السويسري، في الواقع أو الخيال، ونبدأ جولتنا الأولى. بعد أن ننعطف يميناً، ونختار شارع ريكوخداس، ندور على زاوية فندق فكتوريا، حيث نبدأ جولتنا يمين الباب الملكي. لحظات، ونصل إلى المكتبة الأوروبية، وهي من أحسن المكتبات في غرناطة، وفيها أحسن الكتب عن المدينة.

نجتاز بضعة أبواب، فنجد حانة إنريك التي يطلقون عليها الفيل. أُسّست عام 1911، ولا بد من أنّ لوركا يعرفها. وهي مشهورة في غرناطة بتقديم المشروبات اللذيذة قبل الطعام، كما يفضّلها الكتّاب والفنانون المحليّون. ويقوم صاحب الحانة الحالي الذي تولى الإدارة بعد وفاة والده

بتقديم الطابا الممتازة. حقاً. قدّم نفسك، واطلب كأساً من فينو الساحل، نبيذ غرناطة الذي لا يعرفه إلاّ القليلون.

ويمكنك من حاجز حانة إنريك أن تتبيّن قرية ثوبيا، وكانت موجودة في أيام لوركا، وفيها ولد صديق الشاعر فرانثسكو سوريانو لابريثا. وكانت له ضيعة صغيرة بين المنحدرات السفلى لجبل الثلج. ونحو عام 1921 قام سوريانو، ولوركا، وآخرون من جماعة الزُوِيَّة بتخصيص بقعة من أرض سوريانو لإقامة دير، أو ضريح، إحياءً لذكرى ابن طفيل، وآخرين من مفكّري غرناطة المسلمين. تحمّس لوركا لفكرة هذا المشروع الباهظ، وهو يرنو إلى المكان من الباب الملكي. وكانت النية أن تكون قبة الضريح البيضاء ومنارته الصغيرة واضحتين للعيان. ولكن واحسرتاه، لم يعل المشروع طابوقه واحدة. ولو تمّ، لما استطعنا مشاهدته اليوم من الباب الملكي.

يوجد بجانب حانة إنريك، مطعم الأسود الذي أسّس عام 1920، وكان مكاناً مفضّلاً لدى لوركا، الطعام جيّد، والخدمة لطيفة، والمشرب الخلفي مكان مريح للحديث، وتناول الطابا.

نستمر في طريقنا مبتعدين عن الباب الملكي، فنجتاز شارع الصنوبر، وسرعان ما ندخل شارعاً ضيّقاً هو جسر الكستناء الذي يذكرنا اسمه بالجسر ما قبل الأخير على دارو، والذي أزيل حينما سُقّف الجزء الأخير من النهر بعد الحرب الأهلية. وفي نهاية هذا الشارع الصغير، وفي بيت عند الزاوية اليمنى، عاش مانويل فرناندیث مونتيسينوس، زوج كونشا شقيقة لوركا. وحينما قامت الثورة ضد الجمهورية في تموز 1936، كان قد أمضى

ثمانية أيام في منصبه محافظاً اشتراكياً لغرناطة. وسرعان ما اعتقل، وأعدم صبيحة السادس من آب 1936، في اليوم نفسه الذي اعتقل فيه لوركا.

نحن الآن في رصيف دارو. على زاوية شارع جسر الكستناء، وفي البناية رقم 44 فندق مونتكارلو الذي يضم المنزل رقم 46 أيضاً، والذي استأجره والد لوركا حينما انتقلت الأسرة إلى غرناطة عام 1909. كان مبنىً ذا عدّة طوابق، فيه باحة تظلّلها عرائش الكروم، وسطها نافورة صغيرة، وحديقة من الخلف، فيها اسطبل صغير، وزريبة للماشية. تتشابك نباتات الغرنوقي، والبنفسج، وآذان الفأر الأزرق، وتنتصب وسط الحديقة المغنوليا المترفة. ترد هذه التفاصيل في كتابٍ ممتع لشقيق لوركا بعنوان "في الصباح الأخضر" (1989) . ولم يبق من البيت غير الباب، أما معالمه الأخرى فقد تغيّرت بحيث يستحيل التعرّف إليه.

يقول الأخ فرانشسكو إنّ انتقال الأسرة إلى غرناطة لا يعني القطيعة الكاملة لحياتها السابقة في الغوطة، فغالباً ما يأتي الأقارب والأصدقاء من قرية عين الرعاة، والقرية الأخرى المجاورة أكسيروسا، وتمتلئ الحجرة الفسيحة بالفواكه، والخضر التي يجلبونها من أطيان الدون فدريكو. واعتادت الأسرة قضاء أسابيع كل صيف في أسكيروسا، فتقف الخادمات من الغوطة على أهبة الاستعداد لمساعدة الضيوف.

من بين أولئك المرأة المحبوبة دولوريس كويستا، القروية الطيّبة الأميّة، التي لا تنضب ذخيرتها من المعارف والتقاليد المكتسبة من لدن نساء القرى. وبهذا، فقد تركت انطباعاً لا يمحى على فدريكو، إذ تنعكس شخصيتها

المرحة، وكلامها الريفي على العجوز الوثنية في مسرحية يرما، وعلى مدبرة المنزل في "ألدونيا روسيتا العانس"

عام 1916 تركت الأسرة البيت في رصيف دارو، وقضت عاماً في شقة في الشارع الكبير، ثم انتقلت إلى بيت رائع رقمه31 في رصيف المقهى، عبر الشارع حيث نقف الآن. وقد هدم هذا البيت الجميل منذ بضع سنين، وأقيم محلّه مبنى آخر حديث ذو طوابق. وفي أثناء عملي على هذا الكتاب، كان الطابق الأرضي من البيت يشغله بنك الاعتماد الزراعي. وسنقرأ لاحقاً الكثير عن سنوات لوركا هنا.

أقترح أن نمضي الآن إلى نهاية شارع رصيف دارو ـ وهي مسافة تقارب الثلاثمائة ياردة ـ لنرى المنطقة التي يتحرّر فيها النهر من سجنه حين يجري تحت الأرض ليندمج تلقائياً كالسيل الواهن بنهر غرناطة الثاني شينيل. لا تزبد مياه الملتقى ولا تنبعث منها رائحة طيّبة. لكن أعتقد أنّ من الأفضل أن تراها بنفسك.

أما شينيل، فأهم وأغنى من دارو. طوله ثلاثمئة وثمانية وخمسون كيلومتراً. ينبع من جبال الثلج، ويقطع الغوطة حتى يصل إلى لوشة، ثم يمضي في جريانه إلى جسر شينيل وأستجة حتى يلتقي بنهر الوادي الكبير في نخلة النهر. وكما أنّ قسماً من مياه دارو تذهب خلف غرناطة لتروي ينابيع وأحواض الحمراء وجنّة العريف، فإنّ مقداراً كبيراً من مياه شينيل تنحرف قبل وصولها إلى المدينة لتسقي قناة غورطة العجيبة التي بناها المسلمون للسقي، والتي لا تزال تعمل إلى اليوم، على أحسن وجه. ولا يزداد تيار

شينيل إلاّ في مروره عبر الغوطة، عند لقائه بنهر كوبيلاس. ويلتقي النهران في مكان قريب من قرية الرعاة. وفي طفولته، لعب لوركا على ضفاف هذين النهرين. لذا قابل لوركا في واحدة من قصائده المعروفة بعنوان "أغنية الأنهار الثلاثة" بين إشبيلية، وغرناطة بلغة أنهارهن. أصبحت إشبيلية بفضل نهر الوادي الكبير ميناء إسبانية الرئيس بعد اكتشاف كولمبس العالم الجديد عام 1492، ذلك النهر الذي كان بالنسبة إلى لوركا رمز الحريّة، والحب، والانفتاح على العالم. أما أنهار غرناطة الخالية من المراكب، فتمثّل الخيبة، والموت:

للسفن الطويلة
شارع في إشبيلية؛
على مياه غرناطة
يتنهّد المجذاف

ولا أمنع نفسي، فأذكر مقطعاً آخر من هذه القصيدة بما فيه من تلميح إلى برج خيرالدا الكبير في إشبيلية وإلى برك المياه الساكنة في الحمراء وجنّة العريف:

وادي الكبير، برج عالٍ
والريح في بساتين البرتقال.
دارو وشينيل، برجان صغيران
ميتان فوق البرك.

نعبر الآن الشارع متجهين إلى متنزه الصالة، والذي سمّي فيما بعد متنزه المضخة، والذي يقول عنه فورد: "ذلك المحتشد الجميل الرفيع في هذا الطريق الذي تحفّ به الأشجار، ودائماً ما تؤذيه مياه الأمطار الفائضة"·

وفي نهاية القرن الماضي كان التنزّه عادة محبّبة يمارسها الوجهاء والأغنياء، بينما يأتي الفقراء هنا كل مساء ليروا الناس ويراهم الناس· وفي "الدونيا روسيتا العانس" ثمّة إشارة مضحكة إلى وجاهة الصالة، حينما تتذمّر الأم من بناتها العوانس، فتقول: "وضاعة أصلنا لا تسمح لنا بالانغماس في الرفاهية التافهة· وغالباً ما أسألهن: ماذا تردن يا عزيزات، بيضة للعشاء أم مقعداً في الصالة؟ فتجيب ثلاثتهن بصوت واحد: مقعد في الصالة!" وسمع لوركا هذه النكتة من أم أحد الأصدقاء·

على الجانب الآخر من شينيل، تقع كليّة الآباء البياريين، حيث يدرس أبناء الطبقة الوسطى في غرناطة· ولو أراد والد لوركا لولديه فدريكو، وفرانشسكو الدراسة على أيدي القساوسة لأرسلهما بالتأكيد إلى هذه الكليّة·

كان لوركا يتردّد إلى البناية رقم 3، شارع المضخة (تماماً خلف النافورة)· وقد حلّ مكانها اليوم مجمع ضخم للشقق· هنا كان له صديقان خاصان، الأول هاوي الفنون الفاتن، ميخيل ثيرون روبيو· والثاني أستاذ القانون في جامعة غرناطة وعضو البرلمان، الاشتراكي، فرناندو دي لوس ريوس، أحد المشهورين في المدينة في أثناء فتوّة الشاعر· رعى دي لوس ريوس لوركا، وأصبح صديقاً حميماً للأسرة· وبعد سنين لاحقة يتزوّج فرانشسكو غارثيا لوركا ابنة هذا الأستاذ، و اسمها لورا·

نعود إلى الباب الملكي عن طريق شارع سباق شينيل. أمامنا عبر الشارع على بعد مئة ياردة عن اليسار كنيسة سيدة الأحزان التي بنيت عام 1671. والغرناطيون يكرّسون للعذراء، ولا يختلف لوركا عنهم. لذا ألق نظرة على الكنيسة من الداخل. والصورة المهيبة للعذراء الموضوعة على المذبح الرئيس رسمت في النصف الأول من القرن السادس عشر.

نعود إلى الجانب الآخر من الشارع فنصل بعد أربع أو خمس دقائق إلى حديقة صغيرة أمام بناية مجلس نيابة الإقليم، وهي قصر من القرن السابع عشر، يتألّف مدخله من مجموعة أعمدة لولبية، هي مثال على فن الباروك الإسباني. خلفها مباشرة مطعم ومشرب الشيكيتو الذي يمتد دائرياً حتّى ساحة كمبيلو المشهورة بأشجار الدلب الضخمة.كانت هذه البناية أيام لوركا، مقهى الغابة الصغيرة حيث يلتقي الشاعر جماعته من الأصدقاء. وكانوا يجلسون دائماً إلى مناضد معيّنة في زاوية المقهى، فأطلقوا على تجمّعهم اسم "الرنكوثيلو" أو الزُويّة.وجرى تخليد هذا التجمّع بلوحة معدنية مثبتة على واجهة المبنى. يستحضر خوسيه موراغورنيدو، وكان من الجماعة، ذلك الجو في كتابه عن لوركا بعنوان "فدريكو غارثيا لوركا وعالمه" (1958) فيقول:

> من الصباح وحتى العصر يكون الزبائن من الرجال الغلاظ القادمين من المسالخ، ومحال بيع السمك، وسوق الغلال. شبّان يبين شعر صدورهم، كما يقول التعبير الدارج، يمضون

ذهاباً وإياباً لقضاء أعمالهم. وفي الأصيل والمساء يصل مصارعو ثيرانٍ بسطاء، ليس لهم من عمل معيّن، كما تصل جماعة الفلامنكو، وعازفو القيثارات، ومغنون من مقهى المونتيلانا المجاور، وأصحاب المنحرفين، والمترددون إلى منطقة المانيغوا المشبوهة، ومشاهدون من مسرح ثربانتس المقابل حيث تقوم شركات متخصصة بالعروض الرخيصة بتقديم أوبريتات خفيفة للاستهلاك الأسري أول المساء، وتقوم في الليل بتقديم عروض خادشة للحياء لأولئك الرجال الحذرين الذين يحبون من وقت لآخر الانطلاق على سجاياهم. والغريب أنّ المقهى يحتفظ دائماً بخماسي موسيقي مؤلّف من عازف البيانو، وأربعة عازفين وتريين، يعزفون كل مساء حتى منتصف الليل، تأتي بعده حفلات الموسيقى الكلاسيكية. والأكثر غرابة أنّ الزبائن يستمعون بمتعة، واحترام ـ وهذا عكس ما يقال غالباً عن ضعف الجمهور في تذوّق هذه الموسيقى.

كان سيد جماعة الزويّة، الفنان الموهوب غريب الأطوار فرانشسكو ("باكويتو") سوريانو لابريثا الذي ورد ذكره من قبل. وكان له شيء من

ذكاء أوسكار وايلد، وحضوره وتأنّقه، وصيته، ولديه مكتبة ضخمة يتكرّم بكتبها لمن أراد، وأكثر الطلب على مجموعته من الكتب الجنسانية. وأشيع، أنّ اهتمامه بالموضوع لم يكن أمراً سلبياً، فكان يقيم في بيته طقوساً سريّة غريبة. وكان من البارزين في الجماعة ميلاشور فرنانديث ألماغرو الذي سيغدو مؤرّخاً، والرسامان مانويل أنخليث أورتيث، وإسماعيل غونثاليث دي لا سيرنا، والصحافي كونستانتينو رويث كارنيرو (والذي سيلاقي المصير نفسه الذي لقيه لوركا في الحرب)، والمستعرب خوسيه نافارو باردو، والعالم بفقه اللغة خوسيه فرنانديث مونتيثينيوس، والنحّات خوان كرستوبال.

كثيراً ما يعرج الأدباء والفنانون الإسبان على جماعة الزويّة الصغيرة التي وصلت إلى أوج شهرتها بين عاميّ 1915 و 1922. وكان للجماعة "أعضاء شرف" مثل مانويل دي فايا، وفرناندو دي لوس ريوس الذي يحضر من وقت لآخر. كذلك كانت الجماعة تحتضن الأدباء، والموسيقيين، والفنانين الأجانب حين يمرّون بالمدينة، وتأخذهم في رحلات ممتعة إلى الأماكن السريّة في غرناطة. نذكر منهم الأديب، والمؤرخ الإنكليزي هربرت ويلز، ورديارد كبلنغ، وعازفة الهارف وندا لاندوونكا، وآرثر روبنشتاين، والسويدي المتخصص بالإسبانية كارل سام أوسبيرغ الذي كان روحاً تائهة في غرناطة قبل أن يحالفه الحظ، ويعثر على الجماعة. وفي أحد الأيام حضر دبلوماسي ياباني شاب، اسمه ناكاياما كويشي. ويسجّل خوسيه مورا غوارنيدو، أنّ أفراد الجماعة ألحّوا عليه في السؤال عن العادات غير

الأخلاقية في بلده، لكنهم حزنوا حين تبيّن لهم أنّه لا يعرف شيئاً عن الموضوع. وزار الجماعة أيضاً طالب انكليزي اسمه شارل مونتاغيو إيفانز، وقضى أشهراً في غرناطة عام 1922.

وإحدى الفعال الظريفة التي تقوم بها الجماعة، وضع الشواهد التذكارية من الخزف على حيطان البيوت التي سكنها الفنانون، والأدباء المشهورون، غرناطيون وغير غرناطيين. ومن الذين كرّمتهم الجماعة تيوفيل غوتيه، واسحق ألبينيث، والموسيقار الروسي غلنكا، وشاعر القرن السابع عشر، بيدرو سوتو دي روخاس. وسنرى لاحقاً أنّ شاهدتين من هذه الشواهد لا تزالان باقيتين إلى اليوم.

إذا زرت غرناطة في أي فصل، عدا الشتاء، سيبهجك الجلوس في ساحة الكامبيلو على سطيحة ما كان يدعى في السابق مقهى ألاميدا، وتنال قسطاً من الراحة. هنا كان لوركا يجتمع بأصدقائه في الصيف حين خرجت جماعة الزوية إلى الهواء الطلق. وشجرات الدلب العملاقة الأربع أطول ما ترى من شجر في غرناطة. وآمُل، وأنا أكتب الآن، أن تنجو هذه الشجرات من خطر الأعمال الجارية لبناء ساحة تحتية للسيارات.

ندير ظهورنا إلى الباب الملكي، ونتجه إلى الزاوية اليمنى لساحة الكامبيلو، فندخل ساحة ماريانا بنيدا، البطلة الشابة التي قتلها أعوان الطاغية فرديناند السابع عام 1833 بتهمة تطريز علم للأحرار. أقيم لها تمثال عام 1841 بعد ثمان سنين من وفاة الطاغية. وحينما وصل لوركا مع والديه إلى غرناطة ذكّره التمثال بالأغنية الشعبية التي تتحدّث عن تضحية ماريانا،

وكان غالباً ما يردّدها مع أصحابه، وهم يلعبون في قرية العين. وتطري الأغنية على شجاعة ماريانا لأنّها لم تشِ لقائد الشرطة الفاسد بيدروس بأسماء الأحرار الذين خططوا للثورة.

أنهى لوركا مسرحيته هذه عام 1923، لكنها لم تمثّل إلاّ عام 1927، وصمّم مشاهدها الفنان سلفادور دالي. وفي 29/ 5/ 1929، بعد فترة قصيرة من مغادرة الشاعر إلى نيويورك،قامت الممثلة القشطالية مارغريت زيرغو بإخراج المسرحية، وعرضها على مسرح ثربانتس في غرناطة، فكان حدثاً كبيراً. كانت البناية المميّزة للمسرح قائمة على طرف الساحة مقابل تمثال ماريانا، وقد هدمت عام 1966 ليحل محلها هذا المجمع السكني البشع الذي نراه اليوم.

ندع التمثال عن يميننا، ونمضي نحو شارع القديس متى، فنختار الشارع الذي ينعطف يميناً قبل الوصول تماماً إلى شارع متّى. هذا هو تل النجاح، على الرغم من غياب أيّة علامة تدل عليه. ننعطف حالاً عن اليسار، فندخل شارع فاريلا، واسمه مكتوب على الزاوية. ستعرف أنّك على المسار الأيمن، إذا استطعت رؤية برج السهر من نهاية الشارع، ذلك البرج الذي ينتصب في مقدّمة قصر الحمراء. وستجد في البناية رقم 6، عند زاوية شارع القديس أنطونيو، واجهة المبنى الذي يضم النادي الفني الجديد، والمجمع العلمي، والمقر الأدبي والفني لغرناطة، وكلّها افتتحت عام 1926. واليوم، فإنّ البناية من الداخل قد تغيّرت تماماً.

أقيم المجمع العلمي أمام المركز الفني الذي كان في ذلك الوقت جمعية ميتة تقتصر على الشيوخ من لاعبي الشطرنج. ومن بين الذين أنشأوا المجمع، نذكر فرناندو دي لوس ريوس، ومانويل دي فايا، ولوركا. وظل المجمع عدّة سنين واحداً من أكثر المراكز الثقافية نشاطاً في المدينة. ألقى لوركا في 13/ 2/ 192 محاضرته التي افتتح بها نشاط المجمع، وكانت عن "الصورة الشعرية لدى الدون لويس دي غونغورا" وكان حدثاً لا ينسى اشتهرت به المحاضرة، فكان الشاعر يعيد قراءتها حيثما ذهب.

نعود إلى تل النجاح، فننعطف شمالاً، ونصعد إلى ساحة الحقول التي تغيّرت كثيراً عمّا كانت عليه قبل أيام الحرب الأهلية. وكان على الجانب البعيد منها مسرح إيزابيل الكاثوليكية، في المكان الذي يشغله اليوم مرآب السيارات الذي يحمل الاسم نفسه. أحرق الجمهوريون المسرح في 10/ 3/ 1936، ولم يبنه أحد. هنا في 7/ 10/ 1932 قدّمت فرقة العربة التابعة لجامعة مدريد التي يديرها لوركا، مسرحية كالديرون " الحياة حلم" وعبّر لوركا في الكلمة التي ألقاها قبل العرض عن شعوره إذ يجد نفسه على المسرح الذي رأى فيه، وهو طفل، عدداً من قمم المسرح الإسباني، والتي أسعده الحظ بإحيائها، وتقديمها من جديد.

انتقل المجمع العلمي، والمقر الأدبي والفني في خريف 1926 من شارع فاريلا إلى المبنى القائم خلف مسرح ثربانتس في ساحة ماريانا بنيدا، والتي نعود لها الآن. هنا، وفي 17/ 10/ 1926 قرأ لوركا محاضرته عن الشاعر بيدرو سوتو دي روخاس (وهي قراءة أولية لنظريته عن غرناطة). وبعد أيام من

ذلك، في 28/ 10، صعد أعضاء المجمع إلى حيّ البيازين، ووضعوا شاهدة تذكارية على حائط بيت سوتو دي روخاس. وسنرى البيت في جولتنا السابعة. وحينها، عام 1928، ألقى لوركا هنا محاضرتين أخرتين تبينان اتجاهه إلى السريالية هما "الخيال، الإلهام والهروب في الشعر" و" مخطط للرسم الحديث".

نعود من ساحة ماريانا إلى ساحة كامبيلو، وندخل رصيف المقهى. وذكرنا أنّ أسرة لوركا انتقلت عام 1916 إلى البناية التي يشغلها الآن مصرف الاعتماد الزراعي، أي البناية رقم 15 الآن. تعود تلك البناية الجميلة التي هدمت في السبعينيات إلى أسرة مورينو أغريلا المثرية في غرناطة.

سكنت الأسرة الطابقين الثاني، والثالث. وكان في الطابق الثاني شباكان جميلان يحيطهما من الخارج صندوقان خشبيان، وفيه شرفات رائعة مسيّجة بالحديد المطاوع. وتبدو من الشبابيك العلوية، مناظر رائعة للغوطة. وكان لوركا يرى من الخلف مسرح ثربانتس، وساحة ماريانا.

أقام لوركا، ومانويل دي فايا عرضاً للدمى في هذا البيت بتاريخ 6/ 1/ 1923(في الليلة الثانية عشرة لتسلّم الأطفال الإسبان هداياهم بعيد الميلاد). وكان عرضاً لا ينسى بدأ بصورة صامتة بعنوان "المتحدّثان"، وكانت تنسب إلى ثربانتس، تلتها مسرحية دمى قصيرة للوركا بعنوان "ساقية الريحان، والأمير الفضولي"، أعدّها عن قصة أندلسية قديمة. ثم قدّمت مسرحية قديمة من القرن الثالث عشر بعنوان "مسرحية غامضة عن العقلاء الثلاثة"كانت الموسيقى المصاحبة للعروض، والتي أدّتها فرقة

صغيرة بإشراف فايا متقنة، ومنوّعة ضمّت مقاطع من "حياة الجندي" لسترافنسكي"، ومن "الغوطة" لألبانيث، و " نجوى الدمية" لديبوسي، ولحناً هادئاً لرافايل، ومقطوعات إسبانية قديمة. غنّت إيزابيل شقيقة لوركا، وكانت في الثالثة عشرة، ثم أتبعتها صديقتها لورا، ابنة فرناندو دي لوس وكانت في العاشرة بأغنية أخرى.

يتذكّر فايا ولوركا الحدث بشوق بعد سنين من ذلك. تأثّر لوركا كثيراً بالعناية الشديدة التي أبداها الدون مانويل للمناسبة، فقال عام 1933: "من أجل تسلية بعض الأطفال الصغار، أصرّ على أن يكون كل شيء في وضعه الصحيح."

لا شك في أنّ الوقت قد حان لتناول بعض المرطبات الخفيفة في حانة أنريك. وإذا احتجنا ما نأكله يمكننا الذهاب إلى مطعم الأسود الذي عرفنا موقعه من قبل، وهو أحد المطاعم التي كان لوركا يرتادها، وما زالت باقية في غرناطة.

الجولة الثانيــة: قلــب غرناطة

الزمـن: ساعتان مشياً على الأقدام

مرّة أخرىٰ فالباب الملكي نقطة تحرّكنا، منه ندخل شارع الفنادق، وهو شارع ضيّق يمور بالحيوية والنشاط، يمتد بجانب المقهىٰ السويسري.

علىٰ مسافة بضعة ياردات من الرصيف الأيمن، في المبنىٰ رقم 12، تماماً بعد صيدلية غالفيت القديمة الظريفة، كان للوركا حساب شهري عند مكتبة أنريك بريتو التي اختفت من الوجود منذ سنين عديدة. وحينما كنت أعمل في هذا الكتاب كان يشغل واجهة المبنىٰ، محل نيكو لأحذية الأطفال. كان الشاعر يشتري من هنا كتبه العديدة، تشهد علىٰ ذلك كثرة الكتب الموجودة الآن في دار فدريكو غارثيا لوركا في مدريد.

كانت علىٰ الجانب الآخر من الشارع، وبعد حوالي ستين خطوة إلىٰ الأمام، في البناية رقم 29، دار مشهورة في تأريخ الحياة الأدبية لغرناطة، ومهمة في سيرة لوركا الأدبية، هي مكتبة فينتورا ترافيسيه، ومطبعته التي أنشأت عام 1835. والموقع يحتله اليوم مصنع حلويات الحمراء. نشر فينتورا كتاب أنخيل غانيفيت "خيالات إسبانية" عام 1897، أتبعه بأول ترجمة

إسبانية لكتاب واشنطن أرفنغ "قصص الحمراء" وفي عام 1918 استطاع والد لوركا تقديم المبلغ المطلوب لطبع كتاب ولده الأول "انطباعات ومناظر"، وهو وصف لرحلاته مع مارتن دومينخويث بيروتا، أستاذ نظرية الفنون في جامعة غرناطة. طبع الكتاب عند فينتورا ترافيسيه. وبعد عشر سنين قامت الدار نفسها بطبع العددين الوحيدين من مجلة "الديك" الطليعية، واللتين وزّعهما لوركا، وأصدقاؤه.

ندخل تقريباً من أمام المكان الذي كان في السابق دار فينتورا للطبع، ونلج شارعاً صغيراً، وهو طاق "الملاعق" وكان الطاق في السابق بوابة العرب التي كانت تنتصب هنا على طرف ساحة باب الرملة. وقد أزيل الطاق في نهاية القرن التاسع عشر. في نهاية الشارع، عن اليمين، كان يوجد محل مزدهر للسَّقط لصاحبه ميخيل روزاليس فاليثيلوس، والذي قام ابنه لويس بدور مهم في الأيام الأخيرة للوركا. وللشارع ذكرى مصاحبة أخرى، فما دامت الإرشادات المسرحية بماريانا بنيدا تذكر أنّ الستارة في مقدّمة المسرح تمثّل طاق الملاعق العربي ـ وكان موجوداً في أيام البطلة ـ فلا بد من رسم صورة رومانتيكية لباب الرملة.

والساحة التي هي من أروع المناظر في قلب غرناطة، تعج بمحال الزهور، وتموج بالحركة، خصوصاً في الصباح. ولا بد من أنّ الصبي لوركا كان يجتازها كل صباح في طريقه إلى المدرسة، ثم بعد ذلك حينما كبر، وصار يذهب إلى الكليّة.

نحن أيضاً نجتازها الآن متجهين إلى برج الكاتدرائية الذي يلوح أعلى السطوح. يقودنا شارع المدرسة القطالونية الممتدة بمحاذاة بيت رئيس الأساقفة إلى ساحة النزهة التي يشرف عليها مدخل الكاتدرائية الرئيس. كان لوركا يكره هذا الصرح الضخم، ويعتبره إنكاراً للقيم الجمالية الغرناطية بحبها لكل صغير، ودقيق. من ناحية أخرى، فالكنيسة الملكية الصغيرة التي بنيت قبل مباني الكاتدرائية من أجمل الكنائس القوطية في إسبانية، وسنزورها لاحقاً.

كل خميس من أيام عيد القربان، يأتي الشاعر إلى ساحة النزهة ليرى الموكب الذي يحمل السر المقدّس حين يغادر الكاتدرائية، ويبدأ جولته في الشوارع. ودائماً ما تغطّى المحفّات بالزهور، والأعشاب العطرية الخاصة بهذه المناسبة.

نصعد الدرجات وننعطف يساراً لنسير بمحاذاة حائط الكاتدرائية الذي يوصلنا إلى شارع منحدر السجن. خطوات قليلة، وندخل سوقاً رائعة في الهواء الطلق متخصصة ببيع التوابل، والأعشاب . هنا نجد بابونج جبال الثلج الذي ينصح به البائع الجوّال في "الدونيا روسيتا العانس"، ويقول إنّه مفيد لعلاج قشرة الرأس، والصلع، و " الهياج"، والإسهال، والسمنة... ما عليك إلاّ أن تصف الحالة، ويعطيك العلاج الشافي. أما كتابة الوصفة، وكلماتها، فبدائية راقصة، والباعة ظرفاء ذُرُوب اللسان. لا تغفل عن مشاهدة المنظر.

مقابل الأكشاك ندخل الآن شارع القدّيس خيرونيمو عن الزاوية اليمنى لشارع السجن. يقودنا الشارع الثاني عن اليسار إلى ساحة كاستيليخوس الصغيرة. هنا في البناية رقم 3 كانت مدرسة قلب يسوع المقدّس لصاحبها، ومديرها خواكين ألمان، قريب أم لوركا.

قلت في الجولة الأولى لو كان والد الشاعر تقليدياً في نظرته إلى الحياة كأي غرناطي من الطبقة الوسطى، لأرسل ولديه للدراسة مع الآباء البياريين في مدرستهم الواقعة على الجانب الآخر من نهر شينيل. والحقيقة، كان الدون فدريكو حر الفكر والرأي، فأوكل أمر أبنائه إلى الرعاية الطيبة لمدرسة خواكين ألمان الذي لإسمه صدىً كاثوليكي، لكنّه اسم على غير مسمّى.

وبناية المدرسة اليوم مقسّمة إلى عدّة شقق، لكن باحتها لا تزال كما كانت في السابق بأعمدتها الثمانية، ونافورتها الصغيرة، وحوض الماء.

هنا درس لوركا وأخوه فرانسكو لشهادة البكالوريا، وحضّرا دروس المدرسة الثانوية الحكومية أيضاً، والتي تبعد خطوات قليلة.

كان فدريكو عكس أخيه، كسولاً ومصدر يأس لمعلّمه الذي درّس أمّه من قبل، فكان يلحّ عليه في الدراسة. أخبر خواكين ألمان جان لويس شونبيرغ (وهو الاسم المستعار لبارون لويس ستنغلامبر)، وهو من أوائل الذين كتبوا سيرة لوركا، بأنّ الصبي " لم يكن يفعل شيئاً غير الرسم وملء الدفاتر بوجوه الناس، وأشكالهم" ويتذكّر الدون خواكين أيضاً، أنّ لوركا "كان رفيقاً ممتازاً، هادىء الطبع، حلو المعشر، كأنّه الفتاة."

أما بالنسبة إلى المدرّسين، فقد حفظت مسرحية الدونيا روسيتا أحدهم من النسيان. ففيها يظهر مارتن شروف مدرّس الأدب بصورة الدون مارتن المثير للشفقة. واستناداً إلى ما يقوله فرانشسكو غارثيا لوركا، فإنّ للدون مارتن سمات معيّنة من مارتن شروف. كان هذا يحضر إلى المدرسة قبل الجميع. حريص على مظهره، يقف منتصباً مصبوغ الشارب. عاش وحيداً. رجل يليق بمهنته، يسلّي نفسه بالطموح الأدبي، وينشر مقالات ناقدة في جريدة المدافع عن غرناطة. وقد تذمّر الدون مارتن في نهاية المسرحية، يستعيد لوركا الطريقة التي كان بها الطلاب الأغنياء في مدرسة القلب المقدّس يعذّبون شروف وزملاءه من المدرّسين، وهو تصرّف لم يمنعه المدير لحاجته إلى زبائنه من الطلاب.

في طريق عودتنا إلى شارع القدّيس خيرونيمو ننعطف يساراً، ونمضي قدماً حتّى نصل إلى ساحة الجامعة، ويقع مدخلها الرئيس بعموديه اللولبيين عن يمين الساحة. درس لوركا لنيل شهادتين، الأولى في الحقوق، والثانية في الفلسفة، والآداب. وهنا كان غالباً ما يرى الأستاذين اللذين أصبح لهما دور أساسي في حياته الأدبية: مارتن دومينخويس بيروتا وفرناندو دي لوس ريوس. واليوم لا تضم البناية غير قسم الحقوق. في عام 1936كان الجزء الخلفي من المجمع تشغله بناية الحكومة المدنية (ولكل إقليم في إسبانية ممثل حكومي وحاكم مدني يقيمان ويعملان في بناية الحكومة المدنية) تطل على الحديقة النباتية وشارع الدوقة. وقد احتجز لوركا هنا يومين، أو ثلاثة قبل

إعدامه. وسنزور هذا القسم من بناية الجامعة في جولتنا السادسة (وإن كنت تستعجل رؤيته فانتقل إلى الصفحات الأخيرة من الفصل السادس. (

نمضي من ساحة الجامعة وتمثال مؤسسها الامبراطور شارل الخامس إلى شارع القديس خيرونيمو. عن يسارنا، وبعد كنيسة كليّة القديس خوستو، وباستور، توجد الكلية الجامعة للقديسين بارتوليمي، وسانتياغو التي بنيت في القرن السادس عشر. وحينما انتقلت عائلة لوركا إلى غرناطة عام 1909 لم تكن لبناية معهد التعليم الثانوي واجهتها التي نراها اليوم، فشغل هذه البناية مؤقتاً، وكان لها فناء جميل. في ذلك الخريف بدأ فدريكو هنا السنة الثانية من البكالوريا بعد أن أنهى السنة الأولى في ألمرية. وكان خوسيه رودريغث في كونترايراس المتخصص المعروف بالطب العدلي، وزميل لوركا في البكالوريا قد أخبرني أنّ لوركا كان متردّداً يخاف الإقدام، ربما لشعور بشيء من عدم التوازن ورثه من القرية، فكان يرتبك للباقة زملائه، وتصرّفهم. واستناداً إلى ما يقوله رودريغث، فإنّ أحد الأساتذة، الأشد بلادة من البغل، اتخذ موقفاً كريهاً من الصبي لوركا، فأراه الويل، وجعله يعاني بصمتٍ من الدعابات، والتلميحات الساخرة. من ناحية أخرى كانوا يسمونه "فدريكه" تحبّباً بعد أن ظهر لهم أنّه مخنّث. ويوجد في قصائد نيويورك أبيات قد تحتوي إشارة لتلك الأوقات المعذّبة، ففي "قصيدة مزدوجة لبحيرة عدن" مثلاً نقرأ ما يلي:

"أريد أن أبكي لأني أرغب في ذلك،
بكاء الأطفال على المصطبة الأخيرة،

لأنّي لست رجلاً، شاعراً، أو ورقة"

ويقول في "طفولة وموت":

"طفل يهزم في المدرسة وفي رقصة الزهرة الجريحة
مذهولاً للبزوغ الداكن للشعر على ساقيه،
مذهولاً لرجولته تكبر وتمضغ التبغ على جانبه الأيمن."

أكّد لوركا أنّه رسب في الامتحان رسوباً ذريعاً عدّة مرّات في المعهد. وتشير درجاته إلى أنّ النتيجة لا تضاهي النجاح الذي أحرزه فيما بعد. لا شك في أنّه لم يكن طالباً مبرزاً، وأحد الأسباب التي جعلته لا يخلص في الدراسة، اكتشافه المبكّر بعد وصوله إلى غرناطة أنّه كالعديد من أبناء عمومته موهوب موسيقياً على نحو نادر، خصوصاً في عزف البيانو، فأصبحت الموسيقى حبّه الكبير.

نمضي في شارع القدّيس خيرونيمو وسرعان ما نصل إلى شارع القديس خوان أبن الرّب. أمامنا مستشفى القديس حيث توفي عم لوركا الأكبر بالدوميرو غارثيا رودريغث، خروف العائلة الأسود عام 1911. كان يكتب أغانٍ قصيرة ماكرة، ويعزف القيثارة بمهارة، معروفاً بحبّه للخمر. لكنّه كما تقول أم لوركا "يغني كالملاك" وفي عام 1892 نشر بالدوميرو في غرناطة ديواناً صغيراً من الشعر الديني والأخلاقي يمجّد فيه كمال الله، وكرمه في جمال خلقه، وينهى الناس عن التكالب على المال. ولا يدهشنا أن يقدّس لوركا عمه النادر هذا.

تمتد كنيسة القديس خوان الباروكية بجانب المستشفى، وتستحق الزيارة لأنّها تحفة تتألّق بالذهب، وقد رممت وأعيد بناؤها الرائع. ونظن أنّ لوركا عرفها جيداً، فقد كان يحب القديس خوان، وهو اليوم، والقديس سيشيليو حاميا حمّى المدينة وناصراها ـ وهذا ما نجده في قصيدة "تساؤلات" في كتاب القصائد.

في نهاية الشارع نصل إلى شارع الدستور الذي ترتفع على جانب منه، خلف حدائق النصر، والنافورة، البناية الرائعة للمستشفى الملكي الذي بدء بناؤه عام 1522، ويضم اليوم المكتبة المركزية لجامعة غرناطة. نعبر الشارع، فنجد على اليمين بناية عالية، تعود اليوم إلى جامعة غرناطة، كانت في السابق كليّة لتدريب المعلّمين، ومنها نالت أم لوركا الشهادة. نمضي في شارع الغرباء، فنصل إلى مدخل المستشفى الملكي. وأنصح الزائر برؤية هذه المكتبة الجميلة. هنا يُحفظ أرشيف الجامعة، وفيه درجات فدريكو وأخيه فرانشسكو، وأختهما إيزابيل غارثيا لوركا.

حين نعود إلى شارع الغرباء ندخل إلى اليسار حيث ساحة الحريّة التي افتتحت عام 1988 تكريماً لماريانا بنيدا المذبوحة هنا في 25/ 3/ 1833 كما هو مكتوب على قاعدة الصليب.

تقودنا هذه إلى ساحة النصر التي تنتصب على طرفها الآخر البوابة العربية من القرن الثاني عشر، والمعروفة بباب البيرة، وقد ذكرها لوركا في قصيدة "غزل سوق الصباح":

"من باب البيرة
أريدك تمرين
لأعرف اسمك
وأنحب···

وشارع البيرة الممتد من البوابة إلى الساحة الجديدة، كان الرئيس في غرناطة قبل شق الشارع الكبير في نهاية القرن التاسع عشر، وفيه تعيش فتيات المانولا (*) المزوّقات اللاتي يرد ذكرهن في المقطوعة الشعبية التي وضعها لوركا في الدونا روزيتا:

غرناطة، شارع البيرة،
حيث تعيش بنات المانولا،
البنات الثلاث اللاتي يذهبن إلى الحمراء،
الثلاث معاً، والرابعة وحدها·

في 24/ 10/ 1494 وبعد سنتين من سقوط غرناطة بأيدي الملكين الكاثوليكيين، زارها الرحّالة الألماني هيرونيموس مونزر· وذهب يوماً إلى الغوطة من باب البيرة، فوجد في الناحية التي تقع مباشرة خلف البوابة مقبرة كبيرة للمسلمين، وشاهد دفن أحدهم · وحين انتهت مراسم الدفن

---

* مانولا، مانولو (شكلان شائعان لمانويلا ومانويل). والكلمة تصعب على الشرح، وتعني إلى حد ما، صاحبة اللباس اللماع المبهرج، وتشير إلى طريقة اللبس المسرفة في الزخرفة التي كانت شائعة لدى بنات العامة في القرن التاسع عشر.

قامت سبع نساء يرتدين البياض بنثر أغصان الآس الزكيّة على القبر، فهل عثر لوركا على ترجمة إسبانية لكتاب مونزر المنشور باللاتينية؟ ربما نبهه أحد ما عليه· خلافه يفترض أنّه عرف من مصادر أخرى وجود مقبرة للمسلمين في مكان قريب من الباب· وفي عامي 1989 و 1990 تم العثور على مئتي قبر في أثناء الحفريات لبناء ساحة للسيارات تحت الأرض· وحين يكون هذا الكتاب بين يديك يكون عدد من الرفات قد عرض للجمهور·

نمضي الآن إلى الشارع الكبير عن طريق شارع تينا جيلا حيث عاش في البيت رقم واحد، مارتن دومينخويث بيروتا، أستاذ لوركا للأدب في الجامعة· وكان غالباً ما يستضيف الشاعر هنا قبل أن يتخاصما بسبب نشر "انطباعات ومناظر" في عام 1918·

وشارع كولمبس الكبير (وهذا اسمه الكامل) شق بعد هدم عدّة مبان ذات أهمية فنيّة، وتأريخية تعود إلى عصر المسلمين وما بعده· هدمت كلها لتفسح المجال لشارع "حديث"، "أوروبي" مناسب افتتح عام 1901· ازدادت أهمية غرناطة في زمن موجة ازدهار الطلب على بنجر الغوطة لصناعة السكّر، والذي جلب الثروات السريعة للكثير من رجال الأعمال، من بينهم والد لوركا· وسرعان ما أطلق بعض العقلاء على الشارع إسماً تهكّمياً، فأسموه شارع السكّر· قال لوركا بأنّ الشارع الكبير لعب دوراً مهماً في مسخ شخصية أبناء مدينته الغرنوطيين·

وسواء أكان الأمر صحيحاً، أم مغالاة، فلا بأس أن نذكر، أنّ الشارع، كان أكثر عراقة في السابق· وهذا واضح من شكل البنايات التي شيّدت في

تلك الفترة وما زالت قائمة إلى اليوم، وللبعض منها لمسات فنيّة لأناس محدثي الثراء، وفيها شرفات مسيّجة تذكرنا ببنايات نهاية القرن في برشلونة.

ننعطف يساراً، ونتجه إلى الرصيف الأيمن للشارع الكبير، لنمر على وجه السرعة أمام البناية التي تشغلها الآن الحكومة المدنية. نسير أمتاراً قليلة، فنصل إلى بناية عالية (رقم 34)، مقر الوكالة المحليّة للحكومة الإقليمية الأندلسية. هنا وأمام دير القديسة بولا (الذي يجري الآن تحويله إلى فندق ذي خمس نجوم)، عاشت أسرة لوركا سنةً واحدةً عام 1916، بعد أن تركت بيتها في رصيف دارو. على الجانب الآخر للشارع عاشت فتاة جميلة، هي ماريا لويزا إيخا التي صارحها لوركا بحبّه، فظلّت متكتّمة منيعة. ولم تمض فترة قصيرة حتى انتقلت البنت مع أسرتها إلى مدريد.

خطوات أخرى، ونجتاز الشارع لنصل إلى مدخل الكاتدرائية. لكن لنتمعّن قليلاً في ذلك الصرح الضخم في نهاية الشارع الكبير. وكما نتوقّع، فهو مصرف ـ وبالتحديد مصرف سانتا ندير. قد نتساءل كيف تنال إهانة كهذه موجهة إلى كل الأشياء الجميلة رخصة البناء؟ كيف للمجلس البلدي السماح بإقامة هذا الرعب في مكان واضح؟ ولأنّ الجريمة قائمة، فهو دليل آخر على أنّ لوركا، وأصدقاءه محقّون في تحليلهم الذهنية الغرناطية المقاولية.

يقف أمام البناية تمثالا كولمبس، والملكة إيزابيلا خضراوين لا يكادان يبينان من الشارع الكبير، لونهما لون واجهة المصرف الزجاجية. والتمثالان من عمل النحّات ماريانو بينلير، ويحتلان الموقع الذي كانت تشغله في السابق دائرة البريد، وبيتٌ على الطراز الإسلامي كان في أيام لوركا مقر

المركز الفني الذي أسّس عام 1885. انضم لوركا إلى المركز في 11/ 3/ 1915 وتركه في 1/ 12/ 1921. وهنا تقول الروايات أنه التقى فرناندو دي لوس ريوس، رئيس المركز. سمع الدون فرناندو من الطابق الأسفل عزفاً عذباً على البيانو لمقطوعة من بيتهوفن، وكان شديد الإعجاب بهذا الموسيقار، فنزل بنفسه ليعرف العازف. تحدّث الإثنان، ومنذ ذلك الحين أخذ أستاذ القانون فدريكو بحمايته وحنوه. ومن المنتظر أن يكون ذلك اللقاء المهم قد تم حيث ينثني كولمبس الآن على ركبته، ويخاطب الأميرة. وإن لم يكن كذلك، ففي مكان قريب منه.

كان للمركز الفني تأثيره المهم على لوركا، ومعاصريه. من هنا مثلاً بدأ الفنانان مانويل أنخليس أورتيث، واسماعيل غونثالث دي لاسيرنا (الذي صمّم غلاف "انطباعات ومناظر") عرض أعمالهما، كذلك النحّات خوان كرستوبال. وهنا قدّم مانويل دي فايا، وأندريسا ساغوفيا، وأنخيل باريوس حفلاتهم الموسيقية، كما حاضر فرناندو دي لوس ريوس، وفرانثسكو سوريانو لابريثا (المعلّم الروحي لجماعة الزوية)، والفيلسوف أورتيغا يا غاسيت، وكثيرون غيرهم . وهنا قرأ لوركا في 17/ 3/ 1918 فصولاً من كتاب "الإنطباعات" بمناسبة صدوره.

بعد هذه الخواطر، نزور الآن الكنيسة الملكية العائدة إلى الكاتدرائية. ندخل شارع الحرفيين عبر حاجز جميل من القضبان المتصالبة، كان الغرض منه حماية مدخل الكنيسة، لكنّه نقل إلى بداية الشارع بعد الحرب الأهلية بأمر من المحافظ أنطونيو جاليخو بورين، وكان عضواً في جماعة الزوية،

وصديقاً حميماً للوركا. لاحظ إفريز الكنيسة، والرسم المنفرد المتكرّر عليه، ويمثّل يدي الملك، والملكة، والحرفين الأولين من اسميهما: ف، إ.

نمضي في شارع الحرفيين. الواجهة الجنوبية للكاتدرائية عن يميننا، والمدرسة العربية القديمة عن يسارنا (والبناية الحالية حديثة لكنّها تحتفظ في الداخل بجزء من البناء الأصلي.)

خطوات قليلة ونشاهد عند زاوية شارع الركاب، حائط الكنيسة الملكية بمدخله القديم، ودرابزينه المخرّم والكثير من القباب المستدقّة العالية على الطراز القوطي، وحليات ناتئة على شكل أوراق الشجر المقوّسة، وإفريزاً صخرياً جميلاً فوق المدخل، يحمل الحرفين الأولين من أسميّ الملكين الكاثوليكيين متناوبين.

يساراً وعلى الزاويتين اليمنتين للكنيسة الملكية، تقع بناية البورصة التي صممها إنريك إيغاس، ابن المعماري البلجيكي جان فان دير إيكين، وقد أنشئت في منتصف القرن السادس عشر بعد أن تمّ بناء الكنيسة الملكية، وتستخدم اليوم مدخلاً للكنيسة. لو قدّر لك الدخول إلى الكنيسة لاحظ السقف النادر المشغول باليد.

بدأ العمل ببناء الكنيسة عام 1506، بعد أربعة عشر عاماً من احتلال فرديناند، وإيزابيلا غرناطة. وكانت إيزابيلا التي توفيت عام 1504 قد دفنت مؤقتاً في دير القديس فرانثيسكو بالقرب من قصر الحمراء (سنزور الدير في جولتنا القادمة). لحق فرديناند بزوجته عام 1520، ودفن بجانبها حتى تمّ بناء الكنيسة عام 1521 فنقل رفاتهما إلى مستقرهما الأخير.

الحقيقة أنّ الكنيسة الملكية بناء مثير للخشية والإعجاب، بودّك أن لا تبارحها· وحاجزها الحديدي المدهش الذي يقسمها نصفين من صنع الحدّاد بارتولومي، ويقول عنه ألفونسو لوي: " أجمل حاجز في إسبانية، إن لم نقل في العالم كلّه·"

عُملت صور فرديناند، وإيزابيلا وتماثيلهما في جنوا على يد دومينيكو فانشيلي، وهي من رخام كرّارَة· ويوجد بجانب كل صورةٍ، صورةٌ أخرى لأبنة الملكين خوانا ("المجنونة") وزوجها المتقلّب فيليب، جميل بورغاندي، وابن الامبراطور الروماني المقدّس ماكسيمليان الأول، والذي تزوّجها عام 1496· كل هذا صنعه النحّات دومينيكو ليس غير· وكان فيليب الذي حكم سنتين، أول ملك إسباني من أسرة هابسبورغ، توفي في بورغوس عام 1506 عن ثمانية وعشرين عاماً تاركاً الزوجة مكسورة القلب، أرملةً لخمسين سنةً بعده، ثم توفيت في دير القديسة كلارا في توردیسیلاس بقشطالة عام 1555· وكانت كل تلك السنين تحمي تابوت زوجها المتوفى، وتعتني به بعد أن حملته معها إلى غرناطة·

لاحظ النقش على قبر الزوجين والذي يذكّرنا بحكمهما كمعذّبين للمسلمين، ويبدأ كالتالي:"داحر الملّة المحمدية وخامد العناد الهرطقي·" وكما أشرنا في المقدّمة، لم يكن لوركا يشعر بأي احترام لهذين الملكين·لكنّه تأثّر كثيراً لحال خوانا،وحزنها·وهذا ما نلاحظه في قصيدة مبكّرة بعنوان "مرثاة خوانا المجنونة"، كتبها في غرناطة في كانون الأول 1918 وموجودة في كتاب القصائد· وخوانا هي الأولى في قائمة طويلة

من النساء التعسات اللاتي يظهرن في أعمال لوركا، وتبوح القصيدة بشعور قوي من التعاطف مع الضحية. والتابوتان من الرصاص يستقران في سرداب مظلم يمتد تحت تمثالي الملكين.

لا تفوتنك مشاهدة رافدة المذبح الجميلة، والتي تعزى إلى فيليب دي فيغارني. ومن سوء الحظ، أنّ الدرجات إليها معزولة بالحبال، فلا تستطيع معاينتها عن قرب.

ما يثير الانتباه خاصة، تلك الصور الناتئة المنحوتة على قاعدة الرافدة يمين المذبح، ويساره. ستحدّد موقعها بسهولة لو أخبرتك بأن المجموعة اليسرى تعلوها صورة للملك فرديناند جاثياً على ركبتيه، في حين تعلو المجموعة اليمنى صورة مماثلة للملكة إيزابيلا. أما اللوحان البارزان عن اليسار، واللذان يؤلفان صورة واحدة، فيمثلان أبا عبد الله الصغير، آخر ملوك غرناطة، وهو يترجّل عن جواده الأدهم ليقدّم مفتاح قصر الحمراء إلى النصارى. والصورة الجميلة المشغولة بدقة في مقدّمة اللوح عن اليمين لفارس يرتدي العباءة، هي للكاردينال بيدرو غونثاليث دي مندوثا، الشهير بملك القلعة الثالث، وذلك لنفوذه القوي في القصر. يدها اليسرى المغطاة بالقفاز مبسوطة لتسلّم المفتاح. ويشير ريتشارد فورد بأنّ وجه مندوثا المعروق كوجه النسر يتغاير مع وجهي الملك، والملكة الصبوحين، وهما يمتطيان فرسيهما عن يسار اللوح. (توفي الكاردينال بعد ثلاث سنين من سقوط غرناطة.) خلفه وخلف الملكين على اللوح، مجموعة من النساء، والفرسان، وفي المؤخّرة صفان من المطارد، كلّها مرسومة بروعة. عن يمين

رافدة المذبح، وخلف أبي عبد الله، جمعان من الأسرى الملتحين يسيرون من صفين طويلين بدءاً من قصر الحمراء. لا مِرْيةُ سقطت غرناطة.

كان فورد شديد الإعجاب بهذين اللوحين، ويشعر بأنّهما يصوّران "المشهد الحقيقي"، فكتب يقول: "لا يوجد في إسبانية أكثر إثارة من هذين اللوحين".

يُظهر النقشان البارزان يمين المذبح تعميد المسلمين القسري الـذي بدأ عام 1502. ويبدو المشهدان (الرجال عن اليسار، والنساء عن اليمين) هادئين. وقد نصفهما بأي شيء ما عدا السلام، وهذا ما عرفه لوركا حق المعرفة. ما دام فرديناند، وإيزابيلا قد أقسما في البداية على السماح للعرب بممارسة شعائرهم الدينية من دون مضايقة، أو خوف، فاللوحان خير شاهد على ازدواجية الملكين الكاثوليكيين. ولا بد من التنويه بأنّ مشاهد سقوط غرناطة، قد اكتملت حديثاً بأعمال الحفر الرائعة على الخشب في زاوية المنشدين في كاتدرائية توليدو، والتي نفّذها الفنان رودريغو الألماني.

من الكنيسة الملكية ندخل غرفة الموهَف التي تضم مجموعة صغيرة من الصور الثمينة النادرة،وأكثرها يعود إلى الملكة إيزابيلا، وكانت شديدة الإعجاب بالمدرسة الفلمنكية الجرمانية. ونشير خاصة إلى لوحتين، الأولى "العذراء الحزينة وولادة المسيح" لروجر فان دير ويدن، وهي أصلاً جزء من ثلاثية يوجد جزءاها المكمّلان في نيويورك. والثانية لوحة رائعة لبوتيشلي بعنوان "صلاة في الحديقة" كما توجد خمس لوحات رائعة لهانز ماملنغ، من بينها تلك اللوحة الرائعة المؤثّرة "العذراء والمسيح المصلوب" ويتوقع أنّ

لوركا شاهد هذه المجموعة وعرفها جيداً، و أنّه كان يأتي باستمرار إلى هذا المكان مع أصدقائه، أو مع مارتن دومنغويث باروتا.

أما مشاعر لوركا نحو الأقسام الباقية من الكاتدرائية، فليست مهمة. وحتى لوكان يكره ضخامة هذا الصرح، فليس لديه متسع من الوقت ليرى الأجزاء الداخلية الفسيحة الباردة. ثم كون البناء مقاماً على أنقاض المسجد الجامع الذي هدمه النصارى، أمر لا يمر عليه مرور الكرام، فكان دائم الاعتقاد في أنّ سقوط غرناطة بأيدي الملكين الكاثوليكيين كارثة.

قد نحتاج الآن بعض المرطبات، والحلّ في أيدينا، ففي المبنى رقم14، مقابل مدخل الكنيسة الملكية، مطعم وحانة إشبيلية، المشهورة في غرناطة، والقليلة الباقية من حانات ومطاعم أيام ما قبل الحرب الأهلية. وثمّة حكاية جديرة بالذكر هنا، غالباً ما ردّدها داماسو ألونسو، الأديب المعروف، صديق لوركا. جرت الحكاية عام 1927، بعد أيام من ذهاب لوركا، وبعض الأصدقاء من جيله إلى إشبيلية للاحتفال بمرور ثلاثة قرون على وفاة لويس دي غونغورا. وحينما زار داماسو وأمّه غرناطة، دعاه لوركا للعشاء في مطعم إشبيلية. وما إنّ جلسا حتى نادى لوركا "النادل" وطلب منه " السوليدا" ظنّ ألونسو بأنّ المطلوب صنف من المأكولات المحلية الخاصة، أو نبيذ محلي. لكنّه دهش حين بدأ النادل بقراءة قصيدة غونغورا المعقّدة "الوحدة الأولى" قبل ذلك بأيام، كان ألونسو، وهو حجة إسبانية بغنغورا قد قرأ في إشبيلية، وعن ظهر قلب، القصيدة الفذّة كاملة بأبياتها الألف والواحد والتسعين بيتاً. والآن أثبت لوركا له أنّ هناك من يضارعه. ولم يصدّق ألونسو أذنيه،

وتبيّن له أنّ "النادل" هو صاحب المطعم، والصديق الحميم للوركا، ومن أشد المعجبين بغنغورا.

ومطعم إشبيلية الذي حافظ على سمعته كأحسن مطعم في غرناطة دائماً ما يقدّم الطابا الممتازة. وصاحبه الحالي، خوان لويس ألفاريث، هو ابن أخ ذاك الذي ألقى قصيدة غونغورا، وهو كنز من المعلومات الخاصة بغرناطة. ولو وجدته جالساً إلى صدر المكان، لا بد من أن تتعرف إليه. ثم أنّ الفسحة أمام المطعم مكان مثالي لتناول الطعام، تمنحك الفرصة المناسبة لتشاهد بهدوء حائط الكنيسة الملكية.

أسفل مطعم إشبيلية توجد القيصرية، وكانت سوق الحرير زمن العرب. احترقت عام 1843، والبناء الحالي لا يمت بصلة للأصلي، غير أنّه محاكاة للأثر القديم.

نمضي في شارع القيصرية الضيّق، وعند أرباب الحرف عن اليسار نجتاز شارع السقّاطين ـ حيث وعد دارو المتمرّد من قبل بالمضي قدماً، مهراً لشينيل ـ وندخل شارع لوبيث روبيو. عن اليمين شارع البزازين، حيث عاشت أم لوركا، بيثنته لوركا روميرو بين عاميّ 1881 و 1882.

نمضي قدماً، ونجتاز شارع الملكين الكاثوليكيين القبيح (ودارو الآن تحت أقدامنا) وندخل شارعاً ضيّقاً آخر، هو جسر الفحم الذي يذكّرنا بمكان الجسر قبل أن يُسقف النهر.

عن الجانب الأيمن من الشارع حانة خندلة المغطاة بالألواح منذ سنين. وكان القومندان خوسيه فالديس غوتمان، أول حاكم لغرناطة بعد استيلاء

الثوّار عليها في تموز 1936، يأتي إليها قبل وأثناء الحرب الأهلية، وقد يكون هو المسؤول الأول عن موت لوركا.

في نهاية الشارع توجد حظيرة الفحم العربية، والتي بنيت في القرن الرابع عشر مخزناً عاماً للقمح. لا بد من أن تلقي نظرة على الدار من الداخل لفرادتها، ليس في غرناطة وحدها، بل في كل إسبانية.

في سيرنا في شارع ماريانا بنيدا نمضي إلى أول شارع عن اليسار، ليبانتو، وندخل مباشرة شرفة غامبوا شديدة الصغر. وحين ننعطف شمالاً نجد أنفسنا قد دخلنا درع كارمين. في البيت رقم ثمانية الذي يأتي بعد أربعة أبواب أو خمسة عن اليسار (وكان يسمّى في زيارتي الأخيرة بولسوس بليخو)، عاش أنطونيو سيغورا ميسا، معلّم لوركا العزف على البيانو، والتأليف الموسيقي، وكان له أكبر الأثر على تطوّر الشاعر.

ولد سيغورا في غرناطة عام 1842، وكان أكبر من لوركا حين أصبح معلّماً له. كان خجولاً منطوياً على نفسه، حلم في شبابه أن يصبح موسيقاراً كبيراً مثل فيردي، لكن يا للأسف، لم يتحقق الحلم. نجح في تأليف أوبرا دينية مستوحاة من التوراة، لكن يبدو أنّها لم تلاق الاستحسان المطلوب. وكان عازف بيانو مقتدراً أيضاً، وضع موسيقى العديد من الزرزويلات (الأوبريتات الخفيفة). وقبل أن يظهر لوركا في حياته، كان قد درّس اثنين من موسيقيي غرناطة الكبار هما أنخيل باريوس، وباكو ألونسو.

كان لوركا يُجلّ هذا المعلّم الشيخ الذي حفّز موهبته الموسيقية، وضمن له الحصول على أحسن طريقة في العزف، وأعطاه أسرار الألحان، وأفضى له

بمكنون صدره، وباح له بخفايا حياته بكل تواضع. كان يضحك من نفسه ويقول: "إن فشلت في الوصول إلى النجوم فهذا لا يعني أنّها غير موجودة" ولم يكف لوركا عن ترديد هذه العبارة أمام أصدقائه ـ هذا لو صدّقنا مترجم حياته خوسيه مورا غوارنيدو.

تألّم الشاعر كثيراً لموت الدون أنطونيو الذي شجّعه على أن يكون موسيقياً محترفاً. وحين نشر بعد عامين من ذلك كتابه الأول "انطباعات ومناظر" أهداه بكلمات رقيقة إلى روح أستاذه.

كان أنطونيو سيغورا يعلّم تلميذه في بيتهم في رصيف دارو. وفي أثناء عودتنا في شارع درع كارمين سنتبع تقريباً خطوات لوركا. نصل في لحظات قليلة إلى ساحة كارمين حيث مجلس بلدية غرناطة. وفي عصر اليوم العشرين من تموز 1936، نصب الثوّار مدافعهم أمام المجلس، وألقوا القبض على جميع النوّاب اليساريين فيه، منهم المحافظ الاشتراكي مانويل فرناندیث مونتيسينوس، صهر لوركا. واقتيد الجميع إلى سجن المقاطعة في ضواحي المدينة على طريق جيان حيث أعدم أكثرهم لاحقاً، بمن فيهم صهر لوركا.

أمام بناية المجلس، وعند منعطف امتداد شارع كارمين، يوجد نادي تورينو. وكان قبل الحرب مقراً للمقهى الملكي، قلعة المحافظين. وقد أحرقه "الحمر" في أثناء الاضطرابات التي جرت في آذار 1936.

خلف النادي الملكي، في شارع سراقوسة، مطعم شهير باسم "لوس مانويليس" المكان في غاية الظرف، وتتضمن قائمة الطعام مأكولات

غرناطية خاصة. ويقدّمون في حانة المطعم الطابا الشهية، حتى أنّك تجد بين السعاة شاعراً، اسمه خوسيه غالارت، وهو شخصية محلية صادقة.

كيف لأنطونيو سيغورا ميسا الوصول من امتداد شارع كارمين إلى بيت لوركا في رصيف دارو؟ أكان يسلك الخط نفسه الذي نسلكه الآن؟ لا نعرف. لكن، يصعب أن نتخيّل رجلاً وقوراً متردّداً كأنطونيو يحبّذ اختصار الطريق، فيجتاز حي المانغوا الأحمر بمواخيره الزرق (وقد هدم بأمر من أعوان فرانكو). لذا ينتظر أن يمضي سيغورا قدماً في شارع رصيف النادي.

أما شارع غانيفيت الذي ننزل إليه الآن على الدركات في نهاية شارع كارمين، فلم يكن موجوداً آنذاك، فقد شقّ بعد الحرب. ولم يكن للمسؤولين اختيار اسم لهذا الشارع القبيح أسوأ من غانيفيت، العاشق الكبير لغرناطة، وعدو تحديث المدينة. نجتازه عن اليسار، ونمضي خمسة وعشرين متراً تحت الرواق المقنطر حتى نصل إلى شارع ألمونا ديل كامبيلو الذي يقودنا إلى رصيف النادي الذي غُيّر اسمه بعد الحرب إلى شارع المقدّم فالديس، ثم أعادوا له اسمه الأول بقدوم الديمقراطية.

ها قد عدنا من جديد إلى الباب الملكي.

الجولة الثالثة: الحمراء وجنّة العريف

الزمن: نحو ثلاث ساعات مشياً على الأقدام

إذا لم يكن باستطاعتك صعود التل الشاهق والوصول إلى القصر (وهي نزهة لا تفوتها إن استطعت)، فيمكنك الصعود بسيارتك في تل بني عمارة حتى تصل إلى ساحة السيارات. اركب حافلة عامة، أو خذ سيارة أجرة. ومنذ عام 1991 لم يعد مسموحاً للزوّار الوصول بسياراتهم إلى ضواحي قصر الحمراء ما لم يكونوا مقيمين في فندق سان فرانشسكو أو في فندق أمريكا. وسيفتتح عام 1993 شارع سهل جديد إلى الحمراء، يكون لزاماً على كل وسائط النقل، وسيمتد بطول كيلومتر بمحاذاة الشارع الموصل إلى جبال الثلج، ثم يصل إلى ساحة السيارات الكبيرة خلف الحمراء. وسمعت أنّ المدخل المؤدي إلى القصر عن طريق تل بني عمارة سيكون موصداً على وسائط النقل ما عدا الحافلات الصغيرة التي لا تلوث الهواء، أي الحافلات الكهربائية. وحين تتخلّص غابة الحمراء من دخان العادم الذي يكاد يخنقها، ومن ضجيج المكائن القاتل، ستستعيد هدوءها السابق وروعة خضرتها. كل التقدير لأولئك الرجال الذين عملوا سنين طويلة لتحقيق هذه المعجزة.

***

طرق، وشوارع، وأزقّة عديدة، كلّها تؤدي إلى قصر الحمراء. لكني أفضّل الطريق التقليدي الصاعد في تل بني عمارة والذي يبدأ من الساحة الجديدة.

والتل محاط من الأسفل بدكاكين متخصصة ببيع التحف الخشبية المطعّمة، " التراثيا" ـ وهذا تعبير عن عشق الأشياء الصغيرة الناعمة الذي عرّفه لوركا دليلاً على الحساسية الفنيّة الغرناطية.

عاش في تل بني عمارة القديسان اللذان تركا أعظم الأثر على غرناطة: خوان الرب (1495 - 1550) وخوان الصليب (1542- 1591). وكلاهما سكن ذلك البيت الذي كان فخماً يوماً ما، والذي يقع عن يسار الشارع، تماماً قبل بوابة الرمّان التي تتقدّم التل أمامنا. هنا بنى القديس خوان الرب مستشفىً، وهنا أقام القديس خوان الصليب حتّى انتهى البناؤون من دير الرهبان أعلى التل، فكان رئيسه من عام 1582 إلى 1588. وكان لوركا يحب هذين القديسين، الأول لأعماله الطيّبة، وصفاء سريرته (وقد أشرنا إلى ذلك في بداية الرحلة الثانية)، والثاني لأنّه شاعر.

صمّم بوابة الرمان المعمار، والرسام بيدرو ماشوكا، تلميذ ميكائيل إنجلو، وتمّ بناؤها عام 1546 تقريباً على طراز عصر النهضة، يعلوها الترس الإمبراطوري للملك شارل الخامس: لاحظ النسر ذا الرأسين، شعار آل هابسبورغ، والرمانات الحجرية الثلاث التي سميّت البوابة باسمها.

ربما حان الوقت لنعلّق بإيجاز على إسم غرناطة. وهو مشتق من اسم ايبيري قديم هو غرناتة، أو غراناته، لا يمت بصلة لغرناطة الإسبانية التي

تعني حبّة الرمان، وهذا عكس الاعتقاد الشائع، والذي ساد قروناً من قبل. الحقيقة أنّ الكلمتين توافقتا في اللفظ، ثم جاء الوقت الذي انتشر فيه الرمان في هذه الأصقاع، فلم يكن بد من اختيار الفاكهة رمزاً للمدينة.

وغرناتة أصلاً حي بعيد من أحياء مدينة إيبنيري القديمة، يقع على التل الذي عرف منذ حكم المسلمين بتل البيازين (والذي سنزوره في جولتنا الخامسة). وحينما بدأ المسلمون إعمار ما نسميه اليوم تل الحمراء، حافظوا على الاسم الذي يستخدمه أبناء الحي.

وتشير بوابة الرمان إلى الانتقال بين المدينة، وغابة الحمراء، بين النثر، والشعر. ويقال إنّ قصيدة "أغنية السائر في نومه" تدين بشيء إلى الغابة حيث الخضرة، والطراوة فتنتان تسحران الناظر، وتؤثران في النفس بعد الوهج الساطع، والحر اللافح للمدينة السفلى:

خضراء كم أحبّك خضراء
ريح خضراء، أغصان خضر
الزورق راسٍ في البحر
والحصان على الجبل...

حاول العديد من الكتّاب الإسبان، والأجانب أن يرسموا بالكلمات سحر هذه الغابة، وفي رأيي لم يستطع أحد رسمها كما فعل تيوفيل غوتيه ـ وكان لوركا وأصدقاؤه من محبيه ـ والذي وصل إلى غرناطة عام 1843. يصف غوتيه في كتابه "رحلة في إسبانية" الطريق الذي سنصعده في الهضبة

عن يسار الطريق العام، ويشير المؤلف إلى غزارة المياه التي يشتهر بها المكان فيقول:

"يختلط خرير المياه بطنين الألوف من الزيزان، والجداجد التي لا تنقطع موسيقاها، فتجبر الإنسان على العودة بفكره إلى الجنوب الحار على الرغم من برودة المكان. تتدفق المياه من كل ناحية، من تحت جذوع الأشجار ومن بين الجداجد في الحيطان القديمة. وكلّما ازدادت حرارة الجو، ازداد تدفّق المياه في الينابيع لأنّها تسقى بالجليد الذائب. وهذا الخليط من المياه، والثلج، والنار يجعل جو غرناطة متفرّداً ليس له شبه في العالم، فردوساً أرضياً حقيقياً."

أحسنت! لكني أضيف أنّ مياه غابة الحمراء لا تصل ذروتها وتفيض على المنحدرات، فتزبد، وتنهمر لتشكّل قنوات خفيّة تحت الأرض إلاّ في صمت المساء. لا شك في أنّ الشاعر الإشبيلي مانويل ماشادو، كان يفكّر بتلك القنوات حينما عرّف الهوية الحقيقية لغرناطة فقال إنّها "المياه الخفية الناحبة" لماذا النحيب؟ أقول بأنّه يشير من طرف خفي إلى عام 1492 حين اضطهد أبناء غرناطة الحقيقيون وطُردوا إلى الأبد. تريّث هنا في الليل (والأفضل أن يرافقك صديق، فقد يحدث طارئ): أنا واثق بأنّك مقدم على تجربة لا تنسى.

علينا قبل صعود التل، عبور الشارع على مهلٍ لنلقي نظرة على الشاهدة المعلّقة على الحائط، تماماً خلف باب الرمان، وتسجّل كلمات الثناء، والتقدير التي توجّه بها الشاعر أليري فرانشسكو دي فالسبيا (1877- 1936) إلى الحمراء، وكان معروفاً في زمنه ثم طواه النسيان. وفي عام 1911 كان الشاب لوركا يحضر العرض الأول لمسرحية فالسبيا الشعرية "قصر اللؤلؤ" على مسرح إيزابيلا الكاثوليكية، والذي عرفنا موقعه في الجولة الأولى. تتحدّث المسرحية عن الأصل الأسطوري للحمراء، وكان لمقاطع منها وقع شديد على المشاهدين كهذه الأغنية التي تتحدّث عن "ينابيع غرناطة":

ينابيع غرناطة...
أسمعت،
في الليلة الفوّاحة المزدانة بالنجوم،
صوتاً أشد حزناً من نواحها الحزين؟
كلّها ترقد بسحر غامض
في الفضة السيّالة للقمر...

قال فالسبيا أنّ غايته كتابة المأساة كما يكتبها "عربي من غرناطة." وهذا القول الذي قد يبدو اليوم مضحكاً، يرينا هيمنة نزعة الاستشراق الكاذبة المريضة التي سادت جو المدينة الأدبي حينما كان لوركا في ميعة الصبا. وكما سبق وقلت في المقدّمة، فإنّ الشاعر لم ينج من تأثير هذه النزعة إلاّ بعد أن توقفت جهوده الأولى في هذا المضمار.

لا بد من كلمة عن أشجار الدردار الشهيرة في غابة الحمراء التي تتعرّض لخطر ماحق لإصابتها بآفة الدردار الألماني. يقولون، و يعيدون حتى غَثَت نفوسنا، إنّ الذي زرعها دوقٌ من آل ولنغتون، كانت له أكبر ضيعة في الغوطة، هي ضيعة روما حيث ولد لوركا. لكن الحقيقة، أن لا علاقة للدوق الحديدي هذا الذي لم يزرع المقاطعة قط بالأشجار، ولا زارها أحفاده بعده.

نعود الآن إلى يسار الشارع الرئيس، ونبدأ صعود الشارع العالي شديد الانحدار أمامنا (توجد مصاطب حجرية للراحة). نجتاز الصليب الذي سمي التل باسمه، (تل الصليب)، ونصل في لحظات إلى النافورة التذكارية للملك شارل الخامس، وهي قطعة فنيّة نادرة صممها عام 1545 الفنان بيدرو ماشوكا الذي بنى باب الرمان، وقصر شارل الخامس. ويقول فريق من الثقاة، إنّ الرؤوس الأسطورية الثلاثة التي يتدفّق من أفواهها الماء ليتساقط في الحوض تمثّل الصيف، والربيع، والخريف، في حين يقول فريق آخر إنّها أنهار غرناطة الثلاثة، دارو، وشينيل، والبيرو (وهو شبحُ نهر ينزل من جبال بشنار لينتهي في الغوطة، وغالباً ما يصل عطشان من دون قطرة ماء). والنافورة محاطة بالترس المنقوش بشعار النبل للدون إنيغو لوبيث دي مندوثا، ثاني كونت لتنديلا، وأول مركيز لموندخار، وحاكم الحمراء حينما كان ماشوكا يعمل في غرناطة. كما أنّها متوجّه، كباب الرمان، بالترس الملوكي لشارل الخامس.

والسبب الذي يدعوني لذكر عمود شارل الخامس، أن لوركا كان غالباً ما يأتي إليه. وحفظت لنا إحدى الصور الجميلة واحدة من زياراته حيث يبدو جالساً تحت القناع الرئيس، شينيل، أو الربيع (اختر ما يناسبك، وخذ صورتك). ويعلو القناع نقش لاتيني يقول بغرور: "شيّده الإمبراطور شارل الخامس، ملك إسبانية كلّها." قد ترغب في الجلوس حيث جلس لوركا، على الرغم من أنّ النافورة قد عادت اليوم إلى العمل بعد سنين من الصمت، وهذا يعني أنّك ستبتل قليلاً.

نمضي في طريقنا خلف عمود كارلوس، ونصعد إلى باب العدل الكبير الذي شيّده عام 1348 يوسف الأول، وأطلق عليه المسلمون باب الزيارة. وهو الأكثر إثارة بين البوابتين الحاليتين المؤديّتين إلى الحمراء.

لاحظ الحجر الرخامي الذي ترتكز عليه سائر أحجار الطاق الكبير الذي يشكّل قوس الباب، وتأمّل صورة الكفّ اللغز المنحوت عليه، وهو موضع خلاف بين المؤرخين، فالبعض يقول إنّه تعويذة لدرء عيون الحاسدين، ويقول آخرون، إنّه أحجية للقرآن، وما الأصابع الخمسة إلاّ إشارة إلى الأركان الخمسة: الشهادتين، والصلاة، والصوم، والزكاة، وحج البيت.

حين نخرج من الباب المفتول ببراعة لإعاقة العدو، نجد أنفسنا في مجاز ضيّق يصعد بنعومة، في نهايته عن اليمين باب الخمر الذي اشتُهر بعد أن وضع ديبوسي مقدّمته الموسيقية بهذا الاسم. وستجد شاهدة من الخزف،

تذكّرنا في الطريق بهذا الموسيقار· لم يزر ديبوسي غرناطة، وقد أوحت له بهذه المقطوعة التي يدعوها لوركا بالحلم المستحيل صورةٌ رآها على بطاقة البريد·

أصبح دي فايا صديق ديبوسي في باريس، ولا شك في أنّه اطّلع لوركا على هذه الصداقة· كان الشاعر يعشق موسيقى ديبوسي، وعنده العديد من مؤلفاته· ويقول في محاضرته عن الأغنية العميقة التي ألقاها في غرناطة عام1922 إنّ مقطوعة ديبوسي "ليلة ساهرة في غرناطة" (1903) تمثّل بإعجاز، جوّ غرناطة الليلي بما فيه من "زرقة الغوطة البعيدة، وجبال الثلج تحيي مياه البحر الأبيض المتوسط المرتعشة، ورماح الضباب الهائلة تخزّ الأراضي المنبسطة، وربض المدينة الرائع، والألعاب المحمومة التي تؤديها المياه الجوفية·" وقد يكون هذا من باب المبالغة، لكن ثمّة حقيقة مؤكدة، فجميع محبي لوركا، وفايا يجدون ذواتهم في موسيقى ديبوسي الغرناطية·

والقشطالي اسحق ألبينيث موسيقي آخر من المفتونين بغرناطة التي ألهم سحرها العديد من أعماله·أحب وهو شاب إبنة القيّم على قصر الحمراء· وأخبر فايا في باريس عام 1908 بعد أن بلغ الثامنة والأربعين، أنّه يحلم بالعودة إلى غرناطة والعيش فيها· لكنّه مات بعد سنة، وحلمه لم يتحقق· كان لوركا وأصدقاؤه من جماعة الزوية يحبون ألبينيث، وحينما زار الشاعر برشلونة عام 1935م، زار قبره، وكتب قصيدة جميلة في ذكراه· ويتذكّر خوسيه مورا غوارنيدو اليوم الذي وضعت فيه جماعة الزوية على حائط بيت المهندس المعماري والد الفتاة في الحمراء شاهدة تذكارية من الخزف إحياءً لذكرى الموسيقار· وقد هدم البيت لاحقاً، وحلّت مكانه البناية الرسمية على

الجانب الآخر من باب الخمر· عندها أعيد وضع الشاهدة التي تقول: "إلى اسحق البينيث، الذي عاش في الحمراء ربيع 1882"·

بجانب باب الخمر تمتد ساحة الجباب التي يحيط بها برج الخندق من ناحية، وبرج الأكرام من ناحية أخرى، وكلاهما في حي القصبة· هنا جرت مسابقة الأغنية العميقة بتأريخ 13، و 14 حزيران 1922، والتي نظمها بدعم من مركز الفنون، والمجلس البلدي دي فايا، وآخرون من بينهم ميخيل ثيرون، وخوسيه مورا غوارنيدو، ولوركا، ونفر من جماعة الزوية·

زيّن أركان الساحة الرسام الباسكوي أخنائيو ثولوغا، وكانت الأفنية تغص كل ليلة بجمهور عريض في غاية المرح والأناقة· حضر المسابقة من الأجانب جون ترينـد الذي صار فيما بعد أول أستاذ للأدب الإسباني في جامعة كيمبردج· أصبح ترينـد الصديق الحميم لفايا بعد زيارته الأولى للموسيقار عام 1919· وحينما عاد إلى لندن، نشر وصفاً لتلك الليلتين الخالدتين (رافق المطر الغزير الليلة الثانية)· كتب ترينـد في صحيفة "الأمّة والمجمع العلمي" يقول: " حيثما تلتفت تجد أناساً أنيقين في غاية السرور، وترى شالات تحليها الورود، وأمشاط عالية كأعراف الديوك، وارتدى بعض النسوة الحرير، والساتان القديم، فظهرن في زي الثلاثينيات، والأربعينيات ـ عصر إسبانية أيام بروسبير ميرميه، وتويفيل غوتيه، أو أيام بورو، وفورد·"

كانت المفاجأة الكبرى ما قدّمه المطرب الشيخ دييغو بيرموديث كالاس الملقّب بالكماشة، وكاد الجمهور ينساه، لولا حضوره المهرجان· ويقال إنّه

قطع المسافة سيراً على الأقدام من باب شينيل في قرطبة حتى وصل إلى غرناطة، وهي مسافة تقدّر بمئة وثلاثين كيلومتراً بين الحقول. غنّى بيرموديث في الليلة الأولى غناء قوياً سحر الجميع.

ومن الآخرين الذين نالوا الجائزة، الصبي مانويل أورتيغا البالغ أحد عشر عاماً والملقّب بالحلزون، والذي قدّر له فيما بعد أن يكون أشهر المطربين الشعبيين الإسبان.

صدم فايا إذ وجد أنّ المسابقة انتهت بجدل كريه عمّا يجب عمله برَيْع المسابقة. أيقن الموسيقار الحريص أنّ الكيل طفح، ولم يعد قادراً على سماع المزيد، فاعتزل في كرمته.

كان من نتيجة المسابقة وما صاحبها من آراء نافذة، أن حملت لوركا إلى تراث الفلامنكو الشعبي، وعزّزت لديه الاتجاه الأندلسي الذي بدا واضحاً في أعمال تلك الفترة. وقاده ديوان "قصيدة الأغنية العميقة" الذي أنجز معظمه أثناء التحضير لذلك الحدث المثير إلى الديوان الثاني "أغاني الغجر".

أدّت أعمال الحفر الحديثة إلى إنقاص مساحة الجانب الشمالي لساحة الجباب. وكان للزائر من قبل، السير حتى حافة الآبار، أو الوقوف على معقل الحصن تحت برج الأكرام، فيرى صوراً خرافية لحي البيازين المقابل. وغالباً ما كان فايا، ولوركا، وأصدقاؤهما يذهبون إلى هناك. وفي يوم من أيام الخريف، عام 1921، وبينما كان لوركا ينظر إلى الغوطة البعيدة، أحسّ بأنّ السهل المنبسط "خليج مغمور"، فكتب إلى صديقه ميلثور فرناندیث ألماغرو، يسأله: "ألم تستحوذ عليك فكرة ركوب البحر، وأنت واقف على

الحصن؟ أولم تر الزوارق تتهادى أسفل البرجين؟ ظهر لي اليوم، وفي هذا الشفق الرمادي القزحي، أنّي من جزيرة أطلنطا العجيبة الضائعة."

وسواء أنظرت من الحصن، أم من أيّة نقطة أخرى على أسوار قصر الحمراء، فسيسحرك منظر البيازين في الليل. يقول فورد: "تحتنا ترقد غرناطة بطنينها المتصل، وتتلألأ الأنوار كالنجوم في الليل البهيم، وكأنّنا ننظر إلى القبة السماوية مقلوبة." لا بد من أنّه سمع بهذه الظاهرة المعروفة لأبناء المدينة، ويسمونها "السماء النازلة"، وهو عنوان أراده لوركا لمجموعة من قصائده، لكنّه فضّل أخيراً عنوان "ألحان" Suites. (*)

نصب الثوّار القوميون في بداية الحرب الأهلية مدفعاً على الحصن، وأخذوا يقصفون عبر دارو، فيصيبون الجمهوريين المتحصّنين في البيازين. ومن المستحيل أن تخطيء الهدف من هذا الموقع.

يوجد بالقرب من طرف الساحة الشمالي كشك بُني حول البئر التي كانت منذ زمن قصير تزوّد الزائرين بكأس من ا لماء البارد، أو المخلوط باليانسون بحسب الرغبة. والبئر هنا منذ مئات السنين، يصف تيوفيل غوتيه ماءها عام 1843، فيقول: "ماء صافٍ كالألماس" يا للحسرة، فالصهريج الكبير تحت الساحة فارغ الآن، ولم نعد قادرين على محاكاة لوركا،

---

* أعطى لوركا المخطوط عام 1931 إلى ماتيلدا بوميه، وكانت فرنسية، مختصة بالأدب الإسباني. وبعد وفاتها بيع المخطوط بالمزاد العلني، فاشتراه البرشلوني رامون سوليه، ونشره طبق الأصل عام 1977 (المترجم).

والرسّام مانويل أنخلس أورتيث حين وقفا هنا عام 1924 لالتقاط صورة، وفي يد كل منهما كأس من الماء الشهير.

ما هي الذكريات الأخرى عن لوركا التي تثيرها ساحة الجباب؟ لا شك في أنّه عليم بقدر الجندي العاجز خوسيه غارثيا، المكتوب على الشاهدة، والذي "خاطر بحياته عام 1812، وأنقذ قصور الحمراء، وأبراجها من الدمار الأكيد." فقبل أن يغادر جنود نابليون الحمراء التي حوّلوها إلى ثكنات عسكرية، نسفوا بأمر من سباستيان عدّة أبراج وألغموا البقية منها. لكن ذلك الجندي استطاع أن يعطّل المتفجّرات، ويحبط خطط العدو. تلك هي القصة باختصار.

ننظر من ساحة الجباب، فنرى منظراً جميلاً لواجهة قصر شارل الخامس الذي سبق وقلنا، إنّ مهندسه بيدرو ماشوكا.

أحب الأمبراطور غرناطة حين قضى فيها شهر العسل مع حسناء البرتغال إيزابيلا عام 1526. وراودته الفكرة ببناء قصر مسيحي منيف داخل قصور الحمراء ينافس قصور المسلمين. وبدأ العمل في السنة التالية. ونظرة نلقيها على واجهة البناء الناقص تكفي لفهم الرسالة المقصودة. لا بناءٌ أبهى، وأكمل من قاعات الحمراء وأفنيته. وهذا الصرح الضخم المبني بقطع هائلة من الطابوق الأصفر يفصح عن القوّة والانتصار. وكما أشرنا في المقدّمة، فإنّ مضاهاة قصر شارل الخامس بالحمراء ترينا الكفاح المستديم ضد الموت، والمستعر في عقل كل غرنوطي: كفاح بين الشرق والغرب، بين الشرقي والغربي.

ومنذ القرن التاسع عشر نشأ جدال خبيث حول القصر، فالرومانتيكيون يدركون تماماً أنّه عمل شائن مهين للقصور العربية، وتذكرة حيّة بهدم حضارتهم. في حين نظر فورد، وغوتيه نظرة معقولة، فاعترفا بجمال العمود، لكنهما قالا إنّه مقام في المكان الخطأ.

أقيم عام 1889، احتفال عظيم في قصر شارل الخامس بمناسبة تتويج شاعر بلد الوليد خوسيه ثوريا، شاعر إسبانية الوطني. ونشأت من إقامة ثوريا في غرناطة العديد من الحكايات التي ما زالت إحداها تذكر إلى اليوم في المدينة بفرح، وتقول، إنّ الشاعر في عودته إلى مدريد أراد رهن تاجه الذهبي، لكنّه أغتمّ حين عرف أنّه من معدن رخيص لا يساوي شيئاً. وتؤكّد الحكاية التي قد تكون عارية من الصحة، ما يعرفه الناس عن حب الغرناطيين التقتير، وهذا ما يقرّه لوركا.

ألهمت غرناطة ثوريا العديد من القصائد، ولا بد من أنّ لوركا الذي ولد بعد تسع سنين من ذلك الاحتفال في قصر شارل الخامس يعرف البعض منها، ففي واحدة من كتاباته الأولى بعنوان "خيال رمزي" (1917)، نجده يشير إلى حب ثوريا للمدينة، ويقارنه بحب أنخيل غانيفيث.

أقترح قبل دخول الحمراء، أن نكون على أتم الاستعداد روحياً، فنصعد برج السهر(*) الذي يقع في بداية القصبة، ويشرف من الخلف على المدينة،

* ويسمونه أيضاً برج الحراسة، وبرج الشمعة، وبرج القنديل (المترجم)..

والغوطة. نشتري بطاقات الدخول إلى الحمراء وجنّة العريف من الدائرة المجاورة لباب الخمر.

والبرج أحد رموز غرناطة الشهيرة. وثمّة مقطوعة غنائية معروفة تتحدّث عن حب الغرنوطيين لهذا البرج ذي الساعة، والذي كان ناقوسه الكبير ينظّم حتى وقت قريب أعمال الري في الغوطة:

أريد العيشَ في غرناطة
لأسمع فقط
جرس برج السهر
حين أستلقي لأنام

أعاد لوركا صيغة المقطوعة، وهذّب كلماتها في قصيدة "الحب الذي لا يبوح بنفسه" في ديوان التماريت. كل مساء في الأول من كانون الثاني، واليوم الذي يليه، يقرع جرس برج السهر ليذكر الغرناطيين باليوم الثاني من كانون الثاني 1492 حين استسلمت المدينة للنصارى، وارتفع العلم المثلث للقديس جيمس (شنتياقوب) وصليب الكردينال مندوثا على البرج. وكلّما حلّ هذان اليومان، يتجمّع الغرناطيون هنا احتفاءً بالمناسبة. وثمّة اعتقاد يقول إنّ من تقرع الجرس تتزوج قبل نهاية العام. ويفضّل في الصيف صعود البرج في الصباح الباكر، أو قبل المغيب، وذلك لشدّة الحر.

بالقرب من مدخل البرج شاهدة، عليها مقطع مشهور للشاعر المكسيكي فرانشسكو دي إيكاثا، يقول: "أعْطه صدقة يا امرأة، فما أقبح

العمى في غرناطة" وستقنعك النظرة التي تلقيها من أعلى البرج بأنّ إيكاثا على حق ـ هذا إن لم تقتنع بعد.

غالباً ما كان فورد يأتي إلى البرج في أثناء إقامته في الحمراء، وثمّة وصف نادر للمشهد في دليله السياحي لا بد من نقله هنا:

"تحتنا ترقد غرناطة مطوّقة بالأشجار، و خلفنا تمتد الغوطة بمساحة طولها ثلاثون ميلاً، وعرضها خمسة وعشرون، تحرسها سلسلة من الجبال، وكأنّها جنة عدن. كان الحوض في السابق بحيرة شق شينيل فيها طريقه إلى لوشة. والغوطة مرصّعة بالقرى والمقصورات. لكل حقل معركته، ولكل جدول أغنيته. منظر يليق بفرشاة الرسامين، ووصف الشعراء. يساراً جبال البشرات المكلّلة بالثلوج، يليها جبل الحامة البعيد، ثم جبل بارابانده المدوّر، بارومتر الغوطة، فحينما تتكلّل قمته بالضباب، يسقط المطر. وبالقرب من غرناطة، جبال البيرة، موطن البيزيين القدامى، تحتها غابات روما المظلمة. يميناً مضيق مقلين الصخري الضيّق، وجبال جيان البعيدة. أتلف الفرنسيون برج السهر من الداخل. وسمي كذلك لأنّ فيه

جرساً ذا لسان فضي يقرعه الحارس في أوقات معينة، فيصبح كالساعة البدائية التي تنبّه السقاة أسفله، فيسمع صوته في الليل الهادىء من مسافات بعيدة تصل إلى لوشة التي تبعد ثلاثين ميلاً. إصعد إليه قبل استواء الشمس أيضاً لترى كيف يعمّ نور الله، هذه المناطق حين يصبغ بنوره القرمزي الجنّة، والأرض. ثم حين يخيّم الليل، فإنّ الصفوف الطويلة من الأعشاب، وما بقي من الزرع بعد الحصاد، وهو يحترق في الغوطة تعدو وتومض، تفرقع مثل نيران المعركة، ولا ينسى الحارس الدقيق التذكير بالمعارك الأخيرة بين العرب، والنصارى. ثم لاحظ كيف تكبر المدينة تحت في ضوء الفجر الكاذب القصير، دائماً مشهد كبير من الرابية، لكنّه الآن يكبر بغموض، وارتياح في الضباب الأزرق. كيف يرسم تيرنر المشهد! ثم تصل همهمة الحياة البعيدة كطنين النحل الناشط."

واليوم، يا للحسرة! تغيّر المشهد فجأة، وسار إلى الأسوأ. وحتّى الخمسينيات كانت الشوارع البعيدة في المدينة تندمج بخفاء ببساتين الفاكهة، والكرمات، والمزارع، والحقول في الغوطة. ثم جاء سعير المضاربات

المجنونة التي لم تضع البلدية لها حدّاً، فبدأت المدينة باجتياح الأراضي الزراعية، وارتفعت البنايات الشاهقة، وما كان طريقاً جانبياً كطريق الجولة مثلاً، والذي يربط المدينة بالغوطة اتسع، وصار شارعاً كبيراً. والنتيجة واضحة، يمكنك مشاهدتها من تل الحمراء.

اقترح حين نعود إلى ساحة الجباب، وقبل دخول الحمراء، أن نزور الكنيسة القائمة عن يمين قصر شارل الخامس، والسير في الشارع الصغير المؤدي إليها أيضاً.

بنيت كنيسة القديسة ماريا دي لا الحمرا عام 1617 على أنقاض المسجد الجامع الذي لم يبق منه أثر. وللكنيسة ذكرى طيّبة في حياة لوركا، ففي عام 1929 أقامت جمعية أخوان القديسة ماريا أول موكب للأسبوع المقّدس في ليلة السابع والعشرين من آذار. وقبل لحظات من مغادرة الموكب الكنيسة ظهرت مشكلة غير متوقعة: فقد وصل شخص من مدريد بثياب النادمين وله غرض واحد، هو أن يفي بنذره، ويرافق تمثال العذراء حين خروجه من الكنيسة. ولم يكن ذاك الشخص غير لوركا. لكن المشكلة، أنّ قوانين الأخوان تمنع الغرباء من المشاركة في الموكب، ولا يحق للمشاركين إرتداء ما يحلو لهم. أخيراً قرّرت الجماعة أن يحل لوركا محل واحد من حملة النعش الذين تستأجرهم الجماعة، ويرتدون أيضاً لباس التائبين، وهو عبارة عن برنس طويل ذي كبوّس كالذي ترتديه جماعة كوكلوس كلان.

نجحت المحاولة نجاحاً كبيراً. أضيئت غابة الحمراء بمئات الأنوار الملوّنة وارتدت ثياب الغابة المقدّسة، في حين أخذ جرس السهر يقرع في

الأعالي، فيعمّ صوته المدينة كلها· وفي اليوم التالي قالت صحيفة المدافع عن غرناطة، إنّ سير الموكب في الغابة، أمر لم يخطر لأشد الخيالات جموحاً· اختفى لوركا في نهاية الموكب بسرية كما ظهر في البداية· وكانت على الصليب الذي حمله في الموكب، كلمة بسيطة، تقول: "جزاك الله خيراً·" عاد الشاعر إلى مدريد بعد أن وفى بنذره إلى العذراء، ولم يرد ذكر لزيارته المشرقة في الصحف المحلية، ولم تكتشف علاقته بجماعة إخوان القديسة ماريا إلاّ بعد نحو أربعين سنة على الحادث·

قد نبقى نجهل السبب الذي حدا لوركا على المشاركة في الموكب· ربما كان يمر بمرحلة عصيبة في حياته، تمزّقه الهموم، وتكويه مرارة الحب· أو ربما لجأ كأي غرنوطي أصيل إلى الشفيعة العذراء طلباً للنصرة· بعد أشهر قليلة من ذلك غادر الشاعر إلى نيويورك·

بعد أن ألقينا نظرة على كنيسة القديسة ماريا، ندخل الآن شارع الحمراء الملكي الضيّق، وهو بالنسبة إلى جميع عشّاق لوركا، وفايا، وغرناطة الحقيقيين، أشبه بالطريق إلى مكّة·

يقع خلف الكنيسة مباشرة، عن يسار الشارع، متحف أنخيل باريوس، في المكان نفسه الذي تقع فيه حانة البولينايو الشهيرة· ويديره العازف والمطرب الشعبي أنطونيو باريوس· أقيم المتحف بالقرب من بقايا الحمامات الشعبية التي بناها العرب في القرن الرابع عشر · هنا كان المصلون يتوضئون لأداء الصلاة في المسجد الجامع· وحين تجد أبواب المتحف مفتوحة،فادخل لتلقي نظرة، أما إذا كانت موصدة، فاطلب المفتاح من قصر شارل الخامس·

كان البيت الذي يديره أنطونيو باريوس منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحتى العشرينيات من هذا القرن، أحد الأماكن المحبّبة للقاء فناني غرناطة، وأدبائها. واجتذبت محبّيهم أيضاً من فنانين، وأدباء يمرون بالمدينة، وكانوا غالباً ما يتركون تذكاراً فنيّاً عند مضيفهم صاحب الدار. من هذه التذكارات لوحة مائية جميلة للرسام الأمريكي جون سنجر سارجنت ورقاقة ملفوفة كتب عليها الرسام القشطالي سانتياغو روسينول (وكان من عشّاق الحمراء) وفنانون آخرون اسم باريسو، وبيته: "المجلس العام للفن في الحمراء." واستناداً إلى ما قاله روسينول، فقد كانت لباريوس ثلاث خصال يندر وجودها عند أحد: فهو مطرب شعبي ممتاز، يفهم الرسم، و ... لا يخلط النبيذ بالماء.

خلف الحانة، حديقة صغيرة مدهشة فيها حوض ماء على حافة الحمراء. ويتوقع أنّ لوركا، وثلاثة من الأصدقاء (أنخيل باريوس، ابن صاحب الحانة، وميخيل بيزارو، ومانويل انخليس أورتيث) صوّروا هنا عام 1918 "فلماً" من اختراع الشاعر يتألّف من سلسلة من الصور الساكنة تتعلّق "بتأريخ الكنز" وللفلم قصة مباشرة: ثلاثة من العرب يغتالون حارس الكنز، ويؤدي لوركا دور الحارس. ونشرت أنطونيا رودريغو، البعض من صور الفلم في كتابها "ذكريات عن غرناطة" ارتدى الممثلون الأربعة ثياب العرب، واستفادوا حينها من التسهيلات الضرورية التي كانت موفورة في مؤسسات الحمراء للتصوير. والفلم أولى الوثائق التي نملكها عن حاجة لوركا الملزمة لتمثيل موته ـ تلك الحاجة التي أدهشت

سلفادور دالي حينما التقى الشاعر في مدريد في أوائل العشرينيات ذهبت الحانة، ولم يبق غير حوضها الجاف وفنائها حيث التقى هواة الفن· يحيي جون ترينذ في كتابه "صورة إسبانية الحديثة" (1921) ذكرى المكان، فيقول:

" في إحدى الأمسيات اصطحبني دي فايا إلى بيت خارج الحمراء· كانت النافورة في الفناء ملفوفة بمنشفة، لكنها ليست خرساء تماماً· يسمع خرير خفيف للمياه حين تمر بالبركة· كان الدون أنخيل باريوس جالساً، وقميصه من دون قبة، مرتاحاً، والقيثارة على ركبتيه· دَوْزَن الأوتار على النغمات الخفيفة، فأصبحت متناغمة مع المياه في جريانها إلى البركة، وترتجّل ألحاناً متنوعة مدهشة· ثم انضم أبوه إلينا، فسأله الابن إن كان يتذكّر أيّة أغنية قديمة· جلس الشيخ، وعيناه مكسورتان، في حين واصلت القيثارة العزف··· رفع الرجل عقيرته بالغناء، وغنّى واحدة من تلك الأغاني الشعبية بلحنها الغريب الراعش، وإيقاعاتها الغريبة،ومقاطعها الأندلسية الصميمة·"

كتب لوركا في أيلول 1929 من نيويورك إلى والديه يخبرهما عن أعماله، ومشاريعه المختلفة، فقال: "أنظر من النافذة، بودي لو تشاهدون هذا المنظر

المذهل من البنايات، والأنهار التي يتقدّمها مبنى الجامعة الفخم بنافورتيه العظيمتين من الغرانيت، وهما تتدفقان بالمياه الصافية· أجل··· لكنني أتذكّر حانة البولينياريو بسروها، وكراسيها المكسورة·"

حين جاء لوركا غرناطة عام 1932 بصحبة فرقة مسرح العربة الجوّال، كان أنخيل باريوس قد اشتهر كعازف قيثارة عالمي، وتسلّم الحانة من والده· هنا وفي هذا الفناء أقام حفلاً موسيقياً تكريماً للفرقة الشابة التي أبهجت نفوس جميع الناظرين·

كان فايا من الزوّار الدائمين لأسرة باريوس التي تسكن فوق الحانة· والبعض من رسائله إلى الوالد، والإبن معروض في المتحف، فضلاً عن أصول المؤلفات الموسيقية، وصورة باريوس التي رسمها مانويل أنخليس أورتيث، وأشياء أخرى طريفة، وذكريات لا تخطر لأحد، كلها تذكرنا بغرناطة التي ذهبت ولن تعود·

على الجانب الآخر من الشارع، مقابل كنيسة القديسة ماريا، دار حديثة تسمّى البولينياريو، ليست لها علاقة بالبولينياريو القديمة· كان شارع الحمراء الملكي أيام لوركا أشهر الزوايا الحالمة في غرناطة، وما زال يحتفظ بالكثير من سحره القديم· ظلّت الحمراء آلاف السنين لها حاكمها، وقاضيها الخاصّان، ودائماً ما ينظر أبناؤها نظرة مختلفة عن الغرنوطيين· وفي العشرينيات كان المدخلان الوحيدان إلى ضواحي الحمراء، وهما باب العدل، وباب العربات يقفلان في الليل، فكان الخروج والدخول يتطلبان مناداة الحرس· وكان

باريوس ولوركا من أشد المؤمنين بالخرافات، كلّما أرادا النزول إلى المدينة ليلاً شعرا بالخوف من السير في الغابة، واعتقدا أنّهما سيلاقيان الشبح.

كان مانويل دي فايا يحب الصمت العميق المطبق على تل الحمراء في الليل ـ لكن الضوضاء ازدادت فيما بعد. ولد فايا في قادش عام 1876، وحلم وهو طفل بزيارة الحمراء. وحينما التقى عام 1907، أنخيل باريوس في باريس ازداد "نداؤه الغرناطي"، كما يدعوه أحد الكتّاب، ثم قوي واشتد حين صاحب ألبينيث في العاصمة الفرنسية لأنّ الموسيقار أحبّ غرناطة بكل مشاعره، وتمنّى العودة يوماً، والعيش فيها.

لا نعرف التأريخ الدقيق لأول زيارة قام بها فايا إلى غرناطة، لكن لا بد من أن يكون هذا عام 1914 أو 1915، فحينما توفي والداه عام 1919، وجد الحريّة ليحقق حلمه بالسكن قرب الحمراء. في ذلك الخريف حجز له مكاناً في بنسيون الحمراء، وكان داراً رحبة مترفة لم تعد موجودة اليوم، يديرها فندق أمريكا الحالي. كان البنسيون على بعد أمتار قليلة من المكان الذي نقف فيه الآن، تقريباً باتجاه القوس القائم عن يسار مدخل فندق سان فرانسيسكو في نهاية الشارع. رافق فايا في وصوله،الرسام دانيال فاثكويث دياث، وابنته. وبعد أسابيع من وجودهم في البنسيون انتقلوا إلى كرمة كارمونا، وكانت عبر الشارع، وقد هدمت بعد الحرب الأهلية لتفسح المجال لأعمال الحفر (وما زال جزء من الكرمة قائماً في البيت رقم 36). هنا، ذات أصيل عاصف من أيلول 1919، التقى جون ترينـد بفايا أول مرّة. مرةً أخرى أعتقد أني بحاجة إلى مقطع آخر من كتاب ترينـد:

"كانت أولى ظلال الشتاء. ورؤوس أشجار الدردار تتمايل في الريح العالية، وتسقط أشجار الرمّان التي نتعشّى تحتها حبّات حلوة، وقشوراً لزجة على غطاء المائدة. فجأة هطل المطر، وأخذ كل منا خبزه، وصحنه، وكأسه، وركض إلى البيت. لم أتبيّن وصفاً حالماً، إلاّ حينما دست برفق سفرجلة متعفّنة مرمية على مجاز الحديقة. وصف السيد فايا الحكاية بأنّها خليط من "سهرة في غرناطة" و "الحدائق في المطر"، لكنّه أضاف بأنّ الجو العام أشد إسبانية مما يعرف ديبوسي، ذلك لأنّ حبّه لغرناطة من نتاج الكتب، وبطاقات البريد المصوّرة للحمراء التي أراها له السيد فايا."

في الخريف التالي، عاد فايا إلى هضبة الحمراء. وأخيراً عام 1921 وجد له الأصدقاء ما كان يبحث عنه، وهو كرمة ساحرة متواضعة في شارع أنتكويريلا، تشرف على مناظر رائعة لجبال الثلج، والغوطة. وسنزورها في جولتنا القادمة.

تستحق كرمة كارمن الذكر لسبب آخر، ذلك أنّ مالكولم لوري التقى فيها جان غبريال في حزيران 1933، فأحبها. وثمّة إشارات لخاتمة تلك الرحلة في كتاب "تحت البركان" حيث نكتشف، أنّ القنصل، ويافوني قد

عاشا ساعات خالدة في غرناطة، وأن قصتهما التي طبقت الآفاق جلبت الشهرة لكرمة كارمن.

كان فندق القديس فرانشسكو في الأصل ديراً بالاسم نفسه، بناه فرديناند وإيزابيلا على أنقاض قصر عربي ما زالت بعض آثاره الجميلة باقية إلى اليوم. وكان أول دير يقام في غرناطة المسيحية وفاءً لنذر قطعه الملكان للقديس فرانسيس قبل استيلائهما على المدينة. ودفن الملكان هنا، ثم نقل رفاتهما إلى الكنيسة الملكية عام 1521، كما مرّ بنا في الجولة الثانية.

والفندق من أكثر الأماكن التي تسكنها بهجة في غرناطة. الحدائق الجميلة المشذبة في المنطقة الخلفية المجاورة للحمراء (يمكنك مشاهدة الجزء الأخير منها، وتطل عليه ثلاثة أبراج هي من اليسار إلى اليمين: برج الرؤوس، وبرج القاضي، وبرج الأسيرة) وجنة العريف في المغيب مناظر خالدة. ومن الزاوية اليمنى للحدائق ترى منظراً نادراً لحي البيازين. كل ما في الفندق سلام وجمال، وهدوء بعد هرج، ومرج وسط غرناطة. وفي الليل يرين الصمت.

يوجد في قائمة طعام الفندق حلوى الفاكهة، وأنواع مختلفة من الحلوى المحلية. وإذا أكلت هنا، لاحظ الصنف الذي يقدمونه، وكلّه طيب. تذكر حين تتذوّق الطعام، ما قاله لوركا عن أهمية معرفة أماكن جديدة، لا بالنظر فحسب بل بالتذوق والشم أيضاً.

ثمّة اقتراح أخير. لا تنس زيارة شارع الحمراء في الليل حين يهجر معظم السيّاح ضواحي الحمراء. هنا يمكنك مناجاة غرناطة لوركا، وفايا

المفقودة. الصمت مذهل، والأضواء خافتة، والمياه الجوفية تقرقر، والنافورات تنثر مياهها على الحدائق المتوارية، وعطر الياسمين الفوّاح شرقي تماماً، وأشواك النباتات التي تنمو بغزارة على طول الشارع تذكّرنا باليونان، ومدن كورنثيا... المكان ساحر يبعث حيوية خاصة.

يمكننا الآن العودة نزولاً في الشارع لرؤية الحمراء. وفي تلك الأيام الخوالي، كان السياح قليلين جداً، وكان القصر في معظم الأحيان لأبناء البلد وحدهم، فكان من حقهم المجيء في الليل أيضاً حينما تكون قصور الحمراء في غاية السحر. وماذا عن الحمراء في ضوء القمر! من المؤكد لا يوجد الكثير الذي نتذكره في حياتنا كهذه التجربة، خصوصاً في الصيف حين تضج العنادل بالغناء.

حينما مرّ دزرائيلي بالأندلس وكان في طريقه إلى الشرق الأوسط عام 1830، كان في غاية التأثّر لرؤية الحمراء التي قال عنها: "من أكثر الإبداعات خيالاً، ورقة، وغرابة، والتي تنبعث من حكايا الجن في ليلة من ليالي الصيف." وبعد أن تجُول في هذه الباحات والأبهاء قد تؤيد دزرائيلي في كلامه. لا تنس صالة السفراء، وسقفها الفخم المزخرف بالنجوم، وما تراه منها من البيازين حين تنظر عبر دارو. في هذا المكان البهي وقّع فرديناند، وإيزابيلا قرارهما بطرد اليهود من إسبانية في 31/ 3/ 1492.

وفي أثناء طوافك بالحمراء دع ذهنك يسرح في تأمّل دور الماء، وانعكاسه على هندسة القصور. وإذا أردت الوقوف حيث وقف الشاعر

ذات يوم، ابحث عن برج السيدات، وحوض الماء دونه. قف معتدلاً لالتقاط صورتك التذكارية.

وإذا كنت لم تقرأ بعد كتاب واشنطن إرفنغ عن الحمراء، والذي ظهر أول مرّة عام 1832، فأعتقد أنّك ستفعل في أقرب فرصة. كان الكتاب الذي وضع الحمراء فعلاً على الخريطة، وما زال الأكثر مبيعاً على الرغم من اختلاف مدارك القرّاء. عاش إرفنغ داخل الحمراء ـ في حجرات نوم الملك، وهذا ما فعله فورد من بعده. عاشر نزلاء مختلفين في قصور الحمراء المقوّضة، منهم رجل لا توفيه الكلمات حقّه هو ماتيو زمنيث الذي أصبح دليل إرفنغ. استحم إرفنغ ليلاً في حوض ساحة الشهداء ودهش لرؤية المقيمين في الحمراء يصيدون السنونوات من جدران الحمراء بصنانير طيّارة ("وهكذا اخترع أبناء الحمراء بعبقرية العاطلين المشرّدين، وبملابسهم الرثّة فن التصنّر في الجو").

وغوتيه الذي يعد الليالي الأربع التي قضاها في الحمراء "أكثر اللحظات بهجة" في حياته، وجد استخداماً غريباً لنافورات بهو السباع حيث جلس، ورفاقه، ووضعوا قناني الشيري في المياه لتبرد.

نعبر من حدائق الحمراء إلى جنّة العريف على جسر ممدود على تل الفخار، ويسمى أيضاً تل الملك الصغير، إشارة إلى أبي عبد الله، آخر ملوك غرناطة. وسيكون طريقنا في الجولة التالية. واستناداً إلى ما يقوله اللغويون فإنّ جنّة العريف تعني بالعربية حديقة صاحب الرفعة. ولا غرو في ذلك، فالغاية من القصر، وحدائقه جلب المتعة والسرور على قلوب الملوك

المسلمين. وليس بمقدورنا تخيّل مكان أكثر جمالاً من هذا لقضاء إحدى العطلات.

في صيف 1924 استقبل لوركا في غرناطة، الشاعر المشهور خوان رامون خمينيث، وزوجته زنوبيا. كان خمينيث المفرط الحساسية مسحوراً بالحمراء، وجنّة العريف، لكنّه مرتاع من الضرر الذي يلحقه البناؤون بالمدينة. وذات أصيل، قال للوركا (الذي نقل القول إلى صديقه ميلشور فرناندیث ألماغرو في مدريد): "سنذهب إلى جنة العريف في الساعة الخامسة عصراً، وهو الوقت الذي تبدأ فيه الحدائق بالتألّر." وحينما شاهد خوان رامون سلالم المياه هتف قائلاً: "أموت لو جئت في الخريف."

لا ريب أن السلالم عمل فذ (تابع العلامات على الطريق) يليق بالمسلمين اللذين يقدّسون الماء، واللذين صنعوا جنة من هذا المنحدر. وسميت كذلك لأنّ المياه تجري منحدرة من رؤوس الدرابزينات الأشبه بالمغارف، والممتدة بجانب السلّم.

وفي عام 1526 حينما جاء غرناطة أندريا نافاجيرو، سفير البندقية لدى قصر شارل الخامس لرؤية الإمبراطور، سُرَّ لرؤية هذا الاختراع، وجال خلال زيارته في هذه الحدائق برفقة الشاعر خوان بوسكان. تشهد على ذلك لوحة معلّقة بالقرب من السلّم. وقد أثمر اللقاء نتائج رائعة في الشعر الإسباني. واقترح نافاجيرو، وكان من رجالات النهضة الإيطالية، على بوسكان أن ينظم الشعر على الطريقة الإيطالية. وافق بوسكان، وأثمرت جهوده، حتى أنّ صديقه غارثيلاسو دي لافيغا، قرّر هو الآخر تجربة قلمه

في ذلك. ولو لم يتلاق نافاجيرو، وبوسكان ذلك الصيف في غرناطة لما قرأنا قصائد غارثيلاسو الرعوية. وما دمنا لا نملك تسجيلاً لمحاورات لوركا، وخوان رامون في جنّة العريف، فلا شك أنّهما ناقشا لقاء نافاجيرو المهم، وبوسكان الذي جرىٰ هنا قبل أربعمئة عام.

والماء في جنة العريف أغزر بكثير من مياه الحمراء. وكل مرّة آتي إليها أتذكّر صرخة اليأس التي تصدر عن الغجري في قصيدة السائر في نومه، وهو يصعد الدرابزين العالي بحثاً عن حبيبته التي أوحىٰ لها القمر فنامت، فغرقت في مياه البركة:

دعني علىٰ الأقل أصعد
الدرابزينات العالية،
دعني أصعد ! أصعد
الدرابزينات الخضر
درابزينات القمر
حيث المياه تدوي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ولو وجد مكان في غرناطة فيه درابزينات عالية، وتدوي المياه فيه فإنّه هنا، جوار سلّم المياه، في قلب جنّة العريف.

بالقرب من هذا المكان، وفي 15/ 6/ 1919، جرىٰ أمر مهم في حياة لوركا، ففي أصيل ذلك اليوم، أقام مركز الفنون مأدبة علىٰ شرف رئيسه السابق فرناندو دي لوس ريوس الذي تم انتخابه عضواً اشتراكياً في مجلس غرناطة. حضر المأدبة المؤلف والمدير المسرحي المعروف غريغوريو مارتنيث

سيرا، ترافقه سيدته (وخليلته) القيادية كاتالينا بارثينا. وكان الاثنان متأثّرين بلوركا الذي قرأ عليهما بعض قصائده، فأقنعاه بقراءة المزيد في مكان منعزل في الحدائق. أذعن الشاعر، وكان مما اختاره قصيدة عن فراشة جريحة تسقط على المرج فتأخذها جماعة من صديقاتها الصراصير. لكن صَرَّاراً يقع في حب هذه المخلوقة السماوية التي تفشل في مبادلته الحب، وتستعيد جناحيها لتطير هاربة. واستناداً إلى ما يقوله ميخيل ثيرون الذي كان حاضراً ساعة القراءة، ما كاد لوركا ينتهي من قراءته حتّى امتلأت عينا كاتالينا بالدمع. تأثّر مارتنيث هو الآخر، ووعد لوركا، أنّه لو جعل القصيدة مسرحية شعرية، فسيقدمها على مسرح السلافي الذي يديره في مدريد. هكذا ولدت مسرحية "سحر الفراشة" صدق مارتنيث وعده، وأخرج المسرحية في 22/ 3/ 1920، وقامت كاتالينا بدور الصرار الذي أسقمه الحب. أخفقت المسرحية إخفاقاً مريعاً، وكان على لوركا الانتظار سبع سنين أخرى كي ينجح في مسرحيته الثانية.

ذكرت في المقدّمة، أنّ لوركا لا يشير دائماً إلى الحمراء، وجنة العريف في أعماله، لكنهما جزءان لا يقلان أهمية في تكوين حساسيته الشعرية. وبعد أن جلنا هنا، أنا على يقين بأنّكم اقتربتم من الشاعر.

الجولــة الرابعة: تل الحمراء

الزمـن: نحو ثلاث ساعات سيراً على الأقدام، ويمكن الوصول إلى المقبرة بالحافلة، أو السيارة، لكن لا يمكننا الوصول إلى تل الفخار (ويسمونه أحياناً تل الملك الصغير) إلاّ مشياً.

حين نغادر قصر الحمراء من باب العربات، نكون قد اتجهنا إلى التل. نصل في لحظات قليلة إلى تحويلة حادة على الطريق (تماماً بعد مسقط المياه). هنا مقابل السور الناتيء لحصون الحمراء (ولنكن دقيقين، فنقول مقابل سور برج الرؤوس) ثمّة كوخ تظلله شجرة وارفة، وفيه ثلاث مصطبات حجرية، وسبيل ماء. نختار الطريق الضيّق الذي يبدأ من الكوخ ليوصلنا إلى متنزه الغابة المركزي حيث ننعطف يميناً. نسير خطوات قليلة حتى يلتقي طريقنا من جديد بالشارع الرئيس المعبّد حيث النصب التذكاي لأنخيل غانيفيث الذي أنجزه النحّات خوان كرستوبال.

وللنصب الذي دشّن في 3/ 10/ 1921، ذكرى طيبة عند لوركا سجّلها لنا خوسيه مورا غورنيدو. ذهب غورنيدو يوماً مع لوركا، والنحّات كرستوبال إلى مرعى الضيعة في ضواحي مدريد. وأراد النحّات إنجاز مخططات أولية للتيس يحتاجها في صناعة النصب، وتوفّرت لديه نماذج رائعة منها. وكل صباح حينما يبدأ كرستوبال الرسم يناقش الأصدقاء في رمزية

الماعز، ودورها في الفن، والشعر. دهش لوركا لما وجد في الحيوانات، خصوصاً شهوتها الشديدة. وفي صباح اليوم التالي، قرأ على غورنيدو وكرستوبال قصيدة حديثة تدور حول الفكرة نفسها . وظهرت "التَّيس" بعد سنتين في "كتاب القصائد"، وكانت آخر ما أنجز الشاعر من قصائد الديوان.

بعد خطوات قليلة من هذا المكان المعروف بتعريشة الطماطم، نصل إلى الشارع الرئيس، ثم ننعطف يساراً صاعدين في التل. أمامنا عن اليسار بيت أبيض يحجبه حائط تغطيه اللافتات. هنا عاش القنصل الإنكليزي لغرناطة، وليم دافنهيل، واخته مارافيلاس. كانا شخصين محبوبين، نصفهما انكليزي، والآخر أندلسي. وحينما قابلتهما في الستينيات، كانا البقية الباقية من المغتربين البريطانيين الغرباء في تل الحمراء، وقد وصفهم جيرالد برينان أروع وصف في كتابه "جنوبي غرناطة".

كان دافنهيل متسلق جبال متحمساً، عاشقاً لجبال الثلج. ولم يكن ينزل بالمدينة، إلاّ لماماً. وكان متحدّثاً لبقاً، يحب رواية القصص، وذكرى اليوم الذي قابل فيه المهندس خوان خوسيه سانتاكروز على قمّة البيكاشو دي لا فاليتا (11246 قدماً تقريباً). أخبره سانتا كروز (ولا بد من أن يكون هذا في العشرينيات) أنّه سيشق طريقاً من غرناطة إلى قمة جبل الثلج. هتف القنصل الإنكليزي قائلاً: "بالله عليك لا تفكّر في هذا ! لو شققت طريقاً يصعد إلى القمّة، فستأتي الحافلات بالسياح، ويبنون الفنادق، ويخرب المكان! أتوسّل إليك، لا تفعل!" لكن سانتا كروز لم يصغ، وشق طريقه.

واليوم، فجبال الثلج منتجع عالمي للتزلج مهدّد بالخراب البيئي. كان سانتا كروز أول ضحية للحرب الأهلية حين قتله القوميون بتهمة قذرة تدّعي أنّه لغم نهر دارو في المكان الذي تمر فيه المياه تحت شوارع غرناطة.

وعند دافنهيل قصة طريفة أيضاً يرويها عن زيارة الملكة ألكسندره لغرناطة، فحينما رأت مدخل بيته ظنّته بيتاً صغيراً، فقالت محتجة: "لكن سيد دافنهيل، ألا تظن بأنّ قنصل جلالته في غرناطة يجب أن يسكن قصراً أكبر فخامة من هذا البيت؟" وكان دافنهيل يتوقع سماع مثل هذه التعليقات. وحينما دخلت الملكة البيت توضّح لها كل شيء. ولم يكن "البيت" المقصود غير الطابق العلوي لبناية فخمة أقيمت على مرتفع شاهق.

كل مساء في الصيف تعقد عائلة دافنهيل مجلسها في الباحة الأمامية، ويقدّمان للضيوف شراباً حارقاً تعدّه مارافيلاس. هنا أخبراني بتجاربهما في غرناطة في أثناء الحرب الأهلية. والبيت مقام على زاوية الشارع المؤدي إلى المقبرة. كل صباح كانت الشاحنات المحملة بالأبرياء الذاهبين إلى مصيرهم المحتوم تمضي على هذه الطريق. وفي صباح أحد الأيام نظرت مارافيلاس من النافذة، فرأت شيئاً عجباً: "كل شاحنة محمّلة بعشرين، أو ثلاثين رجلاً، وامرأة مربوطين من رؤوسهم، ومقيّدين كالخنازير المساقة إلى الذبح. وبعد عشر دقائق سمعنا أصوات الطلقات، وعرفنا أنّ كل شيء قد تمّ."

التقى دافنهيل لوركا مرّة، أو مرّتين، لكنهما لم يتصادقا. الحقيقة أنّ القنصل، وأخته كانا على اتصال وثيق بأبناء الجالية البريطانية أكثر من اتصالهما بالغرناطيين. ومن المنتظر أنّ لوركا حين كتب "برسيوزا والريح"

كان يفكّر بالدون غوليرمو، فجعل فتاته الغجرية المرتعبة من الريح تلجأ إلى دار القنصلية البريطانية الواقعة أعلى التل. صحيح أنّ الحدث في القصيدة يتم بالقرب من البحر، وأنّ القنصلية تقع أعلى شجرات الصنوبر التي لا يوجد منها في غابة الحمراء، لكن تحفّظ قنصل لوركا في القصيدة يدين بأكثر من شيء لدافنهيل.

بنى دوق دي سان بيدرو خلف خلف قصر دافنهيل الرائع،فندق قصر الحمراء، فكان مصدر يأس للقنصل. افتتح الفندق الملك ألفونسو الثالث عشر في 1/ 1/ 1910. والقصر الذي يطلقون عليه في غرناطة "بالا" (مجرفة) بدلاً من "بالاس" يحجب كل منظر جميل للغوطة نَعِمَ القنصل الانكليزي برؤيته، فلم يغفر لصاحبه سوء فعلته. يا للأسف فقد غاب القنصل، وغابت اخته إلى الأبد، وحوّل البيت حديثاً إلى شقق سكنيه.

نزور الآن الفندق الشهير في غرناطة، والذي أدّى، وما زال دوراً بارزاً في الحياة الثقافية، والاجتماعية للمدينة، وفيه ذكريات غنيّة للوركا.

اقترح الذهاب مباشرة إلى السطح، وهو أكثر الأماكن عجباً في غرناطة، حيث تشرب كأساً، وتشاهد المنظر حولك، خصوصاً في الصيف قبل الغروب. يكاد السطح يطل على الجنوب، ومن هنا نرى بوضوح الدمار الذي سبّبه المستثمرون للغوطة حين دفعوا المدينة قدماً إلى السهل. كان من الممكن لغرناطة الجديدة أن تبنى شمالاً، وبذلك تتم المحافظة على العلاقة الفريدة بينها وبين الغوطة، وتندمج الاثنتان تدريجياً، لكن هذا لم يحدث. وكل مرّة أزور غرناطة وأصعد إلى هذا السطح أرى الهدم أسوأ، فأسوأ. وقد

جاهد الكثيرون منا لمنع قرار الحكومة، والبلدية بشق طريق ساحلي جديد ذي ستة اتجاهات، وجعله بامتداد حدود المدينة، أي على مرمى حجرٍ من بيت أهل لوركا الصيفي، بستان القدّيس بيثنتي. لكن جهودنا ذهبت هباءً في شبك. وغرناطة اليوم كما هي دائماً وأبداً تصر على عداوة نفسها. ولا شك في أنّ لوركا، وفايا سينسحقان حزناً لو نظرا اليوم من سطح الفندق، وشاهدا الغوطة.

دعني أرى إنْ كنتُ أستطيع هديك إلى الطريق الصحيح.

أجلسُ إلى الطاولة السادسة عن اليسار، أمامي مباشرة السور بطابوقه الكريه، وهو الحدّ الفاصل بين غرناطة القديمة، والحديثة، أمامه تماماً بناية واطئة ذات برج صغير هي كليّة الآباء البياريين (إيسكولابيوس) المذكورة في الجولة الأولى، والتي كان للوركا دخولها لو لم يكن أبوه كارهاً الاتجاه الكنسي. واضح أمامها نهر شينيل الذي يجري بمحاذة المجمّعات السكنية، يمكنك اقتفاء أثره إلى الغوطة. عن يمين الكليّة البرجان الاردوازيان التوأم لكنسية الهموم الواقعة في مضمار شينيل.

دوننا مباشرة كنيسة القديّس سيثليو ببرجها الجذّاب المصبوغ، وهي الأبرشية التي كان دي فايا يزورها يومياً للصلاة (فقد كان كاثوليكياً متبتّلاً). يميناً بالقرب من المدينة تلوح القبّة الكبيرة لكنيسة سانتو دومنيغو بروافدها المزجّجة، وفيها عُمِّدت أم لوركا.

من نهاية سطح الفندق الأيمن نرى المقصورة البيضاء لمؤسسة رودرخويث أكوستا المسيّجة بخشب السرو، والتي تبدو أقرب إلى التصميم

الإيطالي منه إلى الغرناطي. وخلفها عن اليسار يرتفع بناء الكاتدرائية الضخم.

والآن حين تنظر أمامك إلى الغوطة ترى في طرفها شكلاً أسمر غريباً أشبه بالتل الصغير، له قمّة ملساء تماماً يدعونه مونتيفيفيث، فيه أكبر مخازن الأسترنتيوم في العالم. ولو استمرّت عمليات القلع على ديدنها الحالي، فسيختفي التل في غضون سنين معدودة.

مقابل المخازن مساحة كبيرة من الأرض البراح تمتد عن اليسار، تراها جافّة في الصيف. وهذه مطار أرميلا العسكري الذي قام بدور مهم في الحرب الأهلية.

توجد عن اليسار التلال السفحية لجبال الثلج، وتراها منقطةً بالقرى، زاحفة بنعومة إلى قمة دوارة الريح أقصى اليسار.

بالقرب منا، وتقريباً في مستوى واحد مع الدوّارة، كرمة الشهداء التي تقع تماماً خلف نهاية سطح الفندق، وهي قاعة مانويل دي فايا الموسيقية. تحتها مباشرة (وحاذر الإتكاء الشديد إلى الشرفة!) مقصورة الموسيقار الصغيرة بمصاريع نوافذها الزرقاء. وبغض النظر عمّا فعله المستثمرون، فما زال هو المشهد الأجمل في إسبانية.

في الفندق مسرح صغير بُني على الطراز العربي الحديث، كباقي أبنية الفندق. ألق نظرة عليه، ففي 7/ 6/ 1922، عقدت فيه أمسية شعرية، وغنائية قبل أسبوع من مسابقة الأغنية العميقة. افتتح الأمسية، أنطونيو غاليجو بورين، عضو جماعة الزويّة، ونائب رئيس مركز غرناطة للفنون، فقرأ كتيّبا

صغيراً عن الأغنية العميقة، كتب القسم الأكبر منه مانويل دي فايا· أتبعه عازف القيثارة الشعبي مانويل خوفري عزفاً منفرداً، وتلاه لوركا بقصائد من ديوان "قصيدة الأغنية العميقة" وانتهت الأمسية بأندرياس سيغوفيا الذي تحدّث عن الدور الاستثنائي لعازف القيثارة ـ استثنائي لأنّه لا دليل على أهتمام سيغوفيا بالفلامنكو من الناحية العملية، على الرغم من أنّه عضو في هيئة محكمي المسابقة·

وإذا صدقنا ما قالته صحيفة المدافع عن غرناطة فإن نجم الأمسية كان لوركا: "كانت أمسية فدريكو غارثيا لوركا· لغرناطة شاعرها· هذا الولد الشاب الهائم بحب الجمال والرفعة مقدّر له أن يصبح من أبناء الوطن المشهورين·"

جعلت التحضيرات التي أقيمت للمسابقة لوركا على اتصال شديد بجذوره العميقة، ويشير ديوان الأغنية العميقة إلى تحوّل عظيم في شعره، فبعد أن تحرّر من تأثيرات نهاية القرن التي طبعت شعره الأول، ها هو يجد صوته الحقيقي ـ ذلك الصوت المميّز الذي يعرف الجميع اليوم أنّه صوت لوركا· وستلد هذه التجربة عمّا قريب ديواناً جديداً هو "أغاني الغجر"·

في 5/ 5/ 1929، وبعد خمس سنين من إقامة تلك الأمسية في الفندق، أقيمت وليمة على شرف الشاعر، والممثلة مارغريتا زيرغو التي قدّمت مسرحية "ماريانا بنيدا" على مسرح ثربانتس (أنظر الجولة الأولى)· حضر المأدبة مانويل دي فايا وفرناندو دي لوس ريوس، وأرسل سلفادور دالي برقية بالمناسبة، في حين ألقى صديق لوركا، ومحرّر صحيفة المدافع عن

غرناطة كلمة ترحيبية أثنى فيها على فن مارغريتا التي وصفها "بممثلتنا العظيمة"، وقال عن لوركا إنّه "من أعظم شعراء إسبانية الشباب." وحين وصل إلى المقطع الآتي من كلمته، ضجّت القاعة بالتصفيق:

> غارثيا لوركا شاعر الآفاق العالمية. لكنه غرناطي في الأعماق، صعد في وقت قصير جداً أعلى المراتب في الشعر المعاصر. وينبغي التصريح بذلك عالياً بلا خوف من وجود من يجهل هذه الحقيقة من اللئام.
>
> فضلاً عن ذلك، نريد تحطيم الاعتقاد الساذج الذي يقول بأنّ الذين يكتشفون الجيّد في غرناطة هم الأجانب دائماً. نحن الغرناطيين الذين اكتشفنا غارثيا لوركا، مجدّد الشعر الغنائي الإسباني، ونحن الذين قلنا لمدريد، وعموم إسبانية: ها نحن نرسل لكم شاعراً، ولد في غرناطة، شاعراً يعبّر عن كل بهاء هذه الأرض المدهشة، الأندلس.

وفي كلمته الجوابية ذكّر لوركا الحاضرين بالكفاح الطويل الذي استمر سنتين لإخراج "ماريانا بنيدا"، وعبّر عن امتنانه العميق، وإعجابه بمارغريتا زيرغو. أما بالنسبة إلى المسرحية، فعلى الرغم من أنها لم تعد تعكس رأيه في المسرح، إلاّ أنّه يشعر بأنّه قام بواجبه "بمعارضة البطلة المثيرة، المسيحية،

والمتألقة ماريانا" بتلك الشخصية الباردة كاملة الصفات التي تبدو بثيابها حرّة كالأجنبيات. واستمر في كلامه، فذكر قلقه حين وجد نفسه معروفاً تماماً في جزء من العالم، هو غرناطة، وهو بحاجة إلى أن يترك وحده ليواجه نفسه بنفسه. ويشرح ذلك فيقول: "وكأنّهم نزعوا طفولتي عني، ووجدت نفسي أحترق بشعور من المسؤولية، لم أرد أبداً حملها، إذ لم أرد غير العيش بهدوء في بيتي، مرتاحاً، ومستعداً لكتابة عمل آخر." ثم أضاف: "لو أدام الله بركته، وجعلني مشهوراً يوماً ما، فنصف شهرتي تعود إلى غرناطة التي أوجدت، وشكّلت هذا المخلوق ـ شاعر منذ الولادة ولا حيلة له بذلك."

بعد أيام من ذلك، وفي 18/ 5/ 1929، رجع لوركا إلى ذلك المسرح العربي في القصر ليلقي المزيد من الشعر، مع مختارات من "كتاب القصائد" و"أغان" و"قصائد غجرية" ونجح نجاحاً كبيراً في الأمسية.

غادر في حزيران إلى نيويورك، فركب من ميناء ساوثامبتون الباخرة أولمبيك، ومعه فرناندو دي لوس ريوس.

بعد أن نغادر الفندق، ننعطف يميناً، ونبدأ نزول السفح. عن يسارنا يرتفع بيت دافنهيل بعد أن استعاد بهاءه. بعد عشرين ياردة من التل، وعن اليسار يبدأ الشارع الصغير لقرية الأنتكويرة، والذي يصل إلى كرمة فايا. ويشير اسم القرية إلى عرب الأنتكويرة الذين سكنوا هذه الناحية حينما استولى النصارى على غرناطة. عاش فايا في المنزل رقم 11، كرمة طير ماريا، ويقع في نهاية الشارع. سكن فايا هنا عام 1921 ترافقه أخته المخلصة دائماً

وأبداً ماريا ديل كارمين · ولم يترك البيت حتّى عام 1939 حين هجر إسبانية، وذهب إلى الأرجنتين·

لا محب لفايا، أو للوركا لم يتأثّر لرؤية البيت الذي حافظوا عليه كما تركه صاحبه، وترى فيه البيانو العمودي، وتصاميم بيكاسو للعروض الأولى لمسرحية "القبعة ذات الزوايا الثلاث" التي عرضت في لندن في 22/ 7/ 1919، ثم على مسرح الحمراء· وترى أيضاً المقتنيات الشخصية المعقّدة التي كان يحتاجها فايا للف السجائر (فقد كان مصاباً بوسواس المرض)، والصور، واللوحات، والسرير البسيط··· كل شيء كما تركه صاحبه·

غالباً ما كان لوركا يعزف على هذا البيانو، وكان فايا متأثّراً جداً لقدرة الشاعر الموسيقية فقال مرّة: "تعرفون لوركا الشاعر· حسن، كان له أن يكون موسيقاراً عظيماً كعظمته في الشعر، أو أكبر من ذلك·" ويا له من تقدير·

في الساعات الأولى من صباح الأول من كانون الثاني 1921، قدّم لوركا مفاجأة لفايا بمناسبة يوم القدّيس· كان الموسيقار قد أوى إلى الفراش، لكنّه استيقظ فجأة على ضجيج مروّع في الشارع· كان لوركا، ومجموعة من العازفين الشعبيين يعزفون لحناً مرحاً، أعدّه الشاعر للمناسبة ليعزف على الترومبون، والبوق، والتوبا والكلارنيت، وكان من مقطوعة فايا بعنوان أغنية القشّة من سمفونية الحب الساحر· ذهل فايا ودعا العازفين إلى الدخول، ثم طلب منهم إعادة العزف· كتب لوركا إلى صديقه الناقد

الموسيقي أدولفو سالازار يخبره بالحكاية، وادّعى متفاخراً، إنّ فايا أخبره بروعة العرض··· الذي لا يخطر ببال أعظم الموسيقيين كسترافنسكي !

لا تفتك مشاهدة الحديقة الصغيرة الساحرة التي تعطيك مع البيت، أحسن فكرة عن فن بناء الكرمات الغرناطية الأصيلة، وهو فن كما قلنا في المقدّمة يستمد أصوله من تمثّل العرب للجنة الداخلية· ومثل فايا، فإنّ بطلة "دونيا روسيتا العانس" تعيش في بيت كهذا، لكنّه في حي البيازين· لا بد من أنّ لوركا، كان غالباً ما يجلس هنا مع الدون مانويل، وثمّة صورة جميلة يبدو فيها مع أخيه فرانشسكو وآخرون يقفون بفخر إلى جانب فايا، وعازفة الهارب المعروفة، واندا لاندووسكا في باحة الدار·

ذات يوم من آب 1936، ومن كرمة ماريا هذه، تحامل فايا على نفسه، ونزل إلى المدينة أملاً بالتدخّل لمصلحة لوركا الذي سجنوه في دار الحكومة· لكنّه وصل متأخّراً: كان الشاعر قد نقل إلى ساحة الإعدام· ولم يتكلّم الموسيقار الكاثوليكي المخلص عمّا حدث في ذلك اليوم، ولم يسم الشخص الذي كان في رأيه مسؤولاً عن الجريمة· كل ما نعرفه، أنّهم أخبروه بأنّ لوركا قد مات·

اقترح الآن زيارة كرمة الشهداء القريبة، وهذا يعني، أننا سنعود من حيث جئنا في التل، ونسير حول زاوية بيت دافنهيل على الأرض المستوية الممتدة على طول الشارع· خلف البيت مباشرة، وباتجاه الغوطة، صليب حجري كبير نصب عام 1901، إحياء لذكرى السجناء النصارى ("الشهداء") الذين ماتوا في الزنزانات أيام الحكم العربي·

خطوات قليلة، ونصل إلى مدخل قاعة دي فايا ومركزه الفني، وهي من تصميم المهندس خوسيه ماريا غارثيا باريديس، زوج الجميلة مايا إيزابيل، إبنة أخت فايا. ولا بد من أن نلقي نظرة على هذه البناية الفريدة من الداخل، ونرى أجمل المناظر من سطحها. وإذا حالفنا الحظ بحضور إحدى الحفلات الموسيقية في أثناء وجودنا في غرناطة، فهذا غاية السعد.

أقيمت القاعة على موقع نُزُل ماتاموروس، وهو بيت للشباب مشهور، كانت تديره في العشرينيات اسكتلندية غريبة الأطوار اسمها الآنسة ليرد، وقد ورد ذكرها في كتاب جيرالد بريتان "جنوبي غرناطة"، كما يرد ذكر المكان في روايتين لمرغريت شتاين هما "مصارع الثيران" (1934) و"الحانة" (1935).

روعيت المحافظة على كرمة الشهداء القائمة وسط الحدائق الرائعة في نهاية المتنزه. لكنها كادت في حكم فرانكو، وبتسترٍ من البلدية، أن تصبح فندقاً من تلك الفنادق المترفة. وسرعان ما بدأت أعمال حفر واسعة في الغابة، وفشل المشروع. ولو نجح لكانت الكرمة مصدر رعب آخر يضاف إلى قائمة الانتهاكات الطويلة التي ترتكب بحق غرناطة، وتقضي على مناظرها الطبيعية.

ويبدو أنّ أول بناية احتلت هذا المكان هي الصومعة التي بناها الملكان الكاثوليكيان فرديناند، وإيزابيلا. وفي نهاية القرن السادس عشر، أقيم على الصومعة، دير "الراهبين" الكرمليين الحافيين، وأول رؤسائه، القديس خوان ابن الصليب. هدم الدير عام 1842. والبناية التي نراها اليوم، شيّدها

المحسن كارلوس كالديرون، مؤسّس المدرسة التي درست فيها أم لوركا. وحين توفي كارلوس انتقلت المدرسة إلى بلجيكي مثرٍ، اسمه هامبرت ميرزمان، الذي توفي عام 1934. ويشير لوركا إلى هذه الشخصية النابضة بالحياة في مقدّمته البارعة الساخرة "تأريخ هذا الديك الصغير" ـ والتي كتبها لمجلة الديك الطليعية في غرناطة ـ فأضاف إلى الرجل حبّاً شديداً لاقتناء الديوك. مكتبة سُر مَن قرأ

ولأنّ القديس خوان كان رئيساً للدير بين 1582–1588، حيث كتب قسماً من أعماله، فإنّها فكرة أثارت لوركا بشدّة، وذلك لحبّه الشديد لشعر هذا القديس. تحدّث في الإذاعة عام 1936 بمناسبة أسبوع غرناطة المقدّس فقال: في غرناطة التي هي إحدى "مراكز إسبانية العصبية،" يزخر شعر القديس خوان "بأشجار الأرز، والقرفة، والينابيع،" ويتنفّس "هواءً شرقياً"، بعد أن اقتات بسهول قشطالة المركزية العارية.

نرجع من حيث أتينا من كرمة الشهداء، فننعطف يميناً على بعد مئة وخمسين ياردة من مدخل الكرمة، ونجتاز زقاقاً عبر طرف الغابة لنلحق بالشارع الرئيس. ننعطف يميناً مرّة أخرى، وسرعان ما نصل إلى فندق واشنطن إرفنغ، إحدى البنايات التي نجت من الحرب الأهلية.

هنا في آذار 1928، قابلت صحافية أمريكية شابة من صحيفة النيويورك تايمس، اسمها ملدريد آدمز، لوركا ـ وشغفها حبّاً ! تتذكّر آدمز بعد خمسين سنة، وتقول في كتابها "غارثيا لوركا: المسرحي والشاعر" (1977) إنّ الشاعر جلس إلى بيانو الفندق القديم، وغنّى قصيدتيه عن اعتقال الغجري

أنطونيو الكامبوري، وموته·"كان لوركا بإيماءاته وصوته، وتعابير وجهه، وجسده إنما هو القصيدة عينها" قدّم لوركا الصحافية إلى أصدقائه الأعزاء، وصحبته في أصيل يوم أحد للقاء فايا، ولاحظت أنّ الموسيقار لا يعامل لوركا كصديق عزيز، و"حواري" حسب، بل كواحد من العائلة· غادرت ملدريد غرناطة متأبطةً نسخاً من مجلة الديك· وبعد سنة حين وصل لوركا إلى نيويورك ردّت له كرم ضيافته·

حينما اندلعت الحرب في تموّز 1936، كانت مجموعة من السيّاح الأمريكان، تقيم في تل الحمراء، بينهم روبرت نيفيل محرّر النيويورك هيرالد تربيون· كان نيفيل حر الفكر، مؤيداً للجمهورية، فسجّل يوميات دقيقة تذكر كل شاردة وواردة عن تجاربه في غرناطة حتّى ساعة انتقاله بالطائرة إلى إشبيلية في 12/ 8.وفي غضون أسبوعين عاد إلى نيويورك لينشر في 30/ 8 (بعد عشرة أيام من اغتيال لوركا) وصفاً لما شاهد هناك، وكانت خبطة صحفية استحوذت على اهتمام القرّاء· كان نيفيل يقيم في بنسيون أمريكا في شارع الحمراء الملكي، فكان ينزل يومياً ليرى أبناء بلده في الفندق· وكان الجميع في حيرة من أمر الشاحنات التي تتهادى باستمرار صاعدة إلى المقبرة،ومحمّلة بالرجال المسلّحين·وفجأة فهموا السر، فكتب نيفيل في يوميّته في 29/ 7 ما يلي:

حللنا لغز أصوات الرصاص التي نسمعها كل
صباح عند الشروق، وكل مساء عند الغروب ·
واستطعنا أيضاً ربط هذه الأصوات بالشاحنات

المحمّلة بالجنود والتي تمر بفندق واشنطن إرفنغ قبل دقائق من سماع تلك الطلقات، ثم تعود لاحقاً. اليوم كان أربعة منا يلعبون البريدج في غرفة في الطابق الثاني في الفندق حين مرّت شاحنتان. على الأرض يبدو جميع الرجال في تلك الشاحنات الكبيرة من الجنود، لكننا اليوم لمحناهم من فوق، ورأينا وسط كل شاحنة مجموعة من المدنيين.

يؤدي الطريق الممتد وراء فندق واشنطن إرفنغ إلى المقبرة ليس غير. صعدت الشاحنتان بأولئك المدنيين. في غضون خمس دقائق سمعنا الطلقات. خمس دقائق أخرى وعادت الشاحنتان خاليتين.

كان أولئك الجنود من فرقة الإعدام، والمدنيون في الطريق إلى الإعدام. كان الرجال يساقون أحياءً إلى المقبرة.

في أصيل يوم 30/ 7 قام نيفيل بزيارة قصيرة للمقبرة (ولا يخبرنا كيف استطاع ذلك، لكنّه بالتأكيد عمل بطولي، إذ لم يكن يسمح للمدنيين بالاقتراب من المقبرة من دون رخصة خاصة). صباح ذلك اليوم سقطت عدّة قذائف للجمهوريين، وقال الثوّار، إنّهم سيقتلون من تلك اللحظة

خمسة سجناء مقابل كل قذيفة. وشاهد نيفيل في المقبرة فريقاً من الحفّارين "منهمكين في عملهم."

أقترح الآن تتبع خطواته في ذلك الأصيل. على بعد مئتي ياردة أعلى الهضبة، عن اليسار، تماماً أمام السطح المفتوح لمبنى الصفصافة (والذي سنعود إليه فيما بعد)، يوجد شاليه رائع هو مقصورة بولينا، تعود إلى المؤرخ المحب لانكلترا ألفونسو غامير ساندوفال، وقد هدمت منذ بضعة سنين. كان ساندوفال متزوّجاً من آستا نيكولسن ابنة الكاتبة هيلين نيكولسن، بارونة زاغليتينسكي. وكانت الكاتبة تقضي إجازتها مع ابنتها في المقصورة حينما بدأ المدّ القومي، وتصف لنا تجاربها في أثناء شهر ونصف شهر من بداية الحرب في كتابها "موت في الصباح" الذي نشر بعد عام من ذلك في لندن. تتحدّث عن القصف الجوي الذي قامت به طائرات الجمهوريين في ذلك الصباح فتقول:

> نهار الأحد الثاني من آب وقعت أول غارة في منتصف الساعة الخامسة، ثم الثانية في الثامنة والتي أفطرنا بعدها في الطابق الأسفل، ونحن بملابس النوم. أتذكّر أننا كنّا نشعر بالنكد، ذلك لأنّ أربع ساعات ونصف ساعة من النوم غير كافية في زمن الحرب، والناس في توتّر عصبي دائم. بعد الفطور صعدنا متثاقلين إلى الطابق العلوي، وقالت ابنتي، وزوجها، إنهما ذاهبان إلى

القدّاس. لم أكن كاثوليكية، فذهبت إلى غرفتي أملاً باقتناص ساعة أخرى من النوم، لكن بدا هناك، عدد غير عادي من شاحنات الجنود التي تجلجل حين تمرّ أمام بيتنا. يا للضجيج الذي تحدثه، وأصوات الأبواق كل دقيقة، والجلبة الصادرة من فناء الخدم. من الصعب النوم غير دقائق قليلة.. كنت مرتعبة أيضاً من ذكرى الليلة السابقة. نحو الثانية صباحاً أيقظني صوت شاحنة وبعض السيّارات وهي تصعد التل متجهة إلى المقبرة، بعدها بفترة قصيرة سمعت وابلاً من الطلقات، ثم عادت الشاحنة نفسها. وتعوّدت سماع هذه الأصوات ورعب ساعات الفجر، لا لأنها الوقت المناسب لقصف العدو، بل لأنّها الوقت الذي تتم فيه الإعدامات أيضاً.

في آب وقفت هيلين نيكولسن على الغيظ المتنامي للقوميين، وقمعهم في غرناطة، ويؤكد مصداقية شهادتها تعاطفها مع الجناح اليميني.

تبعد المقبرة نحو كيلومتر أعلى الطريق، وتقع خلف مجموعة من الفنادق. عن يسارها ترتفع غابة الشمس التي نرى من قمتها المستوية التي نصل إليها بالسيارة أجمل المناظر. كانت الإعدامات تتم أمام أسوار المقبرة،

يسار المدخل. كم قتل من الناس خلال سنوات الحرب الثلاث؟ واستناداً إلى أحسن التقديرات، فإنّ عدد القتلى في غرناطة، وما جاورها من القرى لا يقل عن أربعة آلاف، ويبلغ العدد في الأندلس أضعاف ذلك.

في آب 1936، دفن خمسمائة، واثنان، وسبعون شخصاً في المقبرة، وهذا ما تقوله سجلات الدفن الرسمية التي استطعت الرجوع إليها عام 1966 (وقد أتلفت فيما بعد). فلا غرابة أن ترتعب نيكولسن.

خلقت الإعدامات اليومية مشاكل جديدّة للمسؤولين عن المقبرة. كانت الجثث تلقى في مقابر جماعية. وحيثما وجدوا مكاناً فارغاً في الأرض، والنتيجة أن لا بد من توسيع المقبرة. لم يبق أثر من هذه القبور، فمعظم الجثث نبشت بعد الحرب، ونقلت إلى حيث تحفظ عظام الموتى، وهي حفرة كبيرة ذات جدران عالية تقع على الطرف الغربي من المقبرة. وحين زار برينان الموقع عام 1949، ساعده الحفارون على مشاهدة جماجم الضحايا المثقبة برصاصات الرحمة. لكني حين تسلّقت الجدار عام 1965، رأيت الجثث التي نبشت من قبورها مغطّاة بطبقات جديدة من العظام، والأكفان، والهياكل اليابسة.

ونحن في المقبرة، لا بد لنا من زيارة قبر أنخيل غانيفيت الذي يقع بجانب شجرة السرو الخامسة عن يسار الطريق الرئيس، تماماً بعد المدخل. نقل رفات الشاعر من فنلندة عام 1924، ودفن هنا بكل مظاهر الاحترام (على الرغم من انتحاره) في نهاية العام. شارك لوركا في التأبين الذي أقيم في مدريد قبل نقل الرفات إلى غرناطة بالقطار.

تماماً قبل قبر غانيفيث، وبجانب ثالث شجرة سرو من المدخل، قبر صديق لوركا الرسّام مانويل أنخلس أورتيث الذي طلب قبل موته في باريس، أن ينقل جثمانه إلى غرناطة التي كانت أول ملهمة لأعماله.

بعد مئتي ياردة تقريباً من المقبرة، وفي عودتنا نازلين التل، يمتد طريق عن اليسار هو شارع المقبرة الجديد. اقترح السير فيه قليلاً. بعد مائة، وخمسين ياردة تقريباً عن اليمين، نرى مجموعة من أشجار السرو تدل على المكان الذي بنى فيه شارل تيمبل، الانكليزي غريب الأطوار، والحاكم السابق لحكومة الوصاية النيجيرية، بيتاً غريباً في العشرينيات كصاحبه. هنا كما يذكر جيرالد برينان في كتاب " جنوبي غرناطة" كانت تقام حفلة انكليزية غريبة:

كل مساء بعد تناول الشاي، وحين تستعد الشمس للغروب، تقود السيدة تيمبل ضيوفها إلى الشرفة، وإذا كان الجو بارداً فإلى شباكٍ عريض يواجه الجنوب، وتقول بصوتها البطيء المعبّر الدقيق: "لا أعتقد أنّ الانتظار يطول." فننظر، وننظر، وتتحوّل القمم الملساء المتموّجة التي تبدو حتى تلك اللحظة بعيدة، وسماوية إلى اللون الوردي الفاتح، وكأنّ حزمة من عارضة الألوان قد وجّهت إليها. ثم تقول: " هناك، الآن." يرين الصمت فجأة، ونجلس ساكنين نراقب الوهج الوردي يزداد، ثم يختفي. وحالما يختفي تماماً نبدأ الحديث بإحساس من الغبطة التي يشعر بها المصلون حين خروجهم من الكنيسة ومن دون إشارة إلى ما رأوا قبل الخروج.

لا أعرف إن كان لوركا حضر تلك الطقوس التي تقيمها السيدة تيمبل في المساء، على الرغم من أننا قد نجزم بأنّه عرف بها ما دام بريناان قد التقى في بيت تيمبل ذات مساء معلّم الشاعر فرناندو دي لوس ريوس، وكان مسروراً بذلك الاحتفال الانكليزي كما يسمونه· من يجرؤ غير الانكليز على بناء بيت أعلى التل طمعاً بأحسن منظر للغروب على الذرى المغطاة بالثلج؟

واليوم لا أحد في غرناطة يذكر عائلة تيمبل، ولم يعد البيت قائماً· ومنذ بضعة سنين كان مقرّراً لهذه المنطقة برمّتها أن تتطوّر وتصبح ضيعة فيها قصور للأغنياء، لكن البرلمان الإقليمي للأندلس قضى على الخطّة، ووجّه توبيخاً إلى بلدية غرناطة، خاصة محافظ المدينة أنطونيو جارا· ويمكنك معاينة المدى الذي وصلت إليه الأرض قبل أن يسري قرار المنع·

وإذا وفّر لديك الوقت في أثناء بقائك في غرناطة، أقترح أن تطّلع بنفسك على ما تبقّى من شارع المقبرة الجديد· يمضي الشارع متعرّجاً بين ما يسمونه بأخدود المحامي الواقع بين أشجار الأغاف الكبيرة الشائكة (صفّارات قصائد لوركا)، ويسير عبر مناظر رائعة لجبال الثلج، ووادي شينيل، ثم يدور حول التل ليلتقي الشارع المنحدر تماماً تحت كرمة فايا·

نعود الآن من حيث جئنا ونهبط التل متجهين إلى قصر الحمراء·أقترح أن نعرج على مطعم الصفصافة الذي ورد ذكره قبل قليل، وهو من أجمل الأماكن في غرناطة، بل وفي إسبانية كلها· مكان مثالي لتناول الغداء حين يسمح الجو بذلك· الطعام جيّد، وصاحب المطعم فيلكس، والسعاة جذّابون ظرفاء· كل ما يحيط بنا من شدو العنادل، وطيور أبي قلنسوة،

وضوء الشمس المرقّش شيء من الأحلام· حسن· أما بالنسبة إلى ذكريات لوركا عن المكان، فالصفصافة شجرة يحبّها الشاعر، وهذا مبرّر آخر لمحبي لوركا للجلوس، وتناول الغداء، أو الشراب·

يقع الصفصافة على قمّة أجمل تل صغير في غرناطة ـ وهو تل لا يعرفه الكثيرون، ويسمّى تل الأموات، وذلك لأنّ الميّت ينقل إليه في الطريق إلى المقبرة· واليوم، فالتل معروف لدى الغالبية بتل الفخار، في حين يكتب في بعض الخرائط تل الملك الصغير· ويؤكّد لي الأصدقاء في الصفصافة أن لا علاقة للاسم بالفخّار الصيني· والحقيقة، أنّه تلميح إلى الحصى الموجود بكثرة على المنحدر، والذي يصبح لعنة على من يكسب عيشة بحمل التوابيت على السفح·

بعد الشراب المنعش، لنمض في الطريق النازل من التل، والذي وسِّع ونُظّف مؤخراً فلم يعد حالماً كما كان في السابق· فوقنا قنطرة ضيّقة تقود إلى برج المياه عن اليسار، وسمي كذلك لغزارة المياه هنا (يوجد سيل ذفر ينزل من أعلى التل، لكنه الآن تحت الأرض)· بعد القنطرة نعبر جسراً، سبق أن عبرناه في طريقنا من الحمراء إلى جنّة العريف في جولتنا الثالثة· عن اليسار، تكاد تلامس الطريق، جدران الحمراء، والأبراج التي رأيناها من حدائق فندق القديس فرانشسكو· يتولّد لدينا إحساس بأننا ننفذ إلى لوحة رسمها لغرناطة في القرن التاسع عشر، دافيد روبرتس، أو غوستاف دوريه· بعد مرورنا بالبرج الأخير ندور حول زاويةٍ، فنرى صورة نادرة للبيازين· لاحظ

الجرف الواطيء عن اليمين المملوء بأشجار الصفصاف التي تعطي المنحدر أحسن اسم.

عاش أسفل التل، فنان أصبح صديقاً طيّباً للوركا هو الألماني سيجفريد برومان والذي "اكتشفه" في غرناطة غريغوريو مارتنيث سييرا الذي أخذ لوركا برعايته عام 1919، كما ذكرنا من قبل. وقد أوكل مارتنيث سييرا لبرومان تصميم المشاهد لمسرحه التجريبي في مدريد (مسرح السلافي)، فكان لوركا غالباً ما يراه هناك.

ينزل بنا تلّ الفخار إلى الضفة اليسرى لدارو حيث ينفتح على ساحة الحُب الصغير وتعرف بساحة الملك الصغير أيضاً.

وإذا كنت تشعر بالحيوية والنشاط فعليك حقاً الصعود باتجاه السيل، والسير بمحاذاةالنهر حتى نافورة شجرة البندق، حيث كان فريق من الأدباء المشّائين برئاسة أنخيل غانيفيث يحبون الحديث، وهم مستلقون. في تلك الأيام كانت النافورة مشهورة بمياهها التي تنقلها الحمير إلى أطراف المدينة، وهي لا تبعد غير سبعمائة ياردة.

من الطريق يبدو حيّ الغجر القديم في الجبل المقدّس رائعاً عبر النهر: لاحظ تلك الكهوف الفارغة، وتلك المجاميع من الأغاف، وبقايا السور العربي الذي يصعد حتّى كنيسة القديس ميكائيل. ولاحظ عن اليمين، كنيسة دير الجبل المقدّس، والدور الكثيرة حولها. تبدو ضفتا الدارو مخضرتين على البعد، ولا يدهشنا أن بنى المسلمون هنا دورهم الصيفية،

وزرعوا الحدائق، والخمائل الجميلة. والبقعة المنعزلة تستحق اسم فالباراثو، وادي الجنّة.

يطل المنظر من الأرض المستوية أمام النافورة التي جدّدت حديثاً على غرناطة من الخلف، وهو منظر رائع خصوصاً في الغروب.

قد تود أن تعرف بأنّ القناة التي تحمل مياه دارو تجري فوق الشارع لكنّها غير منظورة منه، تحمل المياه بعيداً حتّى الوادي لتستقي آبار، وبرك الحمراء، وجنّة العريف.

نعود لنعبر قنطرة الجُب الصغير (وتسمّى أيضاً قنطرة الملك الصغير)(*)، وهي واحدة من ثلاث عشرة قنطرة، كانت موجودة على الدارو، لم يبق منها غير أربع. ندخل متنزه الحزانى، وسمي كذلك لأنّ المعزّين يتجمعون هنا قبل صعودهم تل الفخار. قال لوركا: "لغرناطة متنزهان للغناء، هما الصالون، والحمراء، وواحد للبكاء هو متنزه الحزانى، مركز الرومانتيكية الأوروبية." لا ريب من أنّه فكّر بالعديد من الرسوم المحفورة لهذا المكان من القرن السادس عشر، وتبدو أعلى كل رسم مشاهد لقصر الحمراء،وهكذا سحر بجماله الزوّار من الفنانين.

---

* وهي أيضاً قنطرة ابن رشيق، أما الثلاث الأخريات فهي قنطرة القاضي، وقنطرة القزازين، وقنطرة الدباغين (المترجم).

تغيّر اسم متنزه الحزانى إلى متنزه الأب منخون، تكريماً للقس أندرياس منخون الذي كرّس حياته لتعليم الغجر في الجبل المقدّس، فأنشأ أول مدرسة فيه. ويوجد تمثال نصفي صغير لمنخون أعلى المتنزه.

ومتنزه الحزانى أحد الأماكن الساحرة في غرناطة، حيث يمكنك الجلوس بهدوء لتشرب كأساً، و تشاهد المناظر حولك. وفي أماسي الصيف، يزدحم المكان بالزوّار، وحين يرتفع القمر أعلى القصور العربية يصبح المشهد منوماً، فيسكت أبناء المدينة، ويسكت السيّاح. لا مشهد يضاهيه في إسبانية إلاّ مشهد ضوء القمر، يتراقص على أفنية الحمراء، وبركها.

في نهاية المتنزه، نرى الجسر الثاني على دارو، جسر الناي. وكان قبل الحرب يؤدي إلى ساحة جميلة زالت من الوجود. كان لوركا غالباً ما يأتي هنا، ولا شك، في أنّه متّع ناظريه بمشاهد دارو الساحرة. كتب في رسالة إلى صديقه الدبلوماسي الشيلي كارلوس مودلا لنش، يقول: "أحياناً تجتاحني نوبات شديدة من الحنان أداويها بنبيذ غرناطة في حديقة الناي العربية حين أتذكرك، وأنا وسط الآس العبق".

وتعطيني هذه الكلمات، العذر لذكر موضوع أثير على قلبي، فقد لا يتبيّن الزائر لغرناطة، أنّ الأندلس تنتج النبيذ، وهذه حقيقة على الرغم من أنّ المنتوج غير كبير. واليوم لا توجد أعناب مناسبة في الغوطة لإنتاج النبيذ، لكن العنب ينمو متفرّقاً في ناحية البستان على طرف الغوطة، وعلى هذا الجانب أيضاً من جبال الثلج عند صنوبر شينيل. لكن معظم الكروم ينمو في البشرات جنوبي الجبال، وعلى المنحدرات العالية لجبل كونترا فيسا، حيث

يكوّن ما يطلقون عليه في غرناطة بساحل النبيذ، ومركزه مدينة البونول، حيث كان لأحد أصدقاء لوركا، وعضو جماعة الزوية، رامون بيريث رودا، بيتٌ يحسده عليه الشاعر لقربه من البحر. وريتشارد فورد العاشق لكل جميل وجد نبيذ البونول "ممتازاً".

كل هذه الخمور عنبرية اللون، قويّة، وغير مناسبة للطعام. لكن كأساً صغيرة تفتح الشهيّة. اطلب في حانات غرناطة القديمة شراب الوين كوستا (وليس الونا كوستا، وتعني الساحل). لا تضيّع الوقت في طلب النبيذ في الأماكن الحديثة التي تمتلىء بها المدينة ـ فهو غير موجود بالتأكيد. وفي زيارتنا البيازين نصحت لك بمحلين لا يخلوان منه (وفي الجولة الأولى قلت إنّه موجود في دار إنريك في الباب الملكي.

***

نعود إلى مركز المدينة عبر شارع سباق دارو، أكثر الشوارع في غرناطة حظوة بالتصوير، والذي سنتفقده عن قرب في الجولة القادمة.

الجولة الخامسة: تل البيازين

الزمن: نحو ساعتين مشياً

تبدأ هذه الرحلة القصيرة، متعبة وشاقّة، من الساحة الجديدة بمنظرها الشهير لبرج السهر، والتي أحرق فيها الكاردينال خيمنيث دي شنيروس، كاهن اعتراف الملكة إيزابيلا، ثمانين ألف مخطوط تعود إلى المدرسة الإسلامية في غرناطة (بدعوى أنها قرائين ليس غير). وتطل على الساحة، الواجهة الجميلة لدار القضاء التي بنيت في القرن السادس عشر، والتي تتقدّم السجن الذي هرب منه عاشق ماريانا بنيدا، الدَعيّ المتآمر من جماعة الأحرار، فرناندو وألفاريث دي سوتومايور متخفيّاً بزي راهب كبوشي.

عاشت في الطابق الثاني من البيت الواقع عند زاوية شارع البيرة (عن يسارنا على طرف الساحة حين نواجه دار القضاء) إميليا إليانوس، الفتاة التي أحبّها لوركا في شبابه. هنا وفي 16 (أو 17) آب 1936، زارتها أم لوركا، وتوسّلت إليها أن تطلب من فايا التوسّط لمصلحة ولدها. أسرعت إميليا في صعود تل بني عمارة المقابل للبيت، فأكّد لها بعض الأصدقاء بأنّ لوركا قد أعدم، ونصحوها بعدم الذهاب إلى فايا. توقفت معتقدة أنّ الشاعر قد مات

بالفعل (وظهر لها فيما بعد أنّه كان حيّاً)، وظلّت طوال حياتها نادمة لأنّها لم تحقق غرضها.

على الجانب الشرقي من الساحة، كنيسة القديسة آن، صمّم مدخلها الذي لم يرمّم بطريقة جيدة دييغو دي سيلوي مهندس الكاتدرائية. في داخل الكنيسة سقف خشبي رائع، أما البقية فسقيمة الترميم . كان لوركا يحب البرج العربي الجميل بروحه وتأثيره، وقد وصفه في الكلمة التي أثنى فيها على سوتو دي روخاس، قائلاً إنّه "برج بالغ الصغر، أكثر ملاءمة للحمام منه إلى الأجراس، صنع بكل سحر الأيام الخوالي لغرناطة."

حين ننظر من سور الكنيسة، لا نرى أثراً لدارو لأنّه يبدأ طريقه المخفي تحت المدينة. كتب الشاب لوركا في أول مقالة نشرها بعنوان "خيال رمزي" يقول: "ينحب النهر حامل الذهب حين يضيع في النفق السخيف."

كان شارع سباق دارو الضيّق الذي يبدأ هنا، أحبَّ شوارع غرناطة لدى الفنانين الرومانسيين الذين دهشوا لمنظر تل الحمراء أعلى الشارع، ويعطينا فكرة عمّا يجب أن يكون عليه شارع الملكين الكاثوليكيين لو لم يسقف النهر.

في أثناء سيرنا في الشارع (وننتبه لحركة المرور)، يصادفنا أول جسر على النهر، جسر راعية الـمَعْز. بعده وعلى بعد ستين ياردة جسر إسبينوزا. وخلف هذا الجسر تماماً بقايا قنطرة أكبر منه، هي قنطرة القاضي وكانت تربط تل الحمراء بالبيازين. وقد لا تسنح لك رؤية رمز على عظمة الماضي

المجيد أحسن من هذه القنطرة، وستجدها واضحة في لوحات القرن التاسع عشر.

تأكّد من زيارة الحمّامات العربية الجميلة التي تعود إلى القرن الحادي عشر، ويقع أحدها وهو حمام البانيولو بعد جسر إسبينوزا مباشرة، في البناية رقم 31. وحين استولى النصارى على المدينة، كان أول ما فعلوه، إغلاق العديد من الحمّامات العامة بدعوى أنّها أماكن فسق وانحلال ولم يبق منها اليوم غير حمام البانيولو.

ثمّة بيت عربي من القرن الرابع عشر، يقع في شارع الثغرا، ثاني شارع بعد البانيولو، وقد حُوّل الآن إلى متحف منزل آل ثغرا، وكان في البيت فناء جميل، ونافورة. إذا رأيت الباب مفتوحاً، فادخل، وانظر فيه.

نمضي في شارع دارو، ونأتي إلى دير القديسة كتالينا الثغراوية الذي بني في القرن السادس عشر، وراهباته مشهورات بصناعة المربّى التقليدي. ويشير لوركا لهن في محاضرته عن أغاني المهد الإسبانية، ويقترح على السائح قبل زيارة الحمراء، أن يتذوّق أولاً شيئاً من هذه المربيات اللذيذة، عربية الأصل، والتي يعطي مذاقها ورائحتها "نكهة أصيلة للقصر حينما كان عامراً بأهله." والغرنوطيون مولعون بالحلوى، ولوركا واحد منهم، ففي محاضرته "كيف لمدينةٍ الغناء من تشرين الثاني إلى تشرين الثاني" يعود إلى حلوى غرناطة ويؤكّد بأنّها تقول الكثير عن المسلمين كالذي يقوله طابوق الحمراء المعقود، أو الطاق كحدوة الحصان (والحق أنّ هذا ذو أصل قوطي غربي). ولو نظرت من باب الدير سترى مائدة خشبية دوّارة، وقد تقرع

الجرس، وتسأل لترى هل تبيع الراهبات أيّاً من الأطعمة الشهيّة التي ذكرها الشاعر كالفاخور، أو أقراص كعك ألاخو.

ويشير لوركا في الأبيات التالية من قصيدة "الراهبة الغجرية" التي تجري أحداثها في دير في البيازين إلى فن صناعة المربّى:

خمسُ ليموناتٍ تحلو
في المطبخ المجاور.
جراحُ المسيحِ الخمسة
تُقطعُ في المرّية.

على الجانب الآخر من الشارع تطلّ كنيسة القديس بيدرو على النهر، ويلوح في الأعالي برج قمارش من قصر الحمراء. مقابل الكنيسة، وعن الجانب الأيسر من الشارع، ينتصب قصر كاستريل الذي بُني في القرن السادس عشر، وقد نُظّف صحنُه الجميل حديثاً. يشغل القصرَ الآن، متحفُ الآثار الذي يستحق الزيارة. وسيهتم محبو لوركا خاصة بالتمثال البرونزي شديد الصغر للآلهة منيرفا الذي وجد في ديموث بالغوطة، وهي ضيعة كانت لوالد لوركا (انظر الجولة التاسعة.

يضم المتحف قطعاً عديدة من المنحوتات، والمنقوشات التي تعود إلى زمن الرومان. وكانت غرناطة تسمّى في زمنهم "مونيسيبيوم فلورنتينيوم إلبيريتانوم"، وتضم مدينة إلبيري الأبيرية، ومركزها حي البيازين. ولم تجر كشوف أثرية شاملة بسبب كثافة السكّان في الحي. مع ذلك لا يمر عام إلاّ

وترى النور مجموعة جديدة من القطع الأثرية، ويوماً بعد يوم، يرسم علماء الآثار خريطة لما كان في السابق بلديةً رومانية مهمة.

بجانب المتحف، قصر كان يعود إلى عائلة بيريث هيراشتي القويّة، والتي يرد ذكرها في مسرحية الدونيا روسيتا.

قبل أن نصعد في البيازين، لنا كلمة عن الاسم. ويتفق معظم المؤرّخين أنّه مشتق من مدينة البيزة شمالي الأندلس، والتي هرب أهلها إلى غرناطة قبل وصول طلائع المحاربين النصارى، وسكنوا هذا السفح. وتعني الكلمة بالعربية، والعهدة على المؤرّخين أنفسهم، الحيّ الذي يسكنه من جاء من البيزة، تماماً كما يسمّى الحيّ الذي سكنه فايا قرب الحمراء أنتكويريلا نسبة إلى مدينة أنتكويرة.

ويرفض البعض هذا التعليل، ويقول بأنّ الاسم، مشتق من البازدار العربية كناية عن مربي البزاة، ومدرّبها. وكان هذا مقنعاً للوري ليّ الذي قال في كتابه "وردة للشتاء":

> كان هذا المكان المرتفع في زمن العرب خاصاً بمربي البزاة، وكانوا يضعون بزاتهم المغماة في أقفاص من الحديد، ويدرّبونها على صخور السفح. ويمكن للناظر اليوم، أن يلقي نظرة من هذه المنحدرات الوعرة، فيرى المدينة بعين البزاة، أو يرسل نظرة خاطفة إلى الجبل عبر المدى الشاسع. وما زالت بيوت البازدارين

قائمة إلى اليوم، بيضاء واطئة، بنوافذها الموصدة المواجهة لممر دارو.

كلام جميل مثل كل ما كتبه لوري ليّ... لكنّه يبدو أقرب إلى الخيال منه إلى التحقيق المدروس.

في عيد الميلاد من عام 1568، انتفض العرب الموريسكيون الذين أجبروا على التنصّر في البيازين على القرار الذي أصدره فيليب الثاني، والذي يمنعهم من التخاطب بالعربية، وارتداء الملابس التقليدية. وسرعان ما أخمد النصارى الانتفاضة بوحشية. وبعد أربعة قرون تقريباً أصبح البيازين من جديد مسرحاً للقمع حينما تحصّن العمّال العزّل في 20/ 7/ 1936، في حيّهم المرتفع استعداداً للثورة ضد الفاشيين. قاوموا أربعة أيام، قبل أن تسحقهم مدفعية الثوّار التي كانت تقصف من الحمراء، ومن الشارع الرئيس أعلى الحيّ.

نستطيع الآن الصعود في الهضبة. نعبر بعد متحف الآثار مباشرة شارع المجد، ونصل بعد أن نسير بمحاذاة سور دير القدّيس برناردو، مقابل كنيسة القدّيس بيدرو، إلى التل المقدّس، وهو نقطة الانطلاق.

يكون المسير سهلاً من المائة ياردة الأولى، ثم تتقاصر الخطى. وقبل أن نستنشق نفساً عميقاً، ننظر خلفنا،فنجد الحمراء الرائعة، وقد تبدّت للعيان.

ربما هي فرصتنا المواتية لنتذكّر صورة لوركا لحي البيازين، فعدّة صفحات من كتاب الانطباعات تستحضر صور الأزقّة الضيّقة، والرؤية الواضحة لهذا "الحي الفريد المثير للذكريات" بكلمات مباشرة ممزوجة

بذكريات الرومانسيين، والمحدثين· أساطير، وخرافات، وهجر، ونسيان، وجدران الكرمات البيض، وكلمات الدفن على أشجار السرو، والآبار العجيبة· وفوق ذلك كلّه غياب الناس الذين صنعوا الحيّ كما هو اليوم: العرب المسلمون·هنا يحسّ الشاعر بألم شديد لامتناه، بلعنة شرقية حلّت بهذه الطرقات· يدّعي الشاعر الشاب بأنّه يرى في نظرات البيازيين غموضاً يوحي بأنّهم يحلمون بماضيهم الإسلامي·ولا بد من أنّه عرف شيئاً عن ثورة الموريسكيين التي أخمدت بعنف عام 1568· والبيازي بالنسبة إليه رمز على محق ثقافة معيّنة، وأسلوب خاص في الحياة·

أعلى درجات صاعدة، ندخل شارع القديس خوان، وننعطف يميناً· شقّ هذا الشارع المهم في الحي على قمّة طريق روماني رئيس·

ننعطف بعد صعودنا عشر ياردات عن اليسار، فنصل إلى شارع خيمنيث، ونواصل الصعود·تقودنا الدرجات في نهاية شارع ضيّق مرصوف بالحصى إلى شارع كاريلو·نواصل سيرنا بمحاذاة اليمين (احذر السير في الطريق النازل عن اليسار)·نسير خطوات قليلة في شارع خوينبا، فنصل إلى شارع الجب عن اليمين، وتوجد لافتة واضحة عليه· سترى بجانب الحاجز الحديدي عن اليمين الجب، أو البئر التي سمي الشارع باسمها·

بعد نحو ثلاثمئة خطوة إلى الأمام، نجد عن اليسار كرمة ألونسو كانو التي يقع مدخلها خلف باب عريض للسيارات· كانت هذه المقصورة الجميلة قبل الحرب، تعود إلى صديق لوركا الحميم فرناندو فلشيت الذي أهدى له الشاعر بكلمات ملؤها العطف قسماً من كتابه الأول "انطباعات

ومناظر" قد تطرق الباب لترى إن كان صاحب الدار يأذن لك بإلقاءنظرة عليها.

ترك لنا جون تريند في كتابه "صورة إسبانية الحديثة"، والذي سبق أن اقتبست منه، وصفاً لأمسية خالدة قضاها هنا عام 1919. أقيمت حفلة موسيقية في مركز الفنون على شرف فايا، أحياها أنخيل باريوس، وصديقه تريو إيبيريا. بعدها أقام فرناندو فلشيث مأدبة في حديقة كرمته قدّم فيها الموسيقيان شيئاً مما عزفاه في الحفل السابق. يقول تريند:

> قبل أن نغادر الكرمة، طلب مضيفنا، أن نتبعه إلى الطابق العلوي حيث توجد شرفة أخرى تحت السقف. هناك تحت قمم أشجار السرو رأينا بانوراما واسعة لسفوح جبال الثلج المقوسة من الخلف، وظلال تل الحمراء ومحالّه، والألوان البنفسجية للجدران البيض، وقد غمرها ضوء القمر، واللطخات الوردية للمصابيح التي لم تكن مألوفة بالنسبة إلينا،وقرع الأجراس البعيدة التي تنظّم عملية السقي، والخرير الناعم للشلالات. صحنا نطلب موسيقى فايا. عندها، وبعد أن تعب العازفان، ألقى شاعر بصوت مؤثّر نشيداً لغرناطة. علا صوته صورةً بعد صورة، وعمّ بيانه المدهش حتّى شمل سكون

الحاضرين. وأنهى قصيدته بالقول: ماذا يهم لو
ذهبت أيام الحمراء المجيدة، وها نحن نحيي من
جديد ليالي كهذه الليلة، ليلةً من ألف ليلة وليلة!

ويوضّح ترينـد في طبعة لاحقة من كتابه، أنّ الشاعر لم يكن غير فدريكو غارثيا لوركا.

حينما عاد لوركا إلى غرناطة في صباح 14/ 7/ 1936، كان يحمل مخطوط بيت برناردا ألبا الذي قرأه في الأسابيع التي مضت على العديد من الأصدقاء. وبعد أيام قليلة من وصوله، صعد إلى هذا البيت ليقرأ المخطوط على فرناندو فلشيث، وبعض الأصدقاء. وفي أيام قليلة، أضحت غرناطة مثل "البيت" الذي تحكمه المستبدة برناردا، ولم يبق للشاعر غير شهر واحد يحياه. ولنا أن ننظر إلى المسرحية كنبؤة.

آمُل أن تجد منفذاً إلى هذا البيت الساحر. وحين نعود في الشارع الذي مشيناه من قبل ننعطف مباشرة عن اليسار بعد البئر، فنجد مجازاً عالياً لا يحمل أيّة علامة دالّة، يعود بنا إلى شرفة كومينو. هنا، وحين ننظر من فوق بئر كرمة القصبة، نرى عن اليمين، المنظر الرائع عينه. نستمر في الصعود، وسرعان ما نرى عن اليمين كرمة إبن حُميّا، وهي دار مرممة لموريسكيٍّ من القرن الخامس عشر. وحينما كنت أعدّ لهذا الكتاب، رأيتهم ذات مساء يقدّمون الشراب في حديقة الدار. إذا وجدت الباب مفتوحاً للجمهور، فألق نظرة لترى روعة الحمراء.

نمضي صعداً في التل، ونصل إلى درجات ترقى بنا إلى درب الطوماسيين. إلى الأمام مباشرة عن اليسار دير القدّيس طوماس المعروف شعبياً بالطوماسين. وحين حفروا لهياكل الدير في منتصف القرن التاسع عشر، عثروا على آبار رومانية. كان لوركا، وأهله يحبون المجيء إلى كنيسة الدير في أعياد رأس السنة، وحضور قدّاس منتصف الليل (ويسمونه بالإسبانية قدّاس الديك)، وثمّة إشارات عديدة إلى هذا التقليد في رسائل لوركا.

نعود مـن الدير، ونسير في امتداد درب الطوماسيين، ونرى في البيت رقم 2 عن اليسار، أجمل كرمات غرناطة، ألبا،ويملكها الأديب خوسيه فرناندیث كاسترو. مرّة أخرى يمكنك طرق الباب لتلقي نظرة على الدار، ذلك أنّها بحسب علمي أشبه بالدار التي قضت فيها الدونيا روسيتا العانس أيّامها الأخيرة منتظرة بيأس سماع خبر من الحبيب الخائن البعيد.

هنا بضعة بيوت نرى منها مناظر رائعة كتلك المناظر التي رأيناها من بيوت البيازين. وفي مثل هذه الخميلة يغمرنا شعور بالاسترخاء والتأمّل. ولا يدهشنا أنّ الرسامين في حي البيازين يجدون صعوبة في الوقوف إلى مساند لوحاتهم. كيف نضاهي بين منظر الحمراء، وخلفية جبال الثلج المتغيّرة على الدوام؟ كيف نلتقط الضوء، ونقدّر المسافة؟ إرسم أي شيء إلاّ المشهد المهيب السامي. ويقال إنّ الفنانين يفقدون عقولهم لفشلهم في البيازين.

ومـن الذيـن نجحـوا في غايتهـم، الرسّـام الانكليزي جورج إبيرلي (1884 – 1960)، من مدينة فينتنور في جزيرة ويت. أحبّ إبيرلي غرناطة وغجرها (تزوّج غجرية)، وعاش في البيازين عدّة سنين قبل وصول مانويل دي فايا إلى غرناطة عام 1919. كان طويلاً نحيلاً صغير الرأس، مطابقاً للصورة التي يعرفها الإسبان عن الانكليز، وهو كشارل تيمبل الذي ورد ذكره في الجولة الرابعة. وكما بنى تيمبل البيت أعلى تل الحمراء، كان إبيرلي واثقاً من بناء أجمل بيت في تل البيازين.

بعد أن نغادر كرمة فرناندیث كاسترو، وحين نميل يميناً، ثم ننعطف مباشرة إلى اليسار، ونصعد عدّة درجات نكون قد عبرنا كرمة إبيرلي. الآن تصبح خميلة هذا الرجل الانكليزي على اليسار، ونرى لوحة على المدخل مكتوب عليها " كرمة إبيرلي" تقودنا الدرجات إلى هدفنا المنشود، إلى شرفة القديس نقولا، والتي نرى فيها منظراً فريداً لا للحمراء حسب، بل لجبال الثلج، وكل غرناطة. توجد أربع مصاطب حجرية نحتاجها للاستراحة، والتمتع بجمال المنظر.

نعود نازلين المنحدرات، فنجتاز كرمة إبيرلي لنلحق من جديد بدرب الطوماسيين. ننعطف يميناً نحو طريق القدّيس نقولا الجديد، وبعد نحو مائتي ياردة نصل إلى مدخل دير القديسة إيزابيل الملكة عن اليسار.

يميل المؤلّف الشاب لكتاب الانطباعات إلى مطالعة الأديرة رموز اً للكبت الجنسي. ويشير بوضوح إلى دير القديسة إيزابيل الذي لا شك، قد زاره، وهو طالب في الجامعة. بني الدير في القرن السادس عشر على أرض،

كان يشغلها في السابق، قصر يعود لأحد ملوك غرناطة المسلمين. وبما أنّ الدير يخضع لنظام مغلق، فلم يزره غير القليل من الغرناطيين. ويعدّ برج الكنيسة الذي كان منارةً، أحد المناظر الساحرة في البيازين، وثمّة فناء قد يكون مصدر قصيدة مبكّرة للوركا بعنوان "فناء رطب" منشورة في كتاب القصائد. ويبدو لي أيضاً، أنّ قصيدة الراهبة الغجرية تجري أحداثها في دير بيازي، وتدين بشيء إلى دير القديسة إيزابيل الملكة.

بعد خمسين ياردة أسفل الشارع نرى واحدة من أجمل الساحات في غرناطة، ساحة القديس ميكائيل باخو. والكنيسة المبنية فوق مسجد تضم قبريّ فنانين غرناطيين معروفين في القرن السابع عشر، هما النحّات دييغو دي مورا، والرسام بيدرو أتاناسيو بوكانيغرا. عن يسار المدخل الرئيس، بئر من القرن الثالث عشر، كان المسلمون يتوضأون بمياهها قبل دخولهم الجامع.

توجد عدّة دور ممتازة على امتداد الساحة، حيث يمكنك الاستراحة، وتناول المرطبات. وعادة ما تقدّم حانة لارا نبيذ الكوستا، إذ ا ما رغبت فيه (انظر نهاية الجولة السابقة). وفي أماسي الصيف، تمتلىء الساحات بالناس، وتكون هذه الساحة أكثرها حيوية في غرناطة.

ثمّة صليب عال في طرف ساحة القديس باخو. نضع الصليب عن يسارنا، ونغادر الساحة، ثم نتقدّم إلى شرفة صليب كويروس التي تقع أمامنا مباشرة. من هنا نرى منظراً جميلاً لغرناطة في الغروب.

نسير من الشرفة نازلين المنحدر بحيث يكون شارع صليب الكويروس عن يسارنا. فجأة يلوح منظر نادر للكاتدرائية. ننعطف يميناً، ونهبط بعض دركات حتى نصل إلى تل الغابة بعد أن ندور مباشرة عن اليسار،وهذا يقودنا إلى شارع أوسع من سابقه وهو شارع كالديريريا الجديد. ننعطف يميناً. أصبح الشارع منذ زمن قريب شارعاً شعبياً، وفيه مجموعة من الأسواق، والمحال، البعض منها كغرفة الشاي الغريبة التي تديرها أسرة مسلمة تؤهّل الناس للسكن في البيازين من جديد.

يقودنا شارع الكالديريريا الجديدة إلى شارع البيرة. ننعطف شمالاً، وبعد ثوان نكون قد عدنا إلى الساحة الجديدة.

الجولة السادسة: بستان القديس بيثنتي، بيت روزاليس والسجن

الزمن: نحو ثلاث ساعات مشياً

نمضي من الباب الملكي في شارع ريكوخداس لنزور بستان القديس بيثنتي، بيت عائلة لوركا الصيفي. الشارع الثاني عن اليمين، وهو شارع البركة حيث نزل الشارع تيوفيل غوتيه. وضعت جماعة الزوية شاهدة على واجهة أحد البيوت في ذكرى هذا الرجل العظيم، لكنّها اختفت حين هدم البيت، فوضعوا حديثاً شاهدةً أخرى مماثلة على المنزل رقم 9.

الشارع التالي، هو شارع جسر الزويلة حيث عاش في المنزل رقم 9 عن اليسار، صديق لوركا العظيم فرانشسكو سوريانو لابريثا الذي عرفناه من قبل. هدم البيت الذي ضمّ مكتبة سوريانو الرائعة ـ وكانت في متناول جماعة الزوية، والمنزل شبيه بالبيت رقم 7 الذي كان قائماً حينما كنت أعمل في كتابي هذا، لكنّي لا أتصوّر وجود فرصة كبيرة لإرجاء حكم الإعدام الصادر بحقّه.

على الجانب الآخر من شارع ريكوخداس، بجوار دير القديس أنطون، وفي المكان الذي يشغله الآن فندق البرازيل، كان يوجد مقام القديسة ماريا

القبطية، والمعروف شعبياً بالريكوخداس، وقد هدم عام 1958· بني المقام في القرن السادس عشر ملجأً، وإصلاحيةً للبغايا اللاتي "تؤويهن" الراهبات (من ثمّ سمّي بالريكوخداس، من التقط، لقيط·

هنا شُدّ على ماريانا بنيدا القفل والمفتاح قبل إرسالها إلى السجن حيث أعدمت· واليوم لم يبقَ أثر من الملجأ حيث وضع لوركا المشهد الأخير المثير من مسرحيته· أما بيت ماريانا، فما زال قائماً، ولكي نراه لا بد من حثّ الخطى في شارع ريكوخداس، ثم ننعطف إلى الشارع التالي، فيرونيكا المجدلية· نعبر شارع الملاك، وسرعان ما نصل إلى شارع النسر، حيث عاشت ماريانا في المنزل رقم 19، على الزاوية اليمنى للشارع· كان بيتاً عريقاً، أما الآن، فمهمل تماماً· توجد شاهدة وضعتها البلدية عام 1870، تقول: "هذا آخر بيتٍ سكنته البطلة الدونيا ماريانا بنيدا·"

نعود إلى شارع ريكوخداس، وفيه بعض البيوت الجميلة كالبيت رقم 20 على زاوية فيرونيكا المجدلية· نستمر في السير على الرصيف الأيمن حتى نصل إلى الشارع الثاني، سولاريلو غارثيا· كانت هنا على الناصية، مدرسة كالديرون التي أنشأها في نهاية القرن التاسع عشر المحسن المثري كارلوس كاليديرون لتعليم البنات الفقيرات (وذكرنا في الجولة الرابعة، أنّ كاليدرون، هو صاحب كرمة الشهداء)· وكانت بيثنته لوركا روميرو، أم لوركا، واحدة من تلك البنات المعدمات، وجعلتها السنوات التي قضتها هنا تنقلب على حياة الأديرة، والراهبات، وتكرهها إلى الأبد·وحينما أصبحت المدرسة لا تقتصر على الطالبات المعوزات، صارت ابنتها كونشا

إحدى طالباتها· والبعض من تجارب الأم، والإبنة في المدرسة يعكسها لوركا في مسرحيته الأخيرة الناقصة "أحلام خالتي أوريليا"·

واليوم لم يبق شيء من مدرسة كالديرون·

على الجانب الثاني من شارع سولاريلو غارثيا، قصر منيف مهدوم الأركان يسمونه قصر البطّتين· والبطتان رسم لإوزّتين تزينان النافورة في مقدّمة القصر· ومنذ وقت قريب كانت غرناطة تنتهي هنا لتندمج بحقول الغوطة، وبساتينها· لكن الحال تغيّرت تماماً·

نسير في شارع السولاريلو، وكان في السابق شارعاً جميلاً، فقد اليوم سحره· وحينما زار شاعر القرن السابع عشر القرطبي العظيم لويس دي غونغورا غرناطة، سكن مكاناً ما في هذا الشارع، وهي حقيقة لا بد من أنّ لوركا عرفها· سرعان ما نصل إلى شرفة غارثيا التي تقع على الجانب الآخر من الشارع الذي يوجد فيه خلف الأشجار دير القديس سيثليو للاهوت، وكان في السابق دير السنيورة غارثيا·

وفي أيام الشاعر كانت شرفة غارثيا مهمة لمن يعيش في البساتين، والحقول الواقعة على طرف الغوطة، فكانت تجمع بين المركزالاجتماعي، والمحطّة الأولى حيث يضع الناس رحالهم في الطريق إلى المدينة· كتب لوركا إلى أهله بعد وصوله إلى نيويورك في حزيران 1929، يصف خوفه من هول المدينة، وضجيجها (وكانت الأسرة تقضي الصيف في بستان القديس بيثنتي الذي يبعد نحو أربعمائة ياردة عن المكان الذي نقف فيه): "وفي الوقت الذي قد تكونون في البستان تستمعون إلى قرع أجراس الدير، وأجراس

الكاتدرائية البعيدة، أسمع صفارات الإنذار من مدينة نيويورك، وقرقعتها." واليوم لا نسمع من بيت لوركا صوت أجراس الدير العذب، ولا أجراس الكاتدرائية، فقد عزل البيت عن المدينة جدارٌ هائل من البنايات التي نشاهدها ونتفكّر فيها.

وقبل أن يدمّر المضاربون هذا الجزء من غرناطة، كان ثمّة زقاق ضيّق يؤدي إلى خارج شرفة غارثيا، ثم يختار طريقه في الغوطة. وكانو يسمونه درب غارثيا. و اليوم حلّ محله شارع عريض اسمه أنشا غارثيا، وحلّت معه العمارات الكريهة.

يقودنا شارع أنشا إلى رعب على رعب، إلى الطريق الدائري. وهو شارع فرعي سريع شقّ ليبعد حركة المرور الشمالية الجنوبية عن مركز المدينة (واليوم يقوم بالمهمة طريق جديد للسيارات). وعلى الجانب الآخر من هذا الشارع، ذي الخمسة كيلومترات، الدليل المباشر على النزعة المادية لغرناطة، يرتفع وحش هائل ذو اثني عشر طابقاً يروي الحكاية كلها.

نحاول اجتياز الطريق الدائري هنا حين يتوقف مرور السيارات . يستمر درب غارثيا المبتور على الجانب الآخر من الشارع باسم العذراء البيضاء. نسير على طول هذا الشارع حتى نجتاز شارع أربيال، ونرى أسوار حدائق نبتون، والنادي الليلي عن اليسار. على بعد عشرين ياردة عن اليمين علامة تشير إلى بيت بستان القديس بيثنتي. نجتاز ساحة السيارات ـ وتلك التي على القرب سلسلة جبال البيرة ـ ونختار طريقنا باتجاه مجموعة من

أشجار السرو التي تزيّن واجهة المنزل. عن اليمين يمكننا تقدير حجم المأساة التي سببها المستثمرون لغرناطة.

عام 1984، شرت بلدية غرناطة من ذوي لوركا البيت، والأرض الزراعية المحيطة به، والبالغة مساحتها نحو خمسة هكتارات . وقد جدّد البيت تماماً. وإذ أكتب الآن، فالعمل جار لإنشاء ساحة فدريكو غارثيا لوركا التي ستضم أكبر حديقة للزهور في أوربا. وبكلمات أخرىٰ فإنّ ما كان جنّةً ريفيةً في طرف غرناطة، غنية بمياهها الجارية، وبالذرة، والخضر، وأشجار الفواكه، يتحوّل الآن إلىٰ حديقة تذكارية تقليدية يفصلها تماماً عن الغوطة، طريق السيارات الجديد.

الحقيقة أنّها معجزة أن يبقىٰ البيت سالماً (وكاد يختفي في عهد فرانكو). كذلك نشكر بعض النعم.

حين شرىٰ والد لوركا البيت عام 1925،كان اسمه بستان الحُرس. ولا أحد يدري من أين جاءت التسمية. وفي القرن السادس عشر، وبعد فترة قصيرة من سقوط غرناطة بأيدي النصارىٰ، كان البيت يعرف ببستان المرمر. ولا تذكر السجلات سبباً لهذه التسمية أيضاً. وقد يكون البيت موجوداً هنا قبل عام 1492، ذلك لأنّ المنطقة كلها كانت في رعاية المسلمين.

قرّر الدون فدريكو إكراماً لزوجته بيثنته إطلاق إسم جديد علىٰ الأرض، ووضعها في حماية القديس بيثنتي الغريري. ويوجد تمثال للقديس في مكان واضح في المشكاة الصغيرة الجميلة عن يمين المدخل. وقد لا يكون اختيار القدّيس بيثنتي موفقاً، يجلب السعد علىٰ الدار، وساكنيها، علىٰ الرغم

من خلوص نيّة الدون فدريكو، وذلك بسبب ماضي القديس المروّع ككاره لليهود، وعدو للهرطقة. وحينما جاء الفاشيون هنا بحثاً عن لوركا، لم يتدخّل القديس بمعجزته، وربما لم يرض "للشاعر الأحمر" العيش بين جدران البيت.

كان الدون فدريكو غارثيا رودريغث في الخامسة والستين حين شرى بستان الخرس. وكان بباله امتلاك بيت صيفي على مرمى حجر من المدينة، يكون في الوقت نفسه قطعة أرض تسهل رعايتها على مدار العام. ولم يكن ينوي ترك شقة الأسرة في رصيف المقهى.

ومنذ عام 1925، أصبح الصيف في غرناطة مرتبطاً في ذهن لوركا ببستان القدّيس بيثنتي. هنا وبحضور الوالدين اللذين تحيط بهما الاختان المعبودتان، والجدود، والأعمام، والأخوال، وأمامهم ديك البيت، كان لوركا يعمل دائماً بلذة، وفائدة. وحين يغيب عن غرناطة، لا يغيب فكره عن سلام الجنّة الصغيرة، ومياهها، وخضرها الوافرة، كتب إلى الشاعر خورخيه غيين عام 1926، يقول: "أنا الآن في بستان القديس بيثنتي. في الحديقة الكثير من الياسمين، وست الحسن حتى أننا نصحو مصابين بدوار شعري."

بعد النظر في حجرة الجلوس في الطابق الأرضي، حيث يوجد بيانو لوركا، نصعد إلى حجرة نومه حيث الطاولة التي كان يكتب عليها، ونرى أحد الملصقات الأصلية لفرقة العربة الذي صمّمه بنجامين بالبينثيا، وسرير نوم لوركا، ولوحة عذراء الآلام التي رسمها رافائيل ألبرتي للشاعر عام

1924، احتفاء بلقائهما في بيت الطلبة في مدريد، ويقول الإهداء عليها: "إلى فدريكو غارثيا لوركا هذه الصورة من الجنوب دليلاً على بداية صداقتنا."

كان لوركا يحب النظر من شرفة غرفته إلى الغوطة، وجبال الثلج. وكان يرى الحمراء، وجنّة العريف أيضاً، وقد حجبتهما اليوم البنايات القائمة على طول الطريق الدائري. كتب إلى صديقه ميلشور فرناندیث ألماغرو في صيف 1928، تماماً بعد نشر "أغاني الغجر" يقول:

"أنا في بستان القديس بيثنتي، جنّة من الأشجار، والماء الصافي. تمتد غرناطة على مقربة من نافذتي."

وتلك الغرناطة لم تعد ترى اليوم. لكن، ولحسن الحظ لم يستطع المقاولون، والمضاربون، طمس المشهد الرائع لجبل الثلج. ونرى من هنا، قمة دوّارة الريح بكل جلالها. كتب لوركا في أيلول 1928، إلى صديقه خورخيه ثلاميا، يقول: "إنّه يوم رمادي، رمادي في غرناطة. من بستان القديس بيثنتي (وتسميه أمي بيثنته) حيث أعيش بين أشجار التين العظيمة، والجوز القويّة أرى (جوّاً) أحسن منظر لجبال أوروبا."

عاد الشاعر إلى غرناطة في ذلك الصيف في أسوأ حال، وقد يرجع السبب إلى حياته الغرامية البائسة. وفي الرسالة الآنفة إلى ثلاميا يشكو بمرارة،ويقول: "لن تتصوّر حالي أقضي الليلة تلو الليلة ساهراً عند نافذتي المفتوحة أمدّ البصر إلى غرناطة في الليل، وهي "خالية" بالنسبة إليّ ليس فيها من عزاء."

وهذه النافذة (الشرفة) هي بالتأكيد تلك التي يشير إليها في قصيدة "وداع" من ديوان الأغاني:

إذا مِتُّ،
دعوا النافذة مفتوحة
الطفل يأكل البُرتُقال
(أراه من نافذتي)
الحاصدُ يحصدُ القمحَ
(أسمعه من نافذتي)
إذا مِت،
دعوا النافذة مفتوحة!

على هذه المنضدة كتب لوركا "أغاني الغجر" و "أغانٍ" ومسرحية "الجمهور" (التي بدأها في هافانا)، و " حيثما تمر خمس سنين" و "عرس الدم"، و "الدونيا روسيتا العانس" التي ساعدته في كتابتها التسجيلات التي كان يسمعها من الحاكي الذي ما زال جزءاً من أثاث البيت.

في صيفي 1934 و 1935 استضاف لوركا هنا، صديقه الغاليثي الأديب إدواردو بلانكو آفور الذي التقط للشاعر عدّة صور.

من حجرة نوم الشاعر نذهب إلى سطح الطابق الأول حيث كان يشاهد منظراً جميلاً للحمراء وجنّة العريف. وكان يحب الخروج هنا، وثمّة صورة رائعة له يقف إلى الدرابزين مع صديقه كونستانثينو ريوث كارنيرو، محرّر صحيفة المدافع عن غرناطة، والذي قتل في بداية الحرب الأهلية أيضاً.

توجد أمام الدار بجانب المجاز سَرْوَتان، زرعهما فدريكو، وأخوه فرانشسكو.

عاد لوركا إلى بستان القديس بيثنتي آخر مرّة في صبيحة 14/ 7/ 1936 مرعوباً من العنف المتزايد في مدريد حيث قتل عضو البرلمان اليميني المتشدّد خوسيه كالفو سوتيلو.

وحال وصوله سُرَّ لوجود هاتف جديد في البيت. وربما اتصل بكونستانثينو في صحيفته ليخبره بوجوده، فقد نشرت الصحيفة في اليوم التالي على صدر صفحتا الأولى، خبراً بارزاً بعودة لوركا إلى غرناطة لقضاء " فترة قصيرة" مع أهله. وذكرت كبريتا الصحف الأخريان في المدينة وجود لوركا. ولا بد من أنّ المتآمرين عرفوا ساعتها أنّ الشاعر موجود بين ظهرانيهم . من ناحية أخرى فلوركا الذي لم يعرف البقاء في البيت، كان يُرى في المدينة في الأيام الستة التي انتهت بالثورة ضد الجمهورية، والتي بدأت في غرناطة في 20/ 7.

كل عام في الثامن عشر من تموز، يوم القديس فردريك، تقيم عائلة لوركا مأدبة عامة في البيت إكراماً للأب، والإبن البكر، وكلاهما فدريكو. يصل الأقارب والأصدقاء من غرناطة، والقرى المجاورة في الغوطة محمّلين بالهدايا، ويستمر المرح حتى منتصف الليل. لكن الأمور اختلفت تلك السنة، ففي مساء اليوم السابق لذلك، أشعل أعداء الجمهورية الخائفون الحرب في مرّاكش الإسبانية، وفي صبيحة ذلك اليوم عُرف أنّ قائد جزر الكناري الجنرال فرانكو، قد عزّز حاميته بعدد إضافي من الثوّار. بدت

الأمور غاية في الأهمية، بغضّ النظر عن تأكيد الحكومة بأنها تسيطر على الموقف. وفي مساء 18/ 7 حدث إرباك، وفوضى عظيمان، في غرناطة، وازداد الذعر مع الإشاعات القائلة بأنّ الجنرال كويبو دي يانو قد احتل إشبيلية. وتأكد هذا في صبيحة اليوم التالي.

ويمكننا اختصار ما حدث في غرناطة في الأيام القليلة التي تلت، فقد ظلّ الجنرال كامبينس حاكماً عسكرياً أسبوعاً واحداً. وكجمهوري مخلص، كان شديد الثقة بضباطة الذين عاهدوه على البقاء محايدين. وحين اكتشف ما كان يحدث بالفعل، كانت الفرصة قد فاتت ـ فقد فلت الزمام من يده. أما المحافظ سيزار توريس مارتنيث، فلم يكن أحسن حظاً من الحاكم كامبينس، فقد وصل تواً إلى غرناطة، ولا يكاد يعرف أحداً فيها. أطاع أوامر الحكومة بعدم توزيع السلاح على الجماهير، وبهذا فقد ساعد بحسن نيّة الثوّار على تحقيق نصر سهل حينما نزل رجال الحامية الفاشيون إلى الشوارع في العشرين في تموز.

وكما ذكرنا من قبل، كانت المقاومة الوحيدة في البيازين حيث صمد الجمهوريون العزّل أربعة أيام قبل أن يتم سحقهم.

وحينما ظهر واضحاً فشل الانقلاب العسكري، وتحوله إلى حرب أهلية دامية، قرّر الثوار فرض حكم الإرهاب في غرناطة لإخافة الناس، وجعل استعادة المدينة المحاطة بمنطقة الجمهوريين أمراً في غاية الصعوبة على الحكومة. وهكذا بدأ عصر من أحلك العصور في كل تاريخ غرناطة.

هنا في البستان، كانت الأسرة شديدة القلق على مانويل فرناندیث ونتيسينوس، زوج كونشا غارثيا لوركا، محافظ غرناطة الاشتراكي. وكان من أوائل الذين ألقي عليهم القبض في العشرين من تموز. واستناداً إلى ما يقوله أحد الجيران، فقد زار لوركا صهره في السجن بعد الاعتقال مباشرة، وعاد إلى البيت مريضاً فوسّدوه الفراش. لقد أرعبه ما شاهد هناك.

بعد نشوب الحرب، زار لوركا عدّة مرّات أحد أصدقائه الأوفياء، إدواردو رودريغيث فالديفيسو. وفي عصر أحد الأيام خرج الشاعر لاستقبال صديقه، وهو شاحب الوجه يرتجف، فقد كان ينام القيلولة في فراشه في الطابق العلوي. أخبر صديقه أنّه رأى فيما يرى النائم أنّه مستلق على ظهره، تحيط به مجموعة من النساء الناحبات، الموشحات بالسواد من الرأس حتى القدم، كل واحدة تهدّده بصليب أسود. وأيقن الشاعر أنّه نذير شؤم.

وصدق ظنّه، ففي السادس من آب وصلت إلى البيت ثلّة من الكتائبيين الفاشيين للتفتيش. لماذا؟ ثمّة إشاعة في ذلك الوقت، لا شك في أنّ مصدرها أعداء لوركا، بأنّه يملك في البيت جهاز إرسال سريّاً، يصله بالأعداء الروس. وربما كانوا يفتشون عن جهاز خيالي، فلم يجدوا شيئاً، وغادروا البيت.

في اليوم التالي جاء إلى البيت شاب صديق للأسرة اسمه ألفريدو رودريغيث أورغاث، وكان حتى وقت قريب مهندساً معمارياً في بلدية غرناطة،اختفى عن الأنظار منذ بداية الثورة، وحينما علم أنّه في خطر داهم

قرّر الهرب. طمأنه والد لوركا، وأخبره، أنّ نفراً من فلاّحيه سيجتازون به الحدود إلى منطقة الجمهوريين على بعد كيلومترات من البيت. أخبره فدريكو بأنّه كان يستمع إلى البلاغات الحكومية التي تبثّها إذاعة مدريد، وأيقن بأنّ "الحرب" لن تنتهي. هنا لا مجال للصديق أن يطلب من الشاعر مرافقته. في تلك الأثناء أنذرهم شخص بخطر قريب:

سيارة تقترب من مجاز الدار. ربما جاءوا بحثاً عن رودريغيث أورغاث! ودّعهم ألفريدو بسرعة، وانسلّ خلف الدار ليختفي بين الأجمات. كان الزوّار المكروهون يبحثون عن المهندس. وحينما لم يجدوا له أثراً، غادروا البيت. تلك الليلة وصل رودريغيث إلى قرية "سانتا في" سالماً.

بعدها، وفي التاسع من آب، دارت الأمور دورتها المرسومة لتصل إلى الأسوأ، وذلك حينما وصلت إلى البيت مجموعة أخرى من السفاحين الكتائبيين، وكانت تبحث هذه المرّة عن أخوة ناظر المزرعة غابرييل بيريا الذي يسكن البيت مع أمّه، وأخته. وكان الأخوة قد اتهموا ظلماً بقتل رجلين في قرية أسكيروسا (قرية لوركا الثانية في الغوطة والتي سنزورها في جولتنا التاسعة)، وظنّ الفاشيون، أنّ غابرييل يعرف مكانهم. وكان أغلب الكتائبيين من قرية جسر الصنوبر التي تقع على الطريق القادم من أسكيروسا، ومن بينهم الإقطاعيان ميخيل، وهوراثيو رولدان كويسادا، عدوا والد لوركا المعروفان بتعصّبهما. فتّشت المجموعة منزل بيريا،ثم تقدّمت لرمي أمّه من السلّم. أين أبناؤها القتلة؟ وحين أكّدت المسكينة أنّها لا تعرف مكانهم ساقوها مع بقية الأسرة خارج الدار، ووضعوهم في الباحة

المقابلة لبيت لوركا. ربطوا المذعور غابرييل إلى شجرة كرز وأخذ واحد بجلده بالسوط. كان الشاعر يرقب المشهد مع والديه وأخته كونشا، ولم يستطع التحمّل فهُرع لحماية الرجل البريء. لكنهم رموا به الأرض، وضربوه بقوّة. كانوا يعرفونه، فقال أحدهم مزمجراً: "آه، صديق فرناندو دي لوس ريوس، الشاذ الصغير!" ردّ لوركا بسرعة قائلاً، إنه ليس صديق الأستاذ الاشتراكي المشهور وحده، بل صديق أناس عديدين من مذاهب مختلفة. ويبدو أنّهم قبل أن يأخذوا غابرييل للاستجواب في مبنى البلدية، أنذروا لوركا بأنّه تحت الإقامة الجبرية، عليه ألاّ يغادر البيت مهما كان السبب (أطلق سراح غابرييل في وقت متأخّر من تلك الليلة، وعاد إلى بيت لوركا يرتجف من الخوف.)

حينما كانت المشاهد تتوالى، استطاعت أنجلينا قرطبيلا، خادم كونشا، خطف أطفال سيدتها الثلاثة من البيت، وأخذهم إلى بيت آخر يقع إلى الخلف، ويعود إلى صديق مقرّب للأسرة أسمه فرانثسكو سانتويني لوبيث (صودر البيت المتواضع عام 1990، وسوّيت أركانه الأرض. وكان لا بد من احترامه، واستغلاله في مجال آخر ـ لنقل لخزن المعدّات الضرورية التي تستخدم في المحافظة على الساحة؟ لكن لا، لم يفكّر أحد بذلك، ولم يتذكّر أحد مأثرة أنجلينا قرطبيلا الجريئة، أو الصداقة الحميمة التي ربطت أسرة لوركا بأسرة سانتويني لوبيث. لا بد من هدم البيت لإفساح المجال لحديقة ورد أخرى صغيرة. وفي ثوان قليلة، أحالت الجرّافة تأريخاً كبيراً، وجمالاً نادراً كومةً من الأنقاض.)

الشاعر خائف الآن. قد يأتون ثانية بحثاً عنه. عليه الخروج، لكن إلى أين؟ ممن يطلب الحماية؟ خطر بباله، اسم صديقه الشاعر الشاب لويس روزاليس الذي عاد مثله إلى غرناطة قبل نشوب الثورة، وكان اثنان من إخوته هما خوسيه، وأنطونيو من قادة الكتائب في غرناطة. ألم يعدّه لويس الذي يصغره باثنتي عشرة سنة "أستاذه" الشعري؟ رأى منذ قريب العديد من أسرة روزاليس في مدريد، وقويت صداقته بهم. بالطبع سيساعده روزاليس ! سرعان ما اتصل ببيت روزاليس بالهاتف، وكان محظوظاً بالتحدّث مع صديقه مباشرة. بعدها بلحظات وصل روزاليس إلى بيت لوركا يرافقه أخوه الأصغر خيراردو.

وصف لويس روزاليس عدّة مرّات ما قيل وقتها بحضور أسرة لوركا. وكانت أساساً ثلاثة خيارات: أمّا إيصال لوركا بالسيارة إلى منطقة الجمهوريين، وهذا أمر يسهل على روزاليس تدبّره؛ أو وضعه في كرمة مانويل دي فايا، وكان روزاليس مقتنعاً بأنّ لا أحد يجرؤ على انتهاك حرمتها؛ أو يأخذه لويس إلى بيتهم الذي له منزلة خاصة لدى الكتائبيين كما هو معروف عن أسرة روزاليس، وسيكون آمناً بالتأكيد. وقد اختار لوركا الخيار الثالث.

وقبل مغادرة روزاليس بيت لوركا، طلب منهم ألاّ يبوحوا بمكان ابنهم . في تلك الليلة أُخذ الشاعر إلى بيت روزاليس وسط غرناطة بسيارة أجرة يملكها سائق والده، فرانشسكو موريلو.

بعد قليل سنقتفي الطريق المفترض الذي سارت فيه السيارة. لكن قبل ذلك، وحين تشعر بأنّك مستعد لمغادرة البيت، أقترح أن نزور بيت التماريت القريب، وكان مهماً في حياة لوركا أيضاً.

ولأجل ذلك ننعطف يميناً بعد عبور ساحة السيارات، ونمضي باتجاه شارع العذراء البيضاء. كان هذا الشارع في زمن لوركا مجرّد سبيل ترابي تعبره السيارات للوصول إلى جسر صغير مقام على قناة بناها العرب تعرف بالساقية الكبيرة، بعدها يمضي الشارع قدماً حتى يصل إلى الغوطة باسم جديد هو درب الجوز، لكنّهم عام 1990، غيّروا اتجاه الساقية الكبيرة، وهدموا الجسر الصغير لإفساح المجال لهذا الطريق الملتوي الذي وصلنا إليه الآن. ولو رأى لوركا المشهد اليوم لمات غمّاً.

بعد عبور الشارع المعلّق نجد تتمة درب الجوز (لا توجد علاقة دالّة عليه) على الجانب الآخر من الطريق الملتوي، تماماً مقابل شارع العذراء البيضاء، وقبل وصولنا إلى الشارع المنزلق الصاعد إلى الطريق السريع الذي يربط شمال المدينة بجنوبها.

يقع بستان التماريت بعد عشر دقائق تقريباً من السير، عن اليسار وسط الحقول. يقودنا إليه درب ضيّق تظلّله الأشجار.

تعود ملكية البستان إلى عمّ لوركا، فرانشسكو غارثيا روذريغيث، وكانت ابنته كلوتلدي واحدة من بنات العم الأثيرات لدى الشاعر. وحينما اشترى الرجل البستان، لم يكن فيه غير بيت واحد، وبني بيتاً آخر يجاوره، وهو الأول الذي تراه. غالباً ما كان لوركا يأتي هنا لأنّه يحب المكان. قال

مرّة، إنّ لعمّه أكثر العناوين سحراً في العالم: "بستان التماريت، نهاية الفَرَجي، غرناطة" ولا بد من أنّ الشاعر يعتز بالجُرس العربي للإسم ـ فالْفَرَج اسمٌ أطلقه ا لمسلمون على هذه الناحية، أما التماريت، فمن شجرة التمر، النخلة العربية. حتى أنّ لوكا يدّعي بأنّ بستان التماريت أجمل من بستان القدّيس بيثنتي . وأخبر عمّه مرّة قائلاً: "إنّ بستانك كلوتيلديٌ، مجموعةٌ من مناظر البريد."

ما زال بيت التماريت جميلاً كما كان عام 1936، وله ميزة في السكن يفتقدها الآن بستان القديس بيثنتي خلّد لوركا البيت في "ديوان التماريت"، العنوان الذي اختاره للقصائد التي كتبها إحياءً لذكرى شعراء غرناطة المسلمين. ويشعر بعض القرّاء بأنّ هاجساً سابقاً باغتيال الشاعر اكتنف قصيدة الغصون، ذلك أننا نعرف أنه حين هرب من بيته جاء الأعداء بحثاً عنه في بيت التماريت:

بين بساتين النخيل
جاءت كلاب الرصاص
تنتظر سقوط الأغصان،
تنتظر أن تتكسّر وحدها.

حين نعود الآن عبر الأرض المدمّرة إلى الطريق الدائري السريع، فإننا نعود من حيث أتينا إلى شارع شرفة غارثيا. وحين حمل السائق فرانثسكو موريلو، لوركا بسيارته من البيت في بستان بيثنتي إلى بيت روزاليس، يبدو أنّه سلك هذا الطريق، ولا نجزم بذلك.

ثمّة طريقان يتفرّعان من الساحة باتجاه المدينة، وهما شارع أخلاق المجدلية، وشارع غارثيا· ولنا أن نسلك أحدهما، ونعبر شارعين آ خرين (شارع القدّيس ميكائيل، وشارع فرونيكا المجدلية)· وحين نصل إلى شارع جسر الزويلة ننعطف شمالاً· في نهاية الشارع مبنى كان يضم في السابق كليّة الفلسفة والآداب التابعة لجامعة غرناطة، وهو اليوم المدرسة الجامعة للمترجمين· حين ننعطف يميناً نصل إلى شارع الألواح،والشارع الثالث عن اليسار، هو شارع الزاوية، المكان الذي قصده لوركا· سكنت أسرة روزاليس البيت رقم واحد· منزل فسيح على ناصية شارع الألواح، ويحتل المكان اليوم، فندق الملكة كرستينا·

تغيّر مدخل البيت الجميل حتى لم يعد بوسعنا التعرّف إليه· كان بيتاً غرناطياً صميماً يتألف من باحة، وعدّة غرف بنيت حول فناء عريض حيث تعيش الأسرة في الصيف· في الأعلى طابقان، وسطيحة علوية، وفي الطابق الثاني شقّة مستقلة، تسكنها أخت الأم، الخالة لويزا كاماشو التي اتفقت الأسرة أن يعيش الشاعر معها·

وفناء البيت اليوم حجرة الطعام في الفندق· اختفت أعمدة البيت الجميلة، واختفى السلّم العريض الذي كان يصعد إلى الطابق ا لأول· لكن أصحاب البيت حافظوا على الباب الذي دخل منه أعداء لوركا عصر السادس عشر من آب 1936· وإذا أراد أحدكم معرفة شكل البيت قبل الحرب، فليقرأ مذكرات لويس روزاليس بعنوان "حوايا القلب" (1969).

في واحدة من الغرف، أعلى الفناء، كانت مكتبة روزاليس، ونعرف أنّ لوركا استفاد منها استفادة كاملة في الأيام الثمانية التي قضاها هنا ·

حالما تظهر طائرة جمهورية في سماء غرناطة تهرع النسوة ـ الأم روزاليس، وابنتها إسبرانثا، والخالة لويزا كاماشو، والخادم ـ إلى قبو الخمور والمؤن الذي كان الشاعر يسميه "البومباريو"، ويستخفين·

شيئاً فشيئاً، بدأ لوركا يستعيد القليل من هدوئه، ويعود الفضل إلى عناية النسوة· وصار يحدثهن عن تجاربه في نيويورك، والبوينس إيريس، وكوبا، ويعزف لهن أغانٍ شعبية على البيانو الذي نقلته الأسرة إلى غرفته خاصة· أما بالنسبة إلى الرجال من أسرة روزاليس، فكانوا نادراً ما يتواجدون في البيت، فالأب مشغول معظم الوقت بمحله خلف باب الرملة (وقد رأينا المحل في جولتنا الثانية)، وميخيل، وخوسيه متزوجان ويعيشان في شقتيهما، أما خيراردو، ولويس، وأنطونيو، فنادراً ما ينامون في البيت·

مستحيل أن يكتب لوركا في تلك الظروف· كل يوم يتابع أخبار صحيفة "المثال" المحلية التي تنشر أخباراً مشوّهة تماماً لما كان يحدث في غرناطة، وخارجها· زيادة على ذلك، كان يستمع إلى محطات الإذاعة القومية، والجمهورية، ويمزح مع إسبرانثا عن الأخبار الكاذبة التي يرويها الفريقان· أما بالنسبة إلى المشاريع، فكان يتحدّث بحماسة عن كتاب من السونيتات ينوي نشره، ويدّعي أنّه سيحصر تفكيره قريباً في ملحمة شعرية بعنوان "آدم" على غرار الفرودس المفقود لملتون، وكان يفكّر فيها منذ سنين·

كيف للشاعر الإحاطة بالواقع القمعي الدنيء الذي يجري حوله في ذلك الوقت؟ وما دام لا يعي الرعب الكامل لما يحدث بالفعل، فمن المستحيل الشك في أنّه يعلم بالإعدامات التي تتم في المقبرة، ذلك أنّها نادراً ما تتصدّر الأنباء في جريدة المثال. لا بد من أنّه قلق بشدّة على مصير صهره أيضاً ما دامت الإعدامات العشوائية، تنفذ انتقاماً لما يقوم به الجمهوريون من قصف ضعيف للمدينة. ويبدو مستبعداً أن لا يطلب من الأخوة روزاليس،التدخل لمصلحة صهره مانويل.

واستناداً إلى ما تقوله اسبرانثا روزاليس، كان يتحدّث أحياناً إلى أسرته بالهاتف. ولكن لا يوجد بيان على تلك المكالمات التي لا شك في أنّها كانت قصيرة جدّاً، وفي صميم الموضوع، مخافة أن تسمع مصادفة، أو وجود من يسترق السمع إليها.

كان وقت الشاعر يتناقص. قبل شروق شمس السادس عشر من آب 1936 ـ وكان يوم أحد ـ أعدم مانويل فرناندیث مونتيسينوس في المقبرة مع تسع وعشرين ضحية أخرى. وسرعان ما وصل الخبر الأليم إلى لوركا، فحطّمه. فضلاً عن ذلك، من المنتظر، أنّه كان يعلم بأنّ الأعداء يتعقبون أثره، ذلك أنّ مجموعة أخرى من السفاحين ذهبت في اليوم السابق إلى بيتهم بحثاً عنه. وحينما عرفوا أنّه غادر البيت، فتّشوا البيت كلّه، حتى أنّهم فكّوا البيانو الكبير بحثاً عن أوراق مشبوهة ـ أو ربما أملاً بالعثور على جهاز الإرسال المزعوم. هدّد قائد المجموعة كونشا إن لم تخبرهم بمكان أخيها، فسيأخذون الأب بدلاً عنه. تفوّهت خائفة ومن دون تفكير بأنّ فدريكو

يقيم مع صديق كتائبي في غرناطة، وهو شاعر أيضاً. وربما باحت لهم باسم روزاليس.

كان الشخص الذي وصل إلى بيت روزاليس لاعتقال لوركا هو رامون رويث ألونسو، عضو سابق في البرلمان ينتمي إلى حزب التجمّع الكاثوليكي اليميني الذي يرئسه خوسيه ماريا خيل روبلس. ولرويث ألونسو دور بارز في تنفيذ خطّة الإطاحة بالجمهورية، ويبدو أنّه يضمر الحقد للوركا، وللإخوان روزاليس.

لم يكن أحد من رجال روزاليس في البيت رقم واحد، شارع الزاوية حين وصل ريوث ألونسو يرافقه إثنان من رجال الحماية، وفرقة إسناد ضخمة من الرجال المسلّحين الذين ضربوا نطاقاً حول الشارع لتنفيذ خطّة واسعة بأمر من المحافظ الجديد فالديس. تصدّت الأم روزاليس بشجاعة لريوث ألونسو، ورفضت السماح له بأخذ الشاعر من البيت. كيف يجرؤ على القدوم إلى بيت كتائبي بمهمة كهذه؟ لماذا يريدون استجواب لوركا؟ واستناداً إلى ما تقوله إسبرانثا روزاليس، أجاب رويث ألونسو بأنّ الشاعر في مأزق بسبب ما كتب حديثاً.

حاولت الأم العثور على أبنائها بالهاتف، واستطاعت أخيراً التحدّث إلى ميخيل في مقر قيادة الكتائب في شارع القدّيس خيرنيمو القريب. أخبرها أنّ على رويث ألونسو القدوم حالاً إلى المقر للتشاور بشأن ما يجب عمله. بعدها مباشرة عاد عضو البرلمان السابق مع ميخيل. دهش روزاليس لرؤية الشارع مكتظاً بالرجال المسلّحين.

أوضح ميخيل لأمّه أنّه في تلك الظروف لا خيار لديه غير ترك رويث ألونسو يأخذ فدريكو إلى مقر الحكومة المدنية، وسيرافقهما بنفسه ليعرف حقيقة الأمر. عندها ذهبت إسبرانثا لجلب لوركا، ولا بد من أنّه كان يسترق السمع من وراء شبّاك داخلي في الطابق العلوي. على البيانو صورة لقلب يسوع المقدّس الذي كُرِّست له الخالة لويزا كاماشو. وقبل أن ينزل فدريكو، صلّى الثلاثة أمام القلب المقدّس بطلب من الخالة لويزا.

في عام 1956، أخبر لويس روزاليس، الباحث الأمريكي الإسباني الولد أوغسطين بينون أنّ لوركا كان منهاراً تماماً، يبكي ويرتجف. لا بد من أنّ لويس عرف بهذا حين عودته إلى البيت مساءً. حالما ودّع الشاعر النسوة همهم بصوت خفيض إلى البنت إسبرانثا التي كان يطلق عليها "السجّانة المقدّسة" قائلاً: "لن أصافحك لأني لا أريد الظن بأننا لن نلتقي ثانية." ولم تنسَ البنت هذه الجملة أبداً.

خرج إلى الشارع، يرافقه ميخيل روزاليس، ورويث ألونسو من هذا الباب الذي أبقوه، وصانوه ليصبح اليوم باباً لحجرة الطعام في الفندق.

أمام بيت روزاليس، عاش صاحب حانة البيرينيوس القائمة على ناصية ساحة الثالوث القريبة (لا تتعب نفسك في البحث ـ فقد هدمت.) أخذ ابن هذا الرجل، وكان في الحادية عشرة من العمر بالتلصص من الشباك بعد أن طلب منه المسلّحون الذهاب إلى البيت، ورأى الشاعر يخرج من الباب. يقول إنه كان يرتدي سروالاً رمادياً غامقاً، وقميصاً أبيض، وربطة عنق محلولة، يطرح سترته على ذراعه. سارت المجموعة حتّى نهاية الشارع، ثم

انعطفت حول الزاوية المؤدية إلى ساحة الثالوث حيث أوقف المسلّحون سياراتهم كما بدا في انتظار حمل لوركا، وقطع المسافة القصيرة إلى مبنى الحكومة المدنية.

أغلب الظن، بأنّ السيارة انعطفت مباشرة عن اليسار خارجة من الساحة، ومضت في شارع الدوقة، رابع شارع بعد الثالوث. واستناداً إلى ما يقوله روزاليس، توسّل الشاعر إليه في هذه الرحلة القصيرة، التوسّط حالاً لدى المسؤولين، والأهم من ذلك الاتصال بأخيه خوسيه، وهو من أهم الكتائبيين في غرناطة، وسيسوي الأمر بسرعة.

دعونا نتبعهم إلى شارع الدوقة. سرعان ما يتقاطع الشارع مع شارع ملقة. أمامنا على الناصية حديقة نباتات الجامعة. نجتاز الشارع، ونمضي في شارع الدوقة. عن يسارنا مركز رئاسة الشرطة العليا، وكانت البناية عام 1936، مقراً لمديرية الشرطة. بعد ياردات منها عن اليمين، نصل إلى الباب الخلفي لكليّة الحقوق، وكان في بداية الحرب الباب "الأمامي" لبناية الحكومة المدنية (وقد عادت إلى جامعة غرناطة عام 1944). والباب مقفل عادة.

هنا جرت أكثر الأمور الثورية حسماً حينما استطاعت مفرزة من الجنود تابعة لثكنات المدفعية، ومجموعة من الكتائب بقيادة فالديس نحو السادسة من عصر يوم 20/ 7/ 1936، بإقناع الحرس بنزع أسلحتهم. وكان المحافظ سيزار توريس مارتنيث قد اعتقل في مكتبه مع مجموعة من القادة

السياسيين. ولم تصدر طلقة واحدة. في تلك الأثناء احتل الثوّار المراكز الأخرى المهمة في غرناطة.

سيق لوركا إلى هذه النقطة عصر يوم 16/ 8/ 1936، ودفع على الدرجات التي كانت تؤدي إلى المدخل.

ولكي تدخل البناية، ما لم يكن حظّك سيئاً، فترى الباب مقفلاً، استدرْ يميناً (شارع المدارس) وسر حول البناية حتى تصل إلى الباب الرئيس لكلية الحقوق الواقعة على زاوية ساحة الجامعة، والتي ورد ذكرها في جولتنا الثانية. وحالما تجتاز الباب، استدر يميناً، وسر في الممر الذي يقودك إلى فناء فيه شجرات سرو ونافورة. حين تجتاز الفناء بخطّ قطري منحرف، تجد نفسك في فسحة من الأرض، تنفرج على ما كان في ذلك اليوم مقر الحكومة المدنية، وترى على جانب البناية دركات تنزل بك إلى الباب الخلفي الذي شاهدناه من شارع الدوقة.

وعلى الرغم من التحويرات الكثيرة التي أدخلت على البناء منذ عام 1944، إلاّ أني لا أعتقد أنّ من الصعب عليك استحضار المشاهد التي جرت هنا في أثناء الحرب، وما رافقها من وحشية، وشقاء. ربما بات لوركا ليلتين في مكان ما في الطابق العلوي. رأته أنجلينا قرطبيلا خادم أخته هنا مرّة على الأقل، وحملت له الطعام، والسجائر، والمناشف. ويقول من شاهد الشاعر حينها بأنّه كان يائساً يتألّم من الرضوض التي أصيب بها في البيت حين تدخل لحماية الناظر بيريا.

حينما غادر ميخيل روزاليس المكان، وترك لوركا وحيداً في الفناء المزدحم أسرع بالعودة إلى مقر قيادة الكتائب، وحاول جاهداً الاتصال بأخيه خوسيه بالهاتف، لكن هيهات! كذلك لم يعرف مكان أخويه الآخرين لويس، وأنطونيو، وكانا في الجبهة. وحينما عادا إلى غرناطة ذلك المساء، وعلما بما حصل، غضبا بشدّة، وقرّرا مقابلة الحاكم المدني فوراً. هرولا من هنا مع بعض الأصدقاء الكتائبيين ومنهم شخص اسمه سيثيليو ثيري. أخبروهم في المقر، أنّ فالديس لم يعد بعد من زيارة إلى لانخارون في البشرات. وفي عام 1966، أخبرني روزاليس بما حدث لاحقاً، فقال:

> كان في الغرفة نحو مائة شخص، محشورين حشراً. وكان بينهم رامون رويث ألونسو الذي لم أكن أعرفه بالوجه. لم أكن أعرف أحداً هناك. صحت بغضب شديد: "من هذا الرويث ألونسو الذي ذهب إلى بيتنا ليأخذ، حتى من دون رخصة، أو إذن، شخصاً يقيم تحت سقف بيت أسياده؟" وشدّدت على عبارة "هذا الرويث ألونسو"، وأعدت السؤال عدّة مرات. عندها ـ وكنت أتكلّم بانفعال، والحنق باد على صوتي ـ تقدّم أحدهم خطوات إلى الأمام، وقال: "أنا " هذا" الرويث ألونسو" سألته قبل أن يتجمّع الحاضرون (ومنهم مائة ممن يؤكّدون دقة

ما قلت) كيف جرؤ، وذهب إلى بيتي من دون إذن واعتقل ضيفي؟ أجاب بأنّه بادر من نفسه. قلت: "أنت لا تعرف معنى ما تقول، أعده عليّ!" كنت أعي تماماً حراجة اللحظة، وأردت لي، وللحاضرين التأكّد من تذكّر الكلمات التي قيلت بالضبط. لذا أعدت السؤال ثلاث مرّات، وكل مرّة يجيبي: "بادرت من نفسي" عندها قلت: "أدِّ التحية، وانصرف !" فقال: "مَنْ، "أنا؟" كان سيثليو ثيري رجلاً حكيماً، فأمسك برويث ألونسو، وقال:"أنت تكلّم الأعلى منك! الآن أدِّ التحية، وانصرف!" أخيراً، وحين لم يجد رويث ألونسو من يسانده، انصرف.

وحين واجهنا رويث ألونسو بهذه الشهادة المسجّلة على شريط عام 1966، أنكر حضوره المشهد الذي وصفه روزاليس، وادّعى أنّه بعد أن ترك لوركا في مبنى الحكومة المدنية عاد إلى البيت. مع ذلك، واضح أنّ الدليل لمصلحة روزاليس (وأكرّر الآن: ليس كلّه طبعاً).

في ساعة متأخّرة من تلك الليلة عاد خوسيه روزاليس إلى المكان لمقابلة فالديس. وجرى نقاش حاد بينهما. واستناداً إلى تصريح أدلى به روزاليس قبل أيام من وفاته عام 1978، كان على مكتب الحاكم المدني، إتهام خطي ضد الشاعر كتبه رويث ألونسو ووقّع عليه بنفسه، يقول إنّ لوركا، وهو شاعر

هدّام، لديه جهاز إرسال سرّي في بستان القديس بيثنتي للإتصال بالروس، وإنّه لوطي، وإنّه كان سكرتيراً لفرناندو دي لوس ريوس (وهذا غير صحيح)· زيادة على ذلك، فإنّ الأخوة روزاليس يخدعون الثورة بإخفائهم شخصاً "أحمر" مشهوراً برداءته·

هل حدثت مواجهة بين لوركا، وفالديس قبل صدور الأمر المحتوم؟ من الصعب الإجابة، فقد حمل فالديس أسراره في 5/ 3/ 1939، وسار إلى القبر· وكان ضحية السرطان، وجُرح أصيب به في المعركة بعد نقله من موقعه في غرناطة عام 1937·

غادر لوركا البناية، ويده مكبّلة إلى يد سجينٍ آخر، اسمه ديوسكورو غالندو، وهو معلّم مدرسة ابتدائية من بلد الوليد، اتهموه بالشيوعية، واعتقلته مجموعة من الكتائب في بيته في قريةٍ خارج غرناطة·

صادف أن رآه، صديق شاب اسمه ريكاردو رودريغيث خيمنيث، يقاد مع غالندو خارج البناية· كانت ذراع رودريغيث اليمنى ضامرة مهزولة · وقبل سنوات، اشترى فدريكو للصبي كماناً صغيراً أوصى به خاصة لأنّه عرف موهبته الموسيقية، وكانت التفاتة معروفة من الشاعر· كان رودريغيث يلعب الورق مع صديق له في مقر قيادة الشرطة الواقع عبر الشارع القادم من مبنى الحكومة المدنية في شارع الدوقة· ترك المكان نحو الثالثة والربع صباحاً بعد أن أذاع الراديو آخر نشرة للأخبار من محطّة إشبيلية، وفجأة سمع من ينادي عليه بالاسم، وكان المنادي فدريكو·

ذعر رودريغيث حين شاهد يد الشاعر مكبّلة إلى يد رجل أكبر منه، يحيط بهما رجال "الزمرة السوداء" الذين تسلّموا التفويض الكامل من فالديس بالقتل، والتعذيب، وكانوا يستعذبون ما يفعلون. قال رودريغيث عام 1980:"وضع أحدهم البندقية في صدري، فصرخت: قتلة! ستقتلون عبقرياً! عبقري ! قتلة!" ألقوا القبض عليّ، واقتادوني إلى مقر الحكومة المدنية. احتجزوني ساعتين، ثم أطلقوا سراحي."

بعد ثوان، دفع القتلة لوركا، وغالندو غونثاليث إلى السيارة التي تنتظر حملهما إلى حيث يصلبان على التلال خارج غرناطة. سنتابع الطريق الذي مشياه في الجولة الثامنة.

الجولة السابعة: الجبل المقدّس، وكنيسة القديس ميكائيل ذي الرفعة

الزمن: نحو ثلاث ساعات مشياً. وإذا كنت مستعجلاً، أو تعباً، فيمكنك صعود الجبل، والوصول إلى الكنيسة بالسيارة، لكنك ستفقد الكثير من المتعة (أنظر الملاحظة في نهاية الجولة). أقترح، أن تحمل معك نسخة من "أغاني الغجر" لتقرأ قصيدة "القديس ميكائيل" في الكنيسة.

تحذير: أحياناً يتعرّض السياح لبعض المضايقات في حي الغجر، وحدث بعض الانتهاكات في نهاية الطريق الوحيد الصاعد إلى الكنيسة، لذا عليك الحذر، وإذا كنتِ امرأة، فمن الحكمة أن يرافقك رجل، أو نفر من الناس.

***

تبدأ الجولة من متنزه الثالوث (واسمه الرسمي متنزه الأب منخون) الواقع في نهاية شارع سباق دارو حيث صعدنا من قبل "تل السبيكة"، وهو الفرع الرئيس المتجه إلى البيازين. حينما ثارت الحامية العسكرية على الجمهورية في 20/ 7/ 1936، حفر العمّال خندقاً في الشارع لمنع العربات من الصعود في التل العالي، لكنّه لم يفد كثيراً.

في البيت رقم 4، شارع تل السبيكة، عن اليمين، قصر قرطبة، ويضم دار وثائق المدينة. وعن اليسار مدرسة طير ماريا، إحدى المدارس التي أنشأها أندرياس منخون لتعليم الأطفال الفقراء، والغجر. وقد أطلق اسم هذا الوجيه على متنزه الثالوث.

على بعد ياردات قليلة عن اليمين قصر عربي يعرف بقصر السبيكة، وهو مقر مدرسة الدراسات العربية التي أسّستها الحكومة الجمهورية عام 1933. وإذا وجدته مفتوحاً، فألق نظرة عليه. لا مكان أبهج من هذا القصر لدراسة حضارة غرناطة الإسلامية.

نسلك الآن الطريق المؤدي إلى الجبل المقدّس، والذي يبدأ من اليمين بعد قصر السبيكة مباشرة، وكان هو الشارع الرئيس إلى وادي آش، أما الآن، فيمتد أعلى الشارع العام الذي يربط غرناطة الرومانية ـ مونتيسيبيوم فلورنتينيوم إيبيريتانوم ـ بالمدينة (وكانت تدعى آكثي). سرعان ما نصل عن اليسار إلى حي الغجر المشهور في غرناطة، وقد فقد اليوم صيته. وفي عام 1962، إنهار الكثير من الكهوف بسبب سيول الأمطار الغزيرة، وقرّرت الحكومة إجلاء معظم الأسر إلى جهة أخرى في غرناطة أكثر حداثة، وها هي النتيجة بادية أمامك. لكن البعض من الأسر الغجرية لا يزال يعيش في الحي، ولا يزال كهف، أو إثنان يعرضان تلك الرقصات الجامحة التي طالما أبهجت السيّاح في القرن التاسع عشر، ويسمونها الثامبرا.

من بين هؤلاء السيّاح، الموسيقار الروسي غلنكا الذي قضى أشهر من شتاء عام 1845 في غرناطة، وأقام صداقة موسيقية جيّدة مع عازف قيثارة

شعبي مشهور اسمه فرانشسكو رودريغيث مورثانو الذي عرّفه بفن الغناء العميق (الكانتي خوندو) لغجر الجبل. دهش غلنكا لإمكانات الموسيقى الشعبية الإسبانية،وبدأ تجاربه التي قادته إلى تأليف "الخوتا أراخونيثا" (1845) و "ليلة صيف في مدريد"(1848)، واللتين أحدثتا اهتماماً جديداً بالأغنية الشعبية في روسيا، وفيضاً من المقطوعات المتأثّرة بالموسيقى الإسبانية لموسيقيين محليين، وأجانب. اهتم فايا بغلنكا، ونقل حماسته لهذا الموسيقار إلى لوركا. تحدّث الشاعر في محاضرته عن الأغنية العميقة عام 1922 وعن النتائج المهمة التي تمخّضت عن زيارة غلنكا إلى غرناطة، فقال: "هكذا ترون كيف نقلت غرناطة النغمات الحزينة لأغنيتنا، وسماتها الشرقية الرزينة إلى موسكو، وكيف ردّدت أجراس الكرملين الخفيّة أحزان جرس السهر"!

ويعدّ الجبل المقدّس بكهوفه، وأشجار الكمثرى الشائكة (الجومبيرا)، وصبار الأغاف (البيتا)، ومرتفعاته الجرداء التي تتوجها كنيسة القديس ميكائيل ملعباً ملهماً للعديد من قصائد ديواني "قصيدة الأغنية العميقة"، و "أغاني الغجر" فمثلاً ينتظر أنّ لوركا في "قصيدة القمر، القمر" كان يفكّر بكيران الحدادين الغجر التي شاهدها هنا، في حين أنّ التل الأسود الذي تصعد إليه سوليدا مونتويا في "قصيدة الحزن الأسود"، هو ولا شك إشارة إلى هذا "الجبل المقدّس" أما بالنسبة إلى قصيدة الدرك الإسبان، فلا محالة، تجري حرفياً في الجبل المقدّس على الرغم من أنّ لوركا يعرف تماماً بأنّ سفح

التل يعرف منذ الأزل بمدينة الغجر. أكثر من هذا حدثت أمور مقزّزة بين غجر الجبل، ورجال الدرك الذين يعتبرهم الغجر أعداءهم الحقيقيين.

غالباً ما كان لوركا في إبّان شبابه يصعد في الجبل، ويصغي إلى الغجر في عزفهم، ورقصهم، وله منهم أصدقاء عديدون. كان يذهب إليهم، لأنّهم يمثلون أعمق الجذور في الروح الأندلسية، وكان مسحوراً بغموض أصولهم، ومحافظتهم على هويتهم عبر العصور على الرغم مما تعرّضوا له من اضطهاد، وظلم على يد السلطات (أرّخه جورج بورو في كتابه "غجر إسبانيا"، 1841).

تعرّض ديوان أغاني الغجر إلى الكثير من سوء الفهم، فلم يعرف الكثيرون بأنّ قصائده ليست عن الغجر بقدر ما هي عن الأندلس. وقد سبّب الديوان الذي اشتهر بسرعة، الكثير من المشاكل للوركا، أقلّها الاعتقاد الشائع بأنّه غجري. ومرّة بعد أخرى اضطر الشاعر إلى التوضيح بأنّ غجره ليسوا أكثر من رموز. وفي إحدى المناسبات قال صراحة: "إنّها قصائد، وكأنّ أبطالها متعدّدون، لكن الحقيقة أنّ بطلها واحد هو غرناطة."

إذا كان لديك متسع من الوقت، وكنت نشطاً، فعليك زيارة دير كنيسة الجبل المقدّس على المنحدرات العالية. ويبدأ الطريق إليه على بعد مئات الياردات أمامنا عن اليسار، ويمضي عبر القنطرة. ويمنحنا صعود نصف الكليومتر، مناظر رائعة لوادي دارو (وادي الجنة)، وكرسي العربي، والحمراء، وجنّة العريف، وغرناطة نفسها، وكي نرى المزيد من المناظر الرائعة نقف على الأرض المستوية أمامنا بجانب المبنى الرئيس للدير.

سُمّي بالجبل المقدّس لأنّهم "اكتشفوا" في بعض الكهوف تحت الكنيسة الحالية عام 1595، مجموعة من الرقم الرصاصية القد يمة مكتوباً عليها بالعربية أنّ جبل فالباريسو، كما يعرف في السابق، هو المكان الذي استشهد فيه القديس ثيثيل في القرن الأول مع النصارىٰ أتباعه، ومعروف أنّ هذا القديس أول أسقف لغرناطة· وقالوا إنّ هذه "الكتب" ـ الألواح تثبت أن ثيثيل تنصّر، وكان من عرب الجاهلية· كشف عن السر لاحقاً، وظهر أنّها خدعة مدبّرة، الغرض منها إعادة تأهيل العرب المتنصرّين الذين كانوا في خطر داهم من الإبادة بعد انتفاضة عام 1568· وقد أثار الأمر ضجّة كبيرة سواء في إسبانية، أو الفاتيكان، واحتدم النقاش العلمي سنين عديدة عمّا إذا كانت الألواح حقيقية، أم مزيّفة· وأخيراً تم تكذيبها عام 1682، من قبل الحبر الأعظم، نيافة البابا الطاهر الحادي عشر، وذلك بعد سبعين سنة من طرد الموريسكيين·

سترىٰ نجمة داود علىٰ هذه المباني، ولم تكن النجمة في القرن السادس عشر حكراً علىٰ اليهود، بل كانت شائعة بين النصارىٰ، والمسلمين، ولكن بمعانٍ مختلفة· كانت ألواح الرصاص المزيّفة مزيّنة برسوم كثيرة للنجمة حتّىٰ أنّها أصبحت رمزاً للدير الذي أقيم علىٰ "الكهوف المقدّسة"·

وبحسب علمي ليست للدير الذي تآكلت زواياه علاقة مباشرة بحياة لوركا، لكن فيه مكتبة جميلة فيها مخطوطات عربية، ويضم متحفه صورة رائعة لعذراء الزهور بريشة الفنان خيرارد داود·

في عودتنا الآن إلى تل السبيكة، ننعطف يميناً، ونصعد في الشارع المرتفع. نصل في دقائق إلى كنيسة السلفادور عن اليسار. عشرون ياردة إلى الأمام، ونصل إلى ساحة ألياتار عن اليمين. من هنا نرى منظراً جميلاً لغايتنا المنشودة، كنيسة القديس ميكائيل تتربّع على قمة جبلها، ولا مكان يليق بكنيسة للقديس ميكائيل أحسن من هذا.

بعد عبور خمسة شوارع إلى الأمام نجد بيتاً ذا قوس معقود. وثمّة شاهدة على الحائط، تقول إنّ خوسيه دي مورا نحت هنا عام 1695،تمثاله المعروف يسوع الرحمة. وفي نهاية الزقاق المجهول عن اليمين بيت الأقنعة، بيت الشاعر الغرناطي من القرن السابع عشر بيدرو سوتو دي روخاس الذي أحبّه لوركا، وأصدقاؤه كثيراً. وتزيّن الأقنعة الحجرية التي سمي البيت بها المسافة الممتدة من واجهة البيت وحتّى الشاهدة التي صممها الفنان هيرمنخيلدولانث، ووضعتها جماعة الزوية عام 1926، إحياءً لذكرى الشاعر. بنى الشاعر روخاس بيته على أرض كانت للمسلمين، وجعل فيه حديقة جميلة ألهمته قصيدته الطويلة المعقّدة ووجد لوركا في العنوان أحسن وصف لغرناطة الأصيلة، غرناطة الكرمات، الجنّة المقامة على الضياع الصغيرة، ووسط الينابيع، والحقول، والزهور.

ننعطف الآن إلى الشارع التالي عن اليمين، شارع ذي الرفعة القديس غريغوريو. نسير في الشارع، ونلزم اليمين، وسيقودنا إلى ساحة الصليب الحجري. خارج الساحة، عن اليمين، يمتد شارع القديس لويس، وفيه الكنيسة المسماة باسمه على بعد ياردات عن اليسار، وقد أحرقت في

الاضطرابات التي تبعت انتصار الجناح اليميني في الانتخابات العامة عام 1933 (يتذكّر صديق لوركا إميليا يانوس غضب لوركا حين سمع بالحريق). وما زال البرج، والسور الخارجي قائمين إلى اليوم.

والكلمات الأولى التي تقولها الدونيا روسيتا في المسرحية هي: "وقبعتي؟ أين قبعتي؟ أتمّ جرس كنيسة القديس لويس ضرباته الثلاثين!" وأقول ربما كان لوركا يكتب، وكأنّ كرمة الدونيا روسيتا مقامة هنا في هذه الأبرشية.

ودرب القديس ميكائيل الذي يقودنا خارج ساحة الصليب الحجري، هو نقطة البداية في صعودنا إلى الكنيسة التي ألهمت لوركا قصائد ديوانه الشهير. وكما حذّرتك من قبل، افتح عينيك وأنت تسير في هذا الدرب الضيّق، فقد يقع مكروه.

نخرج من الدرب إلى أرض منبسطة أعلى المدينة. عن اليسار، بقايا سور عربي يصعد إلى كنيسة القديس ميكائيل تقريباً، وأسفلنا بقايا كنيسة القديس لويس. خلفنا الغوطة،وجبال الثلج، وجنّة العريف، والحمراء. أعظم مشهد في إسبانية، يزداد روعة كلّما صعدنا في التل.

والقديس ميكائيل، رئيس جنود السماء، مُخزي الشيطان، ورئيس الملائكة الذي يزن أرواح الموتى غير شفيع غرناطة كما هو شائع بين الناس، فشفيعها هو القديس ثيثيليو الذي لم يرد له ذكرٌ في أعمال لوركا كما أعتقد. ولا شك في أنّ شفيع غرناطة الحقيقي بالنسبة إلى الشاعر، هو القديس ميكائيل الذي يطل على المدينة من ديره على هذه الربوة.

وتعد قصيدة لوركا عن هذا القديس علامة مميزة في الثالوث الشعري المعبّر عن رأي لوركا في المدن العظيمة الثلاث للأندلس، والتي يمثّل كل واحدة قديسها ذو الشفاعة، الأمين على حراستها، فالقديس جبرائيل لإشبيلية، والقديس روفائيل لقرطبة. قال لوركا في معرض تعليقه على "أغاني الغجر" أنّ شفيعه القديس ميكائيل "ملك السماء، يحوم فوق غرناطة، مدينة السيول الجارفة، والجبال".

وتستحضر القصيدة، الزيارة التي تبدأ كل فجر من التاسع والعشرين من أيلول حين يبدأ عيد القديس، وكان يوماً من أشهر العطلات الشعبية في تقويم غرناطة.

واليوم لا تزيد الزيارة على صب الماء في الشراب على الرغم من الجهود الحديثة لإحيائها . يصف لنا خوسيه ساروكا يا غرو، أحد أساتذة لوركا في الجامعة، مواكب الزيارة في كتابه عن العادات والتقاليد المحلية الصادر عام 1912، ففي ذلك اليوم العظيم، تقام الأكشاك على طول الطريق الصاعد إلى الكنيسة (وهو الطريق الذي نسير فيه الآن)، وتباع على الأرض المستوية أمام الدير أنواع مختلفة من الخبز التقليدي، والكعك المظفور، والجوز، والمشروبات، والفواكه، والمرطبات. وكان الصبّار السلعة المميّزة، ينتقونه من أكمات مختلفة على سفح التل الصَلّب . ونعرف من كتاب ساروكا أيضاً أنّ لعيد القديس ميكائيل في غرناطة مضامين قويّة عن الحب، وكان من عادة المحبّين في هذه المناسبة تبادل زهور عبّاد الشمس. ويحمل العديد من

هذه الزهور إلى الأكشاك على ظهور الحمير في الليلة السابقة ليوم الزيارة · ويشير لوركا إلى هذه العادة في الأبيات الأولى من قصيدته:

ترى من الدرابزينات
صاعدة في التل، التل، التل،
بغال، وظلال بغال
محملة بعبّاد الشمس·

شيّدت كنيسة القديس ميكائيل (وهي في الأصل صومعة للتنسّك) على موقع برج عربي بُني لحماية السور· واستناداً إلى ما تقوله إحدى الخرافات، كانت على هذا المكان قبل دخول المسلمين سنة 711م، كنيسة فيها شجرة زيتون عملاقة تزهر، وتونع في اليوم نفسه· وهذا يفسّر السبب الذي يعرف به التل بتل الزيتون· أقيمت الصومعة عام 1673، ودمّرها الفرنسيون عام 1812· أما الكنيسة الحالية، فبُنيت لاحقاً· واليوم ثمّة إصلاحية ملحقة بالكنيسة· ولكي تدخل المذبح، أطرق باب الإصلاحية، وبحسب علمي لا عائق عن الدخول·والكنيسة ليست جميلة، لكن تمثال القدّيس يدهش جميع محبّي لوركا·

أقترح قبل الدخول إلى الحجرة الصغيرة، مختلى القديس، أن تنظر إليها من جناح الكنيسة المفصول عن الصحن بصف من الأعمدة· وربما راودت لوركا فكرة كتابة قصائده الثلاثية التي أشرت إليها آنفاً في هذا المكان، لأنّك سترى حين تنظر من الجناح، عن يمين تمثال القديس ميكائيل، تمثالاً للقديس روفائيل يمسك برمزه الخاص: السمكة· وسترى عن يسار التمثال

الأول، تمثالاً آخر للقديس جبرائيل الذي نعرفه من تاج الزنبق على الرأس، دليل بشارته مريم بحَبَلِ المسيح.

وتمثال القديس ميكائيل الذي ألهم لوركا قصائده من عمل النحّات برناندو فرانشسكو دي مورا، ويبدو أنّه أنجز عام 1675. ونستطيع القول بالحدس، أنّ التمثال لم يثر لوركا بهذه القوّة ما لم يحز صفات الخنوثة الواضحة. وهذا واضح في القصيدة. والموقف الكلّي لهذا الملاك غامض جنسياً، فهو على الضد من إبليس الماحق، قائد غير مقنع، يلاطف بأصابع قدمه زيز حصادٍ غريب الشكل. ويضيف حذاءاه المخرّمان، وتراتر الزينة البرّاقة، معنىً آخر إلى التخنّث. يقبض لوركا بروعة على الملاك، وزيف الدفيئة الزجاجية لمختلاه فيقول:

الملاك ميكائيل مليء بالتطاريز
في مخدع برجه،
يشهر ساقيه الجميلتين
محاطتين بالفوانيس.
رئيس ملائكة مدجّن
في إيماءة الساعة الثانية عشرة،
يتظاهر بغضب حلو
من الريش، والبلابل.
الملاك ميكائيل يغني خلف الزجاج،
إغريقي ذو ثلاثة آلاف ليلة،

معطّر بماء الكولونيا

وبعيد عن الزهور

وحين يرىٰ لوركا كنيسة الملاك ميكائيل برجاً، فلربما تذكّر المنارة العربية التي كانت تنتصب هنا ذات يوم بدلاً من هذه الكنيسة.

وتصوير لوركا لمن يشاركه نظرته الخاصة إلىٰ موكب العيد في غرناطة يقرّبنا من عالم الحزن، والحب المكبوت في "الدونيا روسيتا" حيث نجد الشخصيات المهتاجة تمضغ بذور عبّاد الشمس الرمزية. لقد رأت "سيدات الإنجاب الحزين" أياماً جميلة، ويجعل شوقهن إلىٰ الحب الضائع جلودهن سوداء، وهو التحوّل نفسه الذي يصيب سوليدا مونتويا في "قصيدة الحزن الأسود" لكن ماذا نقول عن أسقف مانيلا الذي يرئس قداساً غامضاً ذا صفين من النساء، والرجال، وماذا يفعل حقّاً؟ هذا ما لم أستطع فهمه، وأعتقد لم يفهمه أحد قبلي. أحياناً نصادف أكثر الإشارات عمقاً وإبهاماً لدىٰ لوركا، ثم نكتشف أنّها في غاية البساطة. وأعتقد أنّ الأسقف واحد من هذه الإشارات، لكني لا أحير جواباً.

والأبيات الأربعة الأخيرة العصيّة علىٰ الترجمة، عصيّة علىٰ التأويل أيضاً علىٰ الرغم من أننا هذه المرّة نلاحظ بصيصاً هادياً من النور:

القديس ميكائيل، ملك البالونات

والأعداد الوترية،

وسط فتنة بربرية

من الصرخات والمشارف

والبالونات معروفة، تُنفخ، وتطّاير من سفح التل في احتفالات عيد القديس، وهي عادة اندثرت منذ زمن· حسن، وماهي الأعداد الوترية؟ إنّها بالتأكيد إشارة إلى غموض جنس القدّيس، فعلاوة على أنّه ملك البالونات التي تطاير حول مرقده في التاسع والعشرين من أيلول، إلاّ أنّه يعلو على هؤلاء الناس الذين لا يؤلفون، أو لا يستطيعون، أن يؤلّفوا علاقات متباينة الجنس، مشتهيةً المغاير·ولتفنيد هذا، قد نذكر بحث الامبراطور اللوطي عن "الواحد" في مسرحية "الجمهور"، أو المقطوعة الشعرية "قصيدة صغيرة لا متناهية" التي كتبها لوركا في نيويورك حيث يعبّر عن رفضه المشبوب، الرقم اثنين المساوي للنساء·

علّق لوركا بنفسه على نهاية القصيدة، ففي محاضرته عن غرناطة بعنوان "كيف لمدينةٍ الغناءَ من تشرين الثاني إلى تشرين الثاني"، والتي أردفها بالإيضاحات الموسيقية، يستحضر صورة الأرض الممتدة أمام الكنيسة، وتلك المشاهد الرائعة لجبال الثلج التي تتبدّى منها فيقول: "حين ننظر إلى غرناطة من تل الزيتون تتبدّى لنا بهجة بربرية من الصرخات والمشارف، ونسمع موسيقى غامضة· إنّها الموسيقى الشاملة لغرناطة في الوقت نفسه: الأنهار، والأصوات، وأوتار القيثارة، وسعف النخيل، والمواكب، وبحر من الفواكه، والتأرجح المدوم·"

نعود على "طريق الحجيج"، فنهبط التل عائدين إلى ساحة الصليب· ننعطف يميناً، وندخل الشارع الذي يحمل اسم الساحة، والذي يحملنا ياردات أخرى حتّى نصل إلى طاقٍ عربي صغير، هو باب فحص اللوز·

ونعلم من كتاب ريتشارد فورد، أنّ الطاق كان بوابة المسافرين من غرناطة إلى مرسية في القرن التاسع عشر.

ومحلّة فحص اللوز في البيازين، والتي تتجمّع بيوتها حول الباب، مشهورة بأوانيها الفخّارية المزجّجة التي يذكرها لوركا في كتاب الانطباعات. تجد الفخّار أينما ذهبت في غرناطة، وإذا أردت تذكاراً، فبالقرب منك مصنعان. في نهاية الشارع حيث نقف الآن، ندخل شارع فحص اللوز. ننعطف يساراً، ونواصل السير حتّى ملتقى فحص اللوز، وشارع مرسية الكبير بعد مائة ياردة. سنرى المصانع على الجانبين.

ملاحظة: إذا أردت الوصول إلى كنيسة القديس ميكائيل بالسيارة، فيمكنك ذلك، إما بالانطلاق من مركز غرناطة، والسير في الطريق المؤدّي إلى وادي آش، ومرسية، أو الانطلاق من البيازين إذا كنت تنوي رؤية الجبل المقدّس أولاً. وإذا اخترت المكان الثاني، فستغادر الحي حيث يلتقي شارع باخيس ـ تتمّة تل السبيكة ـ بالشارع الرئيس إلى وادي آش، ومرسية ثم يمضي يميناً. بعد نحو مئتي ياردة من السير من هذه المحطّة المعلّمة بوضوح، سترى مصانع الفخّار آنفة الذكر. انعطف يميناً، عند الإشارة الضوئية، وسر نحو شارع فحص اللوز، ثم اصعد يساراً في التل. سترى على البعد، الكنيسة عن اليمين، وتصل إلى الشارع الذي يقودك إليها. وحين يكون الكتاب بين يديك، يكون المستثمرون قد هدموا المنحدرات خلف الكنيسة،

وبنوا مئات الشاليهات، وسيطلق على المكان مدينة البيازين الجديدة. قامت معركة بسبب موقع المدينة أعلى الطريق الجانبي، ومرّة أخرى يخسر المدافعون عن البيئة. انتُهكت حرمة تل القديس ميكائيل بأسلوب غرناطي أصيل. والحقيقة، فالمعجزة أنّ قصر الحمراء ما زال باقياً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجولـة الثامنة: موت شاعر

الزمـن: نحو ساعتين بالسيارة (52كم)

لا نعرف بالضبط الطريق الذي سلكته السيارة حاملةً لوركا سائرةً به من المدينة إلى موته المحتوم. لكننا نستطيع التخمين جيداً. وعلى الأرجح أنها سارت إلى نهاية شارع الدوقة، وبعد أن انعطفت يميناً في شارع القبطان الكبير، مقابل دير القديس خيرونيمو (وخلفه مقر قيادة الكتائب)، مضت في شارع القديس خوان. وأعتقد أنّها حين قطعت الشارع اجتازت تتمّة الشارع الكبير (وهو اليوم شارع الدستور)، وهذا ما فعلناه نحن أيضاً في جولتنا الثانية. وحين صار المستشفى الملكي عن اليسار، صعدت السيارة في شارع مأوى الغرباء.

إذا كان هذا خط الرحلة، فلا بد من أنّ السيارة انحرفت يساراً في نهاية شارع المأوى، واتجهت إلى شارع الدير الملكي، وهو شارع مرصوف بالحصى، ومزروع جانباه بأشجار السنط، تلتقي في نهايته عدّة طرق. لكننا نمضي قدماً (توجد لافتة تشير إلى بلد الفخّار)، ونصل في لحظات قليلة إلى كنيسة الدير القرطوجي عن اليمين. وللكنيسة مدخل باروكي جميل، كان لوركا يحبّه، فإذا كان لديك متسع من الوقت، فلا بد من أن تزورها.

حين نمضي في الطريق إلى الفخار نصل إلى مجمع سكني عال ذي عدّة طوابق. بعد أربع إشارات مرورية نصل إلى المنعطف المؤدّي إلى قرية فثنار عن اليمين.

ومهما يكن الطريق الذي سلكته السيارة التي حملت لوركا، وخرجت به من غرناطة، فلا بد من أن يلتقي، والطريق المؤدي إلى القرية هنا. والظن الوحيد أنّ فرقة الإعدام اتجهت إلى الفثنار عن طريق قرية الفخار القريبة، لكن لا دليل على أنّها دارت دورة كاملة وذهبت في هذا الطريق الطويل.

ولم يكن هذا الشارع عام 1936، غير درب ضيّق للعربات، كان السير فيه مرعباً حتى نهاية السبعينيات. ولا بد من أنّها كانت رِكْبةً صعبة على لوركا، وغالندو تلك الليلة.

في صعود السيارة إلى قرية الفثنار يكون وادي البيرو عن اليمين. وكما قلت من قبل، فالنهر ظامىء من غير ماء تقريباً. على الجانب الآخر من هذا النهر الوهمي، وعلى بعد كيلومترات قليلة، ترتفع مداخن مصنع ألفارغو للبارود الذي قام بدور مهم في الحرب.

يستغرق الوصول إلى الفثنار نحو خمس عشرة ثانية من السياقة الحذرة. والجزء الأخير من الشارع شديد الارتفاع.

حالما تدخل القرية استدر يميناً، وتوقف عند الساحة الصغيرة للنافورة المزخرفة. هنا، وفي قصر رئيس الأساقفة موسكوسو يا بيرالتا المبني في القرن الثامن عشر، أقام الكتائبيون حصنهم حين اندلعت الحرب. كان الأمر واضحاً للثّوار بأنّ القرية العالية ستصبح مركزاً مهماً في الصراع لدحر

غارات الجمهوريين التي تنطلق منها مستهدفة شمالي شرقي العاصمة، فحصّنوها بما استطاعوا.

رأس فرقة الكتائب نقيب شاب اسمه خوسيه ماريا نستاريس، وكان قبل الحرب مسنوداً من دائرة الأمن في غرناطة. يكره الجمهورية، ومن أكبر المتآمرين في المدينة. وفي فثنار أصبح هو الآمر الناهي، وفي يده مقاليد الحياة والموت.

ثمّة شاهدة على مدخل القصر تسجّل الدور الذي قام به في الحرب:

أقيمت ثكنات الكتائب الإسبانية الأولى
لغرناطة في هذا القصر في 29/ 7/ 1936،وكبرت
داخل هذه الأسوار لتصبح الربع الأول، ثم
الثلث الأول لقوّات الكتائب الإسبانية التقليدية
في غرناطة، والتي أمّنت في المعارك الشرسة
سلامة عاصمتنا من هجوم الماركسيين الشرس.

لم تكن فثنار مجرّد موقع عسكري، بل إحدى المواقع الرئيسة التي يعدم فيها ثوّار غرناطة سجناءهم. وكلمة إعدام لا تناسب ما كان يحدث هنا، ولو قلنا الاغتيال الذي يسبقه التعذيب لاقتربنا من الوصف الصحيح. كان نستاريس على اتصال دائم بفالديس. وكل ليلة تأتي الشاحنات من مقر الحكومة المدنية والقرى المجاورة محمّلة بدفعات جديدة من "غير المرغوب فيهم" وكان على العربات القادمة من غرناطة المرور أولاً ببوابة قصر

موسكوسو حيث يتم تبادل الأوراق الرسمية مع قيادة الكتائب قبل الدخول وصعود التل باتجاه الفخّار.

وينتظر أن تكون السيارة التي أقلّت لوركا، وغالندو غونثاليث، قد توقفت هنا لحظة، على الرغم من عدم وجود شاهد على ذلك.

ومن الساحة هناك، لا يوجد غير طريق واحد يتوقع أنّهم سلكوه، وهو ذلك الطريق الذي يحاذي سور القصر، ثم يصعد مبتعداً عن القرية. وفوق فثنار، تتوقّف الأرض عن الصعود. ثمّة شاهدة برونزية عن يميننا، تقول إننا ندخل شارع الشهداء. وكانت الشاهدة الأصلية، سهلة المكسر، فحطّمها مخرّب مجهول، ويبدو أنّه يميني متطرّف غضب لرؤية بلدية فثنار الاشتراكية تكرم بهذه الطريقة المئات من "أعداء إسبانية" الذين قتلوا أسفل الشارع تماماً. أما ما حلّ بالشاهدة البرونزية، فلا أعرفه، وربما أزالها المتطرّفون أيضاً، أو أنّها استُبدلت بأخرى، والكتاب قيد النشر.

تمتد تحتنا أراضي الغوطة، وعلى طرفها سلسلة جبال البيرة الجرداء بمنحدراتها العارية التي لا تقارن بخضرة السهل الخصيب، وغناه الوافر. وأمامنا مباشرة، ترتفع جبال الفخّار التي ينتصب الصليب على أعلى قمّة فيها.

على بعد مائة ياردة، تماماً قبل المنعطف الحاد، توجد عن اليسار، فسحة تكفي لإيواء سيارة (تأكّد تماماً من عدم وجود سيارة قادمة، وأسرع في الصعود). تحت الشارع تماماً، وبجانب ساقية جميلة، بقايا متفرّقة من البناية

التي قضى فيها لوركا ساعاته الأخيرة (وقد هدمت في السبعينيات)، ولا شك في أنك تريد الوصول إليها.

في أيام الجمهورية كانت هنا مقصورة كونشا التي بنيت حول طاحونة قديمة (في زيارتي الأخيرة رأيت قسماً من حجر الطاحونة مرمياً بجانب الساقية). كانت المقصورة تستخدم في الصيف بيتاً للتلاميذ من غرناطة، وكانوا يطلقون عليها "المستعمرة" وحينما حول الكتائبيون قرية فثنار إلى منطقة عسكرية نهاية تموز 1936، أرسلوا التلاميذ إلى بيوتهم، وتحوّلت المقصورة إلى سجن مؤقّت. هنا كانت السيارات تأتي كل صباح، ومساء محمّلة بمجاميع جديدة من الأبرياء. تخيّل بيتاً ارتبط بسعادة الطلاب، ومرحهم يتحوّل بين عشيّة وضحاها إلى منزل للموت.

أحضروا مجموعة من الماسونيين و "غير المرغوب فيهم" من غرناطة لحفر القبور اللامعلّمة. وأطلق البعض من هؤلاء الحفّارين، النار على أنفسهم فيما بعد. أما بالنسبة إلى القتلة، فمعظمهم من متطوّعي "الفرقة السوداء"، ومعهم البعض من رجال الشرطة الجمهوريين ـ حرس الهجوم ـ الذين أُجبروا على المشاركة في الإعدامات عقاباً لهم على عدم استجابتهم للقوميين. وبين الحين، والآخر، يظهر عدد جديد من المتطوّعين.

كانت الضحايا تحشر ليلاً في الطابق الأرضي حتى الفجر، وكان قس أبرشية فثنار قريباً، فينادونه ليسمع اعترافاتهم الأخيرة لو رغبوا. وفي الطابق العلوي غرف وضعت في تصرّف رجال الإعدام.

في الأشهر الأولى من سنوات القمع كانت في المستعرة امرأتان على الأقل: ماريا لويزا الكالدي غونثاليث، وهي امرأة جذّابة، وقيادية بارزة في الجناح اليساري في غرناطة، حماها نستاريس، فجعلها تطبخ الطعام لهم. وامرأة أخرى انكليزية اسمها فرانسيس تيرنر، قيل إنّها عملت ممرضة في فثنار، وقيل شاركت أحياناً في عمليات القتل. ولم يشأ القنصل الإنكيزي وليم دافنهيل الحديث عن هذه الشابة التي كانت تسكن بالقرب منه، وكانت معروفة بالفروسية في غرناطة. لكن جيرالد برينان يؤيّد بعض المعلومات التي سمعها، ويشير في الفصل المعقود لغرناطة في كتابه "وجه إسبانية" (1950) إلى الخط الملتوي الذي سلكته تيرنر، فيقول:

> ننظر بعين الصدق لنرى كيف هاج الشر بين الناس، وذهب بهم الهوج بعيداً، فنجد فتاة انكليزية بسيطة كان والداها يسكنان غرناطة قد ارتدت لباس الكتائب، وانتطقَت بالمسدس، وصارت تتفاخر كأي سينوريتا إسبانية بالمشاركة في الإعدامات، وقتل الرجال بيدها. وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية عادت إلى إنكلتره، والتحقت بالإسعاف.

عادة ما تتم الإعدامات قبيل الفجر، وأحياناً في النهار. وكان على الحفّارين مواراة القتلى حيث يسقطون على الأرض وفي أي بقعة من هذا الوادي العريض. فلا غرابة لو عرفوا أنّهم أمام جثة صديق، أو قريب.

نعرف من بعض الشهود أنّ لوركا قضى ساعاته الأخيرة هنا في المستعمرة. وتهمنا خاصة، شهادة خوسيه خوفير تريبالدي. كان هذا الشاب كريم الأصل في الثانية والعشرين حين بدأت الحرب، وكان يقضي عطلته في فثنار. ولكي يتخلّص من الدعوة إلى الجيش طلب من النقيب نستاريس صديق الأسرة العمل معه بحسب قابليته، فهيأ نستاريس له العمل حارساً في المستعمرة. وكان في خفارته حين وصل لوركا. وككاثوليكي مؤمن، إعتاد إبلاغ ضحاياه بأنّهم سينقلون في صباح اليوم التالي للعمل في التحصينات،أوترميم الطرق. وحين تحين الساعة الأخيرة لا مفر من إخبارهم بالحقيقة المروّعة. وكان يعتقد أنّه يعمل خيراً. وإن شاء السجناء، فلهم أن يطلبوا القس لسماع اعترافاتهم، أو يعطوا الحرّاس رسائلهم الأخيرة إلى أهليهم (ونعتقد أنّها لم تصل إليهم).

كان مع لوركا، وغالندو غونثاليث اثنان من مصارعي الثيران من غرناطة، هما خواكان أركواس كابيثاز، وفرانشسكو غالادي ميلغار، والاثنان من ثوار الميلشيا الذين طالبوا بتوزيع السلاح على الشعب، والثورة توشك أن تندلع، فكان اعتقالهما في البيازين يعني الموت لا محالة.

من موقع المستعمرة، يمضي الطريق ملتوياً حول الوادي باتجاه الفخار ترافقه قناة تعبر على بُعد نصف ميل قناةً أخرى هي الآن بعيدة عنّا حيث ينعطف الطريق بحدّة عن اليسار.

أمامنا مباشرة غابة على شكل إسفين، فيها أشجار صنوبر عالية تمتد إلى الخلف باتجاه السفح حتى تصل إلى النتوءات الصخرية لجبال الفخار. وهذا

هو أخدود فثنار سيء السمعة حيث ترقد جثث أغلب ضحايا النظام الذي كان يصدر الأوامر من المستعمرة. حفرت القبور قليلة العمق في كل أنحاء المنحدر (ولم تكن الأشجار موجودة حينها) لترمى فيها الأجساد، وتغطّى بطبقة خفيفة من الأحجار، والتراب. وحين زار جيرالد بريننان المكان عام 1949، وجده "محفوراً حفراً قريبة القعور دونها أكوام من التراب، وعلى كل كومة صخرةٌ صغيرة" وفي أوائل الخمسينيات أزيلت هذه الصخور، وهي الدلائل الوحيدة على القبور، وزرعت المنطقة بأشجار الصنوبر، وذلك على ما يبدو لتغطية حوافِ القبور التي ظلّ البعض منها واضحاً حتى بعد خمسين سنة.

أقترح عليك الزحف على المنحدر الصخري ومشاهدة المنظر، وأكبر حفرة في الأخدود، وينتظر أن تضم على الأقل مائة جثّة، حفرت في مكان جاف منخفض صيفاً، يتحوّل في الشتاء إلى بركة ماء، لا تصعب عليك رؤيتها، فهي وسط أشجار الصنوبر، معلَّمةٌ بصليب حجري مرتجل. وفي كل يوم في التاسع عشر من آب يأتي الزوّار من محبي لوركا لزيارة هذا المكان بمناسبة الذكرى السنوية لوفاته. تلقى القصائد، ويتكيء الناس إلى أشجار الصنوبر، فثمّة أشجار بالفعل.

وفي الأيام الأولى للحرب لم يكن القتلى يحملون إلى الأخدود، بل يدفنون في غابات الزيتون التي كانت تملأ الوادي كلّه، وليس كما هو الحال الآن. إذاً دعونا نكمل الطريق.

يلتف الطريق الآن حول الوادي، وما زالت الساقية تجري بجانبه. سرعان ما نصل عن اليمين إلى متنزه فدريكو غارثيا لوركا الذي أنشيء للمحافظة على البقعة التي قتل فيها الشاعر، وصحبه، وفي الوقت نفسه كبادرة طيّبة لإحياء ذكرى من مات في الحرب الأهلية.

على الجانب الآخر من الشارع، قبل الساحة، مجمع كريه لشقق العطلات اسمه الكركورال.

بين عام1936، و 1950 لم تكن ثمّة بناية في هذه الأنحاء. بعدها بدأ المستثمرون بالتحرك، فخصّصت بلدية غرناطة الأرض لإقامة ساحة تذكارية في الوقت المناسب. ولو لم تضع يدها على الأرض لرأينا اليوم المقصورات على رفات لوركا.

ثمّة أشياء عن الساحة لا بد من أنّك لا تحبها، مثال ذلك المدخل التذكاري الضخم، والنافورة السخيفة عن يمينه. لكنهم على الأقل حافظوا على الزيتونة، واعتنوا بها بجوار المكان الذي قتل فيه الشاعر، وتركوا الأرض المحيطة بها كما كانت . وسترى الزيتونة في نهاية الساحة عن يسار المدخل، بجانب البوابة الثانية.

سيق السجناء الأربعة هنا قبل شروق الشمس،أما في 18 أو 19 آب 1936ـ حيث تستحيل معرفة التأريخ المضبوط، مع أنّ اليوم الأول أكثر رجحاناً. كانت ليلة السِّرار. القمر خافٍ، ولوركا شاعر القمر لم يحظ حتى بذلك العزاء. لا يوجد وصف موثوق للحظات الأخيرة من حياة الشاعر. لا تسجيل لكلماته إن قال شيئاً. لا طلب، أو رجاء. هل أحسّ بذلك

التطابق الغريب بين قدره، وقدر بطلته ماريانا بنيدا؟ هل فكّر بأمّه، بحبّه الأخير لروفائيل رودريغيث رابون، وتذكّر البعض من الأبيات العديدة التي تعبّر عن رعبه من الموت، حتّى أنّه تذكر هواجسه السابقة عن موته؟ يصعب علينا نحن المحبّين للرجل وأعماله أن لا نعرف الإجابة.

واستناداً إلى مصدرين محايدين، فإنّ الشاعر لم يمت فوراً بالرصاصات الأولى، فكان لا بد من رصاصة الرحمة. وتقول الحكايات الشفهية الأخرى غير المؤكّدة، لكنها شديدة الإقناع، بأنّ الشاعر ضُرب، وسُب قبل إطلاق الرصاص عليه. وكان بين القتلة واحد من شركاء رامون رويث ألونسو، اسمه خوان لويس تريسكاسترو، جاء متأخّراً ذلك الصباح إلى غرناطة وقال متفاخراً بأنّه ساعد للتو في قتل لوركا، وأطلق "رصاصتين على أُسّته كلوطي." تلك هي عقلية البرجوازية التي انتقدها الشاعر قبل شهرين على صفحات "الشمس"، كبرى صحف مدريد الحرّة.

وصل الحفّار بعد لحظات، وهو شاب شيوعي يدعى مانويل كاستيلا بلانكو، وكان في حماية نستاريس في المستعمرة. وسرعان ما تعرّف على مصارعي الثيران، ودهش لرؤية الضحية الثانية بساق خشبية، والرابعة بربطة عنق محلولة، "كما تعرف، طريقة الفنانين في اللِبس." قام بدفنهم في خندق ضيّق، ووضع الواحد فوق الآخر بجانب الزيتونة عينها التي تحرس اليوم الصخرة البسيطة التي تسجّل ما حدث هنا. وحين عاد كاستيلا إلى المستعمرة أخبروه بأنّ الرجل ذو الساق الخشبية، هو معلّم في القرية المجاورة، وذاك ذو الربطة المحلولة، هو الشاعر فدريكو غارثيا لوركا.

قبل إعدام لوركا ذلك الصباح، قُتل على الأقل مئتان وثمانون رجلاً في مقبرة غرناطة، وكان مجموع القتلى في المدينة، والقرى المجاورة أعظم من ذلك بكثير. قرّر الفاشيون تصفية حسابهم مع كل المناوئين اليساريين، وبقدر تعلّق الأمر بلوركا، كان مجرّد "مثقف أحمر" آخر، وإن كان ذميماً خاصة.

حين اندلعت الحرب، كان عازف القيثار أنخيل باريوس صديق لوركا من أيام الزوية يقضي الصيف في فثنار. وحين سمع الخبر المرعب بمقتل الشاعر قام باتصالاته الخاصة، واكتشف المكان الذي قتل فيه. وبعد أيام قليلة زار المكان، فوجد القبر مغطّى بالجبس، والمنطقة كلها نتنة من كثرة الجثث المتعفّنة.

هل عرف لوركا بأنّه سيقتل في مكان ذي معان شعرية غنيّة؟ أعتقد ذلك. فعلى بعد مائتي ياردة من الشارع عن اليسار، وباتجاه الفخار، عين ماء تعرف بالعين الكبيرة، أنا واثق أنّها ستسحرك . ولا بد من أنّ لوركا عرفها ما دامت مشهورة منذ زمن طويل في غرناطة.

وكانت كل هذه الأنحاء في زمن لوركا عارية تقريباً عن كل زرع، وخالية من أي بناء حول العين. ومنذ الخمسينيات بدأت تعمر بالسكان وفقدت الكثير من سحرها. لاحظ هذه الكنيسة الصغيرة المرعبة التي بنيت فوق العين، ولاحظ صلبانها الثلاثة التي تبدو كالصواريخ المستعدة للانطلاق بواسطة التحكّم عن بعد، أكثر من كونها رموزاً للحب المسيحي.

والمسلمون الذين أسرتهم المياه في العين، وهي تفور باستمرار، وتصعد إلى السطح دعوها بعين الدمع، وشقوا في القرن الحادي عشر قناةً تحمل الماء من العين إلى غرناطة. وبعد ألف سنة تقريباً، والساقية تجري بالمياه إلى المدينة، ثم تدور حول وادي فثنار حيث كانت تحرّك نواعير المستعمرة (ولا بد من أن لوركا أنصت إلى خريرها في تلك الليلة الأخيرة)، ثم تسقط على الفرجي، فتسقي مصنع البارود، لتدور بالمياه حتى وقت قريب حول تلال البيازين.

كانت مياه العين أكثر قوّة وغزارة مما هي اليوم، لكن ريتشارد فورد (وربما لم يأت بنفسه إليها) وصفها "بعين ماءٍ واسعة يتدفق ماؤها، ويعلو عدّة أقدام."

أحبّ المسلمون جمال المنطقة المحيطة بالعين، وبنوا قربها مستعمرة من البيوت الصيفية. لم يبق منها أثر اليوم، ربما بسبب هزّة أرضية. لكن بقي العديد من القصائد العربية في مدح جمال العين، منها أبيات للقاضي الشاعر المؤرّخ، أبو البركات ابن الحاج البَلَفِيقي (*) المتوفى عام 1372م، حيث يقول:

---

* هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن خلف السُّلمي. من مشاهير قضاة الأندلس. وبلفيق حصن من عمل مدينة المرية. تولى القضاء في بلاد عديدة، منها مالقة، ثم قضاء الجماعة بحضرة غرناطة. كما استعمل في السفارة بين الملوك. له من الشعر ديوان كبير سماه "العذب، والأجاج"، وكتاب "المؤتمن" في أبناء من لقيه من أبناء الزمن. توفي في المرية (المترجم).

ألا خـلّ دمـعَ العـين يهمـي بمقلتـي

لفرقـة عـين الـدّمعِ وقـفٌ عـلىٰ الـدمِ

فللـــماءِ فيـــه رنّـــةٌ شـــجنيّةٌ

كرنّـــة مســـلوبِ الفـــؤادِ متـــيّمِ

وللطـــير فيـــه نغمـــةٌ مَوصِـــليّةٌ

تـــذكّرني عهـــد الصـــبا المتقـــدم

وللحســـن أقـــمارٌ بـــه يوســـفيةٌ

تـــردُّ إلىٰ ديـــن الهـــوىٰ كـــلَّ مســـلم

**

حرّي بعين الدمع التي غنّىٰ لها شعراء غرناطة المسلمون، أنْ توالي سكب مائها الزُلال بالقرب من الراحة الأبدية لأعظم شاعر أنجبته هذه الديار في إسبانية. و لو عرف القتلة المعاني الأدبية للنبع لاختاروا بقعة أخرىٰ تافهة ينفذون فيها مهمّتهم القذرة كآخر دليل علىٰ وحشيتهم. وخيرٌ لم يفعلوا.

لكي نعود إلىٰ غرناطة، فأحسن طريق نسلكه، أن نمضي بسيارتنا إلىٰ الفخار التي توسّعت كثيراً بطريقة كريهة وفي سنوات قليلة. والشيء الوحيد

الذي لا ينسى من المدينة، خبزها المعروف منذ زمن بعيد في غرناطة. اتبع علامات الطريق إلى غرناطة، وحالما تجتاز المدينة الممتدة عشوائياً فإنّه سرعان ما يعود بك إلى حيث اتجهنا من قبل إلى فثنار. مكتبة سُر مَن قرأ

الجولــة التاسعــة: عين رعاة البقر

(مسقط رأس الشاعــر في (الغوطة)، بَلَدْروبيو، ومُقلين

المسافـة: نحو مائة كيلومتر. سبعون كيلومتراً من دون مقلين. خمس ساعات بالسيارة· أقل بساعة من دون مقلين·

من الأفضل الاتصال بمتحف لوركا في عين الرعاة قبل الخروج إلى القرية للتأكّد من ساعات الزيارة· رقم الهاتف: 3546440 (859).

السيارة ضرورية· أما إذا كنت تنوي زيارة عين الرعاة فقط، فانظر الملاحظة في نهاية الجولة· توجد حافلات مباشرة تنطلق كل ساعة من شارع الأندلسيين خلف محطة القطار (تستغرق الرحلة نحو عشرين دقيقة، وسيزوّدك المتحف بتفاصيل دقيقة عن الحركة)·

***

حينما ذهبت إلى قرية عين رعاة البقر أول مرّة في ربيع 1965، ركبت تراماً صغيراً، كان في تلك الأيام يذرع الثمانية عشر كيلومتراً التي تفصل

القرية عن غرناطة. كانت رحلة بطيئة ممتعة بين الحقول، توقف الترام عند كل قرية. واأسفاه، فقد اختفى الترام.

أنصح لك أن تتجه أولاً إلى قرية "سانتافي" (الإيمان المقدس) التي تبعد عشرة كيلومترات عن غرناطة (باتجاه 342 ش لوشة، وملقة، وإشبيلية). بنى القرية، الملكان فرديناند وإيزابيلا في أثناء حصار غرناطة عام 1491 ـ ويقال أنّها بنيت في ثمانين يوماً ـ وما زالت تحتفظ بشكلها الأصلي المربع الذي يعتمد على شكل المخيّم الروماني. وإذا وقفت وسط الشارع المجاور للساحة الرئيسة ستجد أنّك وسط صليب، ترى منه كل بوابة من البوابات الأربع، وما زال فوق ثلاثة منها المصلى الأصلي الخاص بها. وفي نهاية عام 1491، وقّع في هذه القرية الملكان الكاثوليكيان، والوزير أبو القاسم عبد الملك مبعوث أبي عبد الله الصغير شروط استسلام المدينة، المقبولة لدى المسلمين ـ لكنها سرعان ما نُقِضت. والمعاهدة الأصلية محفوظة في دار الوثائق بغرناطة، الواقعة كما أسلفنا في الجولة السابعة في قصر قرطبة، أسفل تل السبيكة. وعملت بلدية غرناطة نسخة رائعة عن هذه المعاهدة.

و"سانتا في" مشهورة لسبب آخر. هنا في 17/ 4/ 1492، وبعد فترة قصيرة من تسليم غرناطة إلى النصارى، وقّع فرديناند وإيزابيلا عقداً مع كرستوفر كولومبوس (لم يحترماه أيضاً) أدّى إلى اكتشاف أمريكا. وفي الثالث من آب من تلك السنة أبحرت "سانتا ماريا" و "ألبنتا" و "ألنينا" من ميناء بالوس دي لافرونتيرا، ووصلت إلى العالم الجديد في الثاني عشر من تشرين الأول.

لا شك، في أنّ الشاب لوركا عرف منذ صباه، الدور التأريخي لسانتا في، فجدود أمّه منها · وحينما كان طفلاً، كانوا يمشون به من هنا في الطريق إلى غرناطة، وهو محمول على العربة القديمة التي يذكرها في رسالة إلى صديقه ملشور فرناندیث ألماغرو·

نواصل السير باتجاه 342 ـ ش · وعلى مقربة منا عن اليمين ترتفع سلسلة جبال بارابانده التي يقول ريتشارد فورد في دليله السياحي، إنّها مقياس الضغط الجوي للغوطة (وقد اقتبسنا الفقرة في الجولة الثالثة)· والمثل الشعبي يقول إذا رأيت غيمةً على البارابانده، فاعلم أنّ السماء ستمطر شاء الرب، أم أبى· ولوركا يعرف المثل جيداً، فجعل إحدى الشخصيات في ماريانا بنيدا ترددە· واليوم لا نرى على قمة الجبل الصخرية العارية التي تطل على منظر خرافي للسهل غير صواري التلفزيونات العالية·

على بعد خمسة كيلومترات من سانتا في، ننعطف يميناً عن اللافتة متجهين إلى قرية شوشينا على بعد كيلومتر واحد·

عاش في شوشينا الأنموذج الغجري الأصلي لأنطونيو توريس هيريديا، ابن وحفيد الكامبوريين، أكثر الشخصيات حيوية وغنىً في ديوان أغاني الغجر· اسمه الأصلي لويس كورتيث هيريديا، وأبوه قصّاب له دكان في القرية· وكان لويس مشهوراً بوسامته، وهندامه، وحظوته عند النساء· كان عازف قيثار فذّاً، واستناداً إلى ما تقوله أوريليا غونثاليث غارثيا، إحدى خالات لوركا المحبوبات في قرية العين، لا تكتمل الحفلات من دون لويس· وفي ليلة من حزيران 1904، وكان عائداً إلى البيت بعد حفلة ساهرة،

سقط من حصانه ودُقّ عنقه. كان فدريكو يومها في السادسة من عمره، ولا بد من أنّه سمع بمأساة لويس الذي أصبح بالنسبة إليه أسطورة. وذات يوم ولد من جديد على صورة البطل الغجري أنطونيو توريس هيريديا، "القطعة النقدية الحيّة التي لا يمكن استبدالها"، والذي قتله أبناء عمّه الحاسدون.

وكان لشوشينا في طفولة لوركا شخصية ظريفة أخرى هي شخصية رئيس بلديتها الذي يحترمه الناس لغرابة أطواره. واستناداً إلى ما يقوله جار لأسرة لوركا في قرية العين، فإنّ رئيس البلدية في "زوجة الإسكاف العجيبة" يدين بالكثير من خصاله لرئيس بلدية شوشينا.

إذاً لشوشينا أهميتها في دنيا لوركا.

نتبع علامات الطريق إلى قرية الرعاة، وسرعان ما نجد أننا قد غرنا في الغوطة بين حقول الذرة، والتبغ، وبساتين الحور الكثيفة التي يشتهر بها الإقليم، وتستخدم في صناعة الصناديق. لحظات، ونصل إلى جسر غير بارز مقام على شينيل . تقل مياه النهر في الصيف، ويذكرني وسط النهر بقصيدة لوركا "الزوجة الخائنة" التي يتم حدثها كما أوضح لوركا مرّة في "ليلة غوطية العمق قَصَبيّةِ الظل".

قبل أن ندخل قرية الرعاة بعد النهر تماماً، بودي أن أريك شيئاً خاصاً، هو برج ساعة عربي قديم، حيث كان لوركا يلعب، وهو طفل. وهذا سر لا يعرفه الكثيرون، والحقيقة أني لا أُفشي الأسرار، ولكن لا يزال الكثير... إذاً لنذهب في الطريق الضيّق غير المعبّد، والذي يمضي بعيداً عن اليسار حتّى

يصل تماماً إلى ما قبل الجسر. أتوسّل إليك أن لا تثير الكثير من الغبار في سياقة سيارتك، والأمثل أن لا تأتي بها.

تلوح لنا على البعد من جديد جبال البارابانده، ونرى على الضفة الأخرى للنهر، أول بيوت قرية رعاة البقر. بعد كيلومتر، ونصف الكيلومتر تنتهي بساتين الحور، ونرى عبر الحقول عن اليسار، برجاً يمكن الوصول إليه. من زقاق يؤدي إلى قرية روميلا التي نراها أقصى المكان (ثمّة زقاق، أو زقاقين عن اليسار قبل هذا الزقاق، فاختر بالغريزة).

يوضح لوركا في نص ذاتي مبكّر بعنوان "قريتي" يدور حول طفولته في قرية عين الرعاة، واستناداً إلى ما يقوله أبناء القرية، فإنّ البرج مسكون بسحلية ضخمة انتهكت حرمات القبور في مقبرة روميلا الصغيرة، وأكلت جثث البنات، لكنّها "احترمت" الميّتين، فلم تمسسهم. ويقول إنّه كان خائفاً حين صحب رفاقه إلى البرج.

يعرف البرج ببرج روما، وهو اسم يحتاج بعض الشرح.

كان المسلمون خبراء بالبستنة، ومهندسين بأمور المياه، أنشأوا في الغوطة نظام ريٍّ معقداً ما زال مستخدماً إلى اليوم، إستغله الرومان أحسن استغلال. وظلّت الغوطة سبعمائة سنة، جنّة الله على الأرض، يقول عنها مؤلف عربي أنّها تبز غوطة الشام في السعة، والخصوبة (وهذا نقلاً عن كتاب ريتشارد فورد). لكن حين سقطت غرناطة بأيدي النصارى، أخذت الغوطة بالتدهور والانحسار، ويوماً بعد يوم تضاءلت أراضيها الزراعية، وجاءت

الطامة الكبرى عام 1609 حين طُرد الموريسكيون من أراضيهم (وهم العرب الذين أُجبروا على التنصّر).

وتقريباً، فإنّ برج روما يشير إلى نهاية إحدى الضياع الكبرى في قلب الغوطة، هي ضيعة روما (سوتو دي روما) والتي تعود بملكيتها إلى ملوك غرناطة المسلمين. لماذا روما؟ يختلف المؤرخون على أصل الكلمة (وليست لها علاقة بسميتها الإيطالية). وينتظر أنّها من الجذر العربي لكلمة رومي بمعنى النصراني. ويؤيّد هذا الرأي، الواقعة التأريخية حين قامت فلورندة ابنة الكونت جوليان بفتح بوابات إسبانية للمسلمين،فاتُهمت بالخيانة. ويقال أنّها عاشت بالقرب من قرية روميلا. أما بالنسبة إلى كلمة "سوتو"، فمشتقة من الجذر اللاتيني لكلمة "سالتوس" وتعني المرج، أو الضيعة، أوالبستان. إذاً يبدو أنّ "سوتو دي روما" تعني بستان الرومية.

ويختار ريتشارد فورد أصلاً آخر أجده أقل إقناعاً، فيقول إنّ روما مشتقة من كلمة الرمّان العربية. على هذا، فإنّ "سوتو دي روما" تعني بالنسبة إليه بستان الرمان. ويعزّز فورد هذا الاشتقاق، فيقول إنّ الناس في غرناطة، ما زالوا يأكلون نوعاً شهياً من سلطة الرمان يسمونه "إنسلاطة رومانة" (وقدبحثت بنفسي عن هذا الطبق، فلم أجده).

قسّم فرديناند وإيزابيلا أرض الغوطة ـ ألفي كيلومتر مربع ـ بين نبلائه. واعتنى الملكان بضيعة روما، وجعلاها خاصة بهما، وبأحفادهما. ومنذ ذلك اليوم أضيف إلى اسم الضيعة لقب الملوك، فصارت تسمّى بالأرض الملكية "ريال سيتيو".

كانت الضيعة في القرن السادس عشر، أرضاً كثيفة الشجر تعجّ باللاعبين. ويشير خينيس بيريث دي هيتا في كتابه " حروب غرناطة الأهلية" (1595) إلى كثافة خضر المنطقة، فيقول: "ما لم تكن عارفاً بالطرق، فما أسهل أن تضيع" وحتّى بعد خمسمائة سنة، لا يزال الناس يذهبون في الطريق الخطأ في غابات الضيعة التي تغطّي معظم أراضيها بساتين الحور (أما الأنواع الأخرى من الشجر، فقلعت منذ زمن بعيد).

ظلّت ضيعة روما ثلاثة قرون بيد التاج الملكي. ولم تستثمر إلاّ قليلاً، فكان الغرض منها، أولاً توفير الجو المناسب لرياضة الصيد والقنص التي تزاولها الأسرة المالكة، وكانت في زياراتها القليلة تقيم في القصر الملكي المشيّد حيث يلتقي كوبيلاس، وشينيل على بعد نصف ميل من قرية عين الرعاة. (وكان شينيل يجري شمال القرية. لكن وبسبب السيول التي حدثت عام 1827، فاض النهر، وحطّمت المياه ضفتيه بالقرب من سانتا في، فغيّر اتجاهه إلى جنوب القرية كما نرى اليوم).

ما زلنا بحاجة إلى النزر اليسير من التأريخ، ففي سنة 1765، أعطى شارل الثالث، الضيعة إلى ريتشارد وول، ابن مهاجرين أيرلنديين، وكان سفير إسبانية لدى قصر القديس جيمس، ووزيراً للخارجية بين 1754-1764 . وبدأ هذا الريتشارد وول (ولا بد من أنّه كان وسيماً) ببناء كنيسة سيدة البشارة في هذه القرية الصغيرة، قرية عين رعاة البقر. لكنّه توفي عام 1777، قبل أن يكحل عينيه برؤية الكنيسة، فعادت ملكية الضيعة إلى التاج الملكي، والذي أهداها بعد فترة قصيرة إلى الوضيع مانويل غودي، وزير

شارل الرابع، وخليل زوجته المتربّلة ماريا لويزا التي برع الرسّام غويا في رسمها. لم يزر غودوي ضيعة روما، وحينما سقط في أعين الناس عام 1805 بعد هزيمته أمام نيلسون في الطرف الأغر، ورُمي به إلى المنفى، عادت ضيعة روما إلى التاج الملكي من جديد.

أربع سنين أخرى، وأخذت ملكية الضيعة منعطفاً جديداً، ففي عام 1812، أصبح آرثر ويلسلي، أول دوق لولنغتون، ومحطّم نابليون في سلامنكة، ومعبود إسبانية الأول. وكتعبير عن العرفان والامتنان لدوره في هزيمة الفرنسيين (والتي مال الإسبان إلى التقليل منها)، منحه برلمان قادش الحر عام 1813، لقب دوق مدينة رودريغو، كما وهب له، ولأحفاده إلى الأبد ضيعة روما، وإقطاعات أخرى في المنطقة العليا، شمالي غربي الضيعة، يسمونها طاحونة الملك. وكان مقدّراً لضيعة سوتو التي كانت ذات يوم للمسلمين أن تبقى مائة عام ونيّف حكراً على أسرة ويلسلي.

عام 1813، كانت الضيعة تفخر بأهاليها السبعمائة الذين يعيشون في عدّة قرى أكبرها قرية عين رعاة البقر. ولم يزر السير آرثر أطيانه في غرناطة التي كانت تديرها في القرن التاسع عشر مجموعة من الوكلاء عادة ما يكونون فاسدين غير كفوئين، يغيبون عن أعمالهم. وشذّ منهم رجل واحد هو المدير الأول، الجنرال أولولور. وكان هذا ضابطاً معاوناً لولنغتون في أثناء الحملة على شبه الجزيرة الإيبرية، فخدمه بإخلاص. والآن، فقد ضمّ مركزه السابق قائداً عاماً لغرناطة إلى موقعه الجديد وكيلاً للدوقية. وفي عام 1831، قضى ريتشارد فورد بضعة أيام في قرية العين مع أولو لور، ويشير في

كتابه آنف الذكر معلّقاً على جهود كل من وول، وأولولور، فيقول، إنّ الضيعة تدين في إحيائها مرّتين إلى " العناية الإيرلندية".

وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت الضيعة عرضة دائمة لفيضان شينيل. وكل خريف حين تهطل الأمطار، يفيض النهر، ورافده كيوبيلاس، وتفيض قنوات الري في الضيعة. وكانت المياه تكتسح الجسور الخشبية الواهية. وحينما يرتفع منسوب المياه في النهرين يضعف الاتصال بين مستأجري الأرض والعالم الخارجي من ناحية، وبينهم وبين الأرض نفسها من ناحية أخرى. وبسبب الرطوبة، كانت القرى مواطن موبوءة حتى بداية القرن العشرين.

أراد هوراثيو هاميك، صديق الدوق الثاني لولنغتون، ومدير أعماله، زيارة قرية العين في خريف 1854، لكن الأمطار منعته. وكان أسعد حظاً بعد أربعة أعوام، فاستطاع بعد مصاعب كثيرة بلوغ القرية، فوجدها، ووجد ضيعة سوتو في حالة عامة من الخراب، والكثيرين يقاسون شظف العيش، والشحاذين نصف عراة في كل مكان. تعطّلت الزراعة، ونقص الخبز إلى درجة رهيبة، والناس يموتون من الحمّى. ويقول هاميك في "ضيعة دوق ولنغتون الإسبانية" (1885): "والناس يتضرّعون إليك بصدق لتخبر الخالق [...] بحالهم البائسة."

لكن إذا كانت الفيضانات تجلب الجوع والبؤس كل عام إلى ضيعة روما، فمن الحق القول إنّ الأرض تدين بخصوبتها إلى الطين، والرمل اللذين تحملهما مياه شينيل، وكيوبيلاس، وتفرش بهما الأرض عاماً بعد

عام· وتربة قرية العين التي تدين لهذين النهرين كانت وما زالت غنيّة، وهذا ما يحب لوركا ذكره كلّما سنحت له الفرصة·

تزايد سكان سوتو في القرن التاسع عشر، فبلغ عام 1868 نحو ثلاثة آلاف نسمة· ويعود جزء من هذه الزيادة السريعة إلى الاختراعات الزراعية التي أدخلها بالتدريج، الوكلاء الإنكليز· أما السبب الآخر، فهو الطلب الصناعي الملحّ على خيوط القنّب، والكتّان التي ازدهرت صناعتها في الغوطة (يقول ريتشارد فورد إن قِنّب الغوطة أحسن قنّب في العالم)· وكان هاميك يرتأي بأنّ النظام الذي يسمح لمستأجري أرض الدوق بتأجير واستئجار الأرض إلى ما لا نهاية تقريباً، نظام يساعد على زيادة السكان أيضاً·

وفي نهاية عام 1880، ظهر عامل حاسم آخر، لم يرفع من تطوّر ضيعة سوتو ورفاهيتها حسب بل الغوطة كلّها، ألا وهو نجاح زراعة شمندر السكر· وسرعان ما أصبحت الغوطة أشبه بخلية نحل من النشاط والعمل، وارتفعت المداخن العالية من معامل صناعة السكّر (وسنرى البعض منها لاحقاً)، واغتنى العديد من أصحاب الأرض، منهم فدريكو غارثيا رودريغيث، أب الشاعر· وجاء ضياع كوبا من إسبانية، وانضمامها إلى الولايات المتحدة عام 1898 دفعة قويّة أخرى رفعت من شأن هذه الصناعة الجديدة، ذلك لأنّها أنهت عصر استيراد السكّر الرخيص من الجزيرة· اتسعت الأراضي الزراعية وتعاظمت، وحينما ولد لوركا في قرية العين في 5/ 6/ 1898، كان والده من أغنى أغنياء القرية·

أعتقد أنّ هذا يكفي عن ضيعة روما.

يلتقي نهر الكيوبيلاس بشينيل في منطقة لا تبّعد كثيراً عن برج روما. وإذا رغبت في مشاهدة هذا الملتقى الساحر، فاستدر يساراً حتى تعود ثانية إلى ضفة شينيل. وحينما زرت المنطقة آخر مرّة، كان الطريق لا يسمح بالوصول إلى ملتقى النهرين سيراً على الأقدام. وستتمتع أنت أيضاً بهذه النزهة القصيرة.

نعود الآن إلى الجسر. ننعطف يساراً، ونمضي في سيرنا إلى قرية العين، فنصل في دقائق قليلة.

قاموا حديثاً بتهذيب ساحة القرية التي لا تشبه في شيء المرج حيث كان لوركا يلعب وهو طفل، وكانت النسوة ينشرن الملابس بعد غسلها بماء العين، والتي سميّت القرية باسمها (وحتى هذه تغيّرت).

ولد لوركا في البيت رقم 4 ـ شارع الثالوث، ويقع أعلى الزاوية اليسرى للساحة، إذا ما نظرنا إلى تمثال الشاعر الذي أنجزه المثّال كيتانو أنيبال. اشترى البيت، مجلس بلدية غرناطة، ويطلقون عليه الآن متحف بيت فدريكو غارثيا لوركا، فتح بابه للجمهور في 29/ 7/ 1986. ومنذ ذلك اليوم، وآلاف الزوّار يصلون إلى البيت الذي يقع مدخله إلى الخلف في شارع مانويل دي فايا.

تزوّج فدريكو غارثيا رودريغيث، والد الشاعر، زوجه الأولى ماتيلدا بلاثيوس ريوس عام 1880. وكانت مثله من أولاد القرية. أبوها ميسور الحال يملك أرضاً خاصة تقع خارج ضيعة روما (وكل الأرض داخل

الإقطاعية كانت مؤجّرة من الدوق). وعادت الزيجة بالنفع على الشاب فدريكو الذي كان في العشرين من عمره وسُرَّ والد ماتيلدا بالزوج الذي اختارته ابنته، وبنى للعروسين هذا البيت الفاره.

سارت الحياة بسلام. لكن الزوج صُدم حين وجد ماتيلدا عاقراً. وفي 4/ 10/ 1894، أي بعد أربع عشرة سنة من الزواج، ماتت ماتيلدا فجأة بسبب "إنسداد معوي"، كما تذكر شهادة الوفاة، فانتقلت ملكية البيت إلى الزوج الأرمل، ومعها مبلغ لا يستهان به من المال. بعد سنين من ذلك، وحين كان لوركا يكتب "يرما" ويفكّر مليّاً بخيبة المرأة القروية العاقر، لا بد من أنّ ماتيلدا تمثّلت له. قال مرّة، إنّ الهواجس انتابته، وهو طفل من صور تلك المرأة التي كان لها أن تكون أمّه قبل أمه.

ومنذ افتتاح متحف لوركا عام 1986، ومديره المسؤول الشاعر الغرناطي خوان دي لوكسا، الرجل المناسب في المكان المناسب. وأرجو أن يكون في منصبه، والكتاب بين يديك، فتراه وتتحدّث إليه. وحين يجول بك في أركان البيت، ويريك مخلّفات الشاعر ـ معطفه، والطبعات الأولى من أعماله، وأشرطة الفيديو، ومكتبته، ومخطوط النسخة الأرجنتينية من "عرض الدون كرستوبال للدمى" ـ فهي متعة لا تعادلهامتعة.

لاحظ حين صعودك إلى الطابق العلوي حيث تقام المعارض، الصورة المطبوعة على الحجر من لوحة يسوع قماش مقلين (والتي سنزورها لاحقاً). وتعدّ الرحلة السنوية إلى هذه الصورة المعجزة أمر مشهور في غرناطة، وأحد الأشياء التي ألهمت لوركا كتابة "يرما".

انتقلت عائلة لوركا عام 1902، أو 1903 إلى البيت رقم 2 في شارع الكنيسة، أول شارع عن اليمين، خلف الساحة. وكان البيت يقع على الزاوية اليمنى، وقد هدم منذ سنين لإنشاء بناية جديدة. ويتذكّر لوركا بحزن في مقطوعته النثرية المبكّرة "قريتي" الألعاب التي كان يقيمها في عُليّة الدار. ونستشف من الوصف، أنّه حين ينظّم بنفسه هذه الفعاليات، ويصدر الأوامر للأتراب فإنّه يعوّض ما ينقصه من خفّة الحركة، ورشاقة الجسم. على هذا، فإنّ الشاعر لم ينسَ ألعاب طفولته، وأغانيها في قرية العين، فهي جزء من الأساس الذي بنى عليه أعماله.

لا بد من زيارة الكنيسة الصغيرة في نهاية الشارع. هنا وفي 11/ 6/ 1898، عُمّد شاعر المستقبل فدريكو ديل سغرادو كوراثون دي جيسيس (فدريكو قلب يسوع المقدّس). وكانت أمّه المعلّمة، بيثنته لوركا، كاثوليكية متديّنة غالباً ما تأخذ ابنها إلى الكنيسة، فتأثّرت نفسه بطقوس القربان، والمواكب الدينية، والاحتفالات. ويتذكّر بحنان في "قريتي" برج الكنيسة الصغير، "الواطيء جداً بحيث تصعب رؤيته من البيوت، وحين تقرع الأجراس تبدو أصواتها وكأنّها تنبعث من جوف الأرض." وكان بجانب المذبح تمثال باسمٌ لعذراء الحب الطيّب،"تضحك دائماً، وسذاجة بسيطة على تاجها الصفيح المرصّع بالنجوم، والترتر اللمّاع." استخفى التمثال منذ زمن، ولم يذكر لي أحد ممن تحدّثتُ إليه في القرية السبب.

فُتن الصبي لوركا بطقوس الكنيسة، وشعائرها، فأخذ يقلّدها بطريقته الخاصة، وكان "إلقاء الموعظة" إحدى ألعابه المفضّلة. كان في الباحة الخلفية

سور واطيء يجلس عليه الصبي ليؤدي دور العذراء، وبجانبه بعض الزهور التي قطفها من الحديقة. يتحلّق الخدم، وأفرادالأسرة، والأصدقاء أمام السور، ويلفّ لوركا جسمه بتشكيلة منوّعة من الثياب القديمة المتروكة في العليّة،ويؤدي أمامهم لعبة القدّاس بقناعة شديدة. وكان من عادته قبل بدء التمثيل أن يفرض حضوره، فمن واجب المصلين البكاء لسماع الموعظة.

في أحد الأيام وصلت إلى القرية فرقة للدمى المتحرّكة، ولم يكن فدريكو قد شاهد عرضاً للدمى من قبل، فاشتدت حماسته لرؤية المسرح الصغير ينصب في الساحة. واستناداً إلى ما تقوله كارمين راموس صديقة الأسرة ومرضعة لوركا، كان تأثير العرض عظيماً حتّى أنّه أقام في اليوم التالي مسرحاً مرتجلاً للدمى بدلاً من "المذبح" السابق على سور الحديقة.

أعتقد أننا لا نرى في ذلك الإتصال الأوّل بتراث العرائس الأندلسي أصول حب لوركا لهذا الفن حسب (وكتب بنفسه بعض مسرحيات الدمى)، بل حماسته المتأخّرة في العمل مع فرقة العربة الجوّالة التابعة لجامعة مدريد، والتي بدأ إدارتها منذ عام 1932.

معروف عن أهالي العين حبهم للكتب، وهو حب يشترك فيه جميع أبناء فدريكو تقريباً. كيف نفسّر هذه الظاهرة، وإلام نرجعها؟ نعلّلها بالحقيقة القائلة بأنّ القرية تخص دوق ولنغتون، وقد عزلت الظروف المزارعين عن بقيّة الناس في السهل، وعوّضتهم رؤية واسعة للحياة، والعالم من حولهم وذلك باتصالهم بالانكليز البروتستانت. من ناحية أخرى، كان الناس يستاؤون من الانكليز، فزيادة على ما يعتمل في صدورهم من ضغينة

كمستأجرين في أرض النبلاء الأجانب، وبغض النظر عمّا قدّمه جدودهم من خدمة لرفاه إسبانية، فإنّهم لا يأخذون غير أدنى الأجور (ودائماً ما تكون سلعاً لا نقداً).

أما بالنسبة إلى الانكليز أنفسهم، فلهم رأي آخر سقيم بمستأجريهم. فهم لا يثقون بهم، ويتحدّثون عن "السمعة المريبة" للقرية وعن مهيجي العامة المتطرّفين الذين يثيرون مشاعرهم. ويبدو واضحاً أنّ آل ويلسلي يعتقدون بأنّ شارل الثالث زرع المنطقة في القرن الثامن عشر بالمجرمين، وأدّى هذا إلى نشوء "طبقة متمرّدة" من الناس عرضة للثورة. لكني لا أجد دليلاً على هذه الدعوى، ثم إنّ الثورة المزعومة للقرية ليست بحاجة إلى مثل هذا التفسير الرجعي. وببساطة، فقد شعر القرويون بالذل من عبوديتهم للأجنبي (والتي تحرّروا منها في بداية العشرينيات).

مهما كانت الأسباب، فالحقيقة تقول إنّ قرية عين رعاة البقر تختلف عن باقي القرى في الغوطة. أهلها متحرّرون، "أناس متمرّدون، دائماً وأبداً ضد السلطة" (كما وصفهم وكيل انكليزي ساخط)، لا يهتمون بالدين، منفتحون، وتقدّميون بصورة مذهلة. ولا تشذّ عشيرة لوركا عن المجموع.

كان لوركا في السابعة تقريباً حينما انتقلت الأسرة إلى "قريته الثانية" أسكيروسا. وكان يقول باستمرار، إنّ طفولته في العين تركت في نفسه أعظم الأثر. وحينما جاءت الجمهورية عام 1931، انتخبت القرية مجلساً اشتراكياً، كان أول ما قام به إطلاق اسم الشاعر على شارع الكنيسة الذي عاش فيه

منذ أن كان في الرابعة. (وحينما احتل الثوّار القرية في بداية الحرب الأهلية أعادوا للشارع اسمه الأول).

حضر لوركا الاحتفال بإطلاق اسمه على الشارع، وعبّر في الكلمة التي ألقاها عن امتنانه للقرية التي صنعت منه شاعراً، فقال:

> قد تصدّقوني لو قلت بأنّي شديد الامتنان، وأنّي حين أكون في مدريد، أو غيرها [...] ويسألوني أين ولدت، أجيب دائماً بأنّي أبصرت ضوء النهار الأول في عين الرعاة، هكذا قد تصيب الشهرة التي أصابتني، قرية العين البهيجة هذه، الحديثة المتسامحة [...] بنيت على الماء. تهمس جداول السقي في كل جنباتها، وتنمو فيها أشجار الحور الباسقة حين تعزف الريح صيفاً ألحانها الرقيقة. وفي قلبها تماماً عين ماء تتدفق باستمرار، وخلف سقوف بيوتها ترتفع الجبال المحيطة بالغوطة ـ لكنها شديدة البعد، وكأنّ هذه الجبال لا تحب لمنحدراتها الصخرية الوصول إلى القرية حيث التربة الغنية الخصبة التي تجعل كل الفواكه تنمو، وتونع.

كان والد لوركا الابن البكر لتسعة أولاد، بنين وبنات كلّهم تزوّجوا، وأنجبوا، والنتيجة أن كان للوركا أكثر من أربعين ابن عم، وعلاقات

اجتماعية وثيقة زادها الحب قوّة. وكان أبناء غارثيا الذين عاشوا في قرية العين جيلاً بعد جيل أناساً موهوبين يميلون كثيراً إلى الأغاني الشعبية، والشعر الذي ورثه فدريكو عنهم، وصفّاه. وظلّت سنوات طفولته المبكّرة في العين وما جاورها من القرى باقية لا تمحى من النفس ولا تُضعف ذكراها الأيام. عام 1934 أخبر الصحافيين في الأرجنتين قائلاً:

> أحبّ الريف. أشعر أنّي مرتبط به بكل جوارحي. ولذكريات طفولتي المبكّرة عبق الأرض. وقد خلقت المروج، والحقول الأعاجيب لي. حيوانات الريف البريّة، والمواشي، والناس الذين يعيشون في الأرض، كلّها ذات سحر لا يعرفه غير القلّة من الناس. ولولاها لما كتبت " عرس الدم" وترتبط تجاربي العاطفية الأولى بالأرض والعمل فيها. إذاً ففي جوهر حياتي ما يدعوه علماء النفس بعقدة الحقل.

وبعد سنة من ذلك أخبر صحافياً آخر في إسبانية قائلاً:

> "فوق كل شيء، أحبّ البساطة. تعلّمت العيش البسيط في طفولتي، في القرية. تعرف أنّي لم أولد في غرناطة، إنّما في قرية يدعونها عين الرعاة."

حين ننتهي من زيارة عين الرعاة، نسير في الشارع المستقيم المحفوف بالأشجار، والذي يمتد بعيداً عن الساحة خلف تمثال الشاعر، وهو الطريق

الذي يوصلنا إلى أسكيروسا، واسمها اليوم بَلَدُ رُوبيو، والتي انتقلت إليها عائلة لوركا عام 1907.

بعد أن نسير نصف كيلومتر، نجد زقاقاً ينعطف نحو مقبرة عين الرعاة، وإذا وجدت متسعاً من الوقت، فيمكنك الذهاب إليها في زيارة قصيرة. لكن عليك أن تسأل عن الطريق إليها، إن لم يكونوا قد نصبوا العلامات الدالّة بعد زيارتي الأخيرة للمقبرة. وستجد العديد من أقارب لوركا مدفونين هناك.

نصف كيلومتر آخر في الطريق إلى بلد روبيو، ونصل إلى القصر الملكي عن اليسار. وقد رُمّم منذ وقت قريب، وهو الآن بأيادٍ أمينة. وحينما زار هوراثيو هاميك، قرية العين عام 1858، وجد القصر خرباً: لا شبابيك، أو أبواب. الجدران منهارة،والطابق العلوي يحتله الغجر. وقضى فورد أياماً هنا عام 1831 بصحبة وكيل الدوق أولو لور، ورسم صوراً جميلة للبيت، وكان في حال جيدة.

بعد القصر الملكي بمسافة قصيرة، نصل إلى جسر فوق كيوبيلاس. ويعيّن النهر الحدود الغربية لضيعة روما، وتزدحم ضفتاه بأشجار الحور. كانت هذه إحدى الأراضي الساحرة حيث لعب لوركا، وهو طفل. وأنصح لك بنزهة بين الأشجار. وقد تغيّر الجو قليلاً منذ تلك الأيام حين كان شاعر المستقبل يجول هنا.

نخرج من بساتين الحور إلى أرض ممتدة من الغوطة. يميناً عبر الحقول التي كانت تعود إلى والد الشاعر، تنتصب مدخنة عالية كانت لمصفاة معمل

القدّيس باسكوال لصناعة السكّر، وكان للدون فدريكو أسهم رئيسية في المعمل (أغلق منذ سنين عديدة، وهو اليوم زريبة للخنازير).

نسير في الشارع الخشن غير المعبّد الذي يمضي بعد خمسين ياردة من أشجار الحور باتجاه المدخنة، فنجتاز المعمل القديم، ونصل إلى الجسر الذي يقطع خطوط السكة الحديد من غرناطة إلى لوشة، وملقة. نرى عن اليمين، محطّة مهجورة، هي محطة نزول القديس باسكوال، والتي يمكن الوصول إليها سيراً على الأقدام من الشارع. وفي عدّة رسائل كتبها لوركا إلى أصدقائه يضع عنوانه الصيفي باسم هذه المحطة. من هنا نرى مناظر رائعة للغوطة، وجبال الثلج، خصوصاً قبل المغيب.

أمامنا حيث تلتقي الغوطة، ومنحدرات الأراضي اليابسة تقع قرية زخيرا. وينسب لوركا البعض من القصائد التي كتبها في هذه الأنحاء، والتي يضمها ديوان "كتاب القصائد" إلى هذه القرية. وأغلب الظن، أنّه لم يشأ لاسم قريته أن يظهر مطبوعاً. ولكن لماذا ؟ صدق، أو لا تصدّق، إنّ اسم قريته أسكيروسا يتوافق مع الصفة، وتعني مقزّز، أو غث.وأصل الاسم الذي ليس له علاقة بالصفة، موضع جدال. وأغلب الظن، أنّه من الكلمة اللاتينية "أكوا"، الماء.لكنها قد تعني مغمور بالماء، "أكويروسا"، أو ماء عذب "أكواروسا"ويؤكّد البعض أنّ الكلمة مشتقة من الأصل اللاتيني لكلمة "أركوس"، قوس.ولهذا تلفظ بالإسبانية القديمة "أركيروسا"، أما أسكيروسا فتصحيف متأخّر. وتستمد نظرية رماة السهام بعض التأييد من اكتشاف المقابر الرومانية في القرية، وهذا يعني أنّ المكان كان مخيماً رومانياً.

مهما يكن، فأركيروسا هو الاشتقاق الذي يفضله لوركا. كتب إلى ميلشور فرناندیث ألماغرو عام 1921 يقول: "أنا في أركيروسا (كما ترى، فقد غيّرنا الاسم)."

كان مانويل دي فايا يتسلّى ضاحكاً من النقاش الدائر حول اسم قرية لوركا.وبعد زيارة قام بها مع أخته ماريا ديل كارمين إلى أسرة الشاعر في صيف 1923، قال مازحاً: "غالباً ما نتذكّر الساعات الرائعة التي قضيناها في آسك ـ إيل ـ روسا".

عام 1943 غير الإسم إلى بلد روبيو، وتعني وادي التبغ اللطيف، إشارة إلى التبغ الأشقر الذي كان يزرع بكثرة في هذه المناطق.

نعود الآن إلى الشارع الرئيس، وحالما نصل إلى نهايته التي تظللها أشجار الحور ننعطف يميناً، ثم يساراً إلى شارع آخر. عن اليسار حقل بديع يمتد حتى أطراف بلد روبيو، وكان كله ملكاً لوالد لوركا. أفضّل أن نكون بيئيين صالحين، ونودع سيارتنا هنا، فمحطتنا القادمة لا تبعد غير دقائق قليلة، نصل إليها سيراً على الأقدام.

بعد حوالي نصف كيلومتر نصل إلى منطقة عن اليسار، تعرف بعين القرميد تقع بجانب نهر كيوبيلاس، لها بوابة خضراء صغيرة، ومساكب للزهور. هذه هي أرض الحور، والظلال، وطيور الشادي، أرض الضفادع، ودجاج الماء، والسكينة. حينما كان لوركا طفلاً، كان غالباً ما يأتي إليها وحده أو مع أصدقائه من أبناء القرية، وظلّ على هذه الحال حتى كبر،وصارت الأسرة تقضي وطراً من الصيف في أسكيروسا.

والأرض مكان منعزل نقرأ فيه قصائد لوركا الأولى بعنوان "غوطة زخيرا" أو "الحان" (وهو ديوان لم يَسْعَ لوركا إلى نشره، وقام أندريه بيلاميش، الخبير الفرنسي بأدب لوركا بجمعه من صحائف متفرّقة وطبعه)· ونجد في مقطوعة نثرية بعنوان "تأملات الماء، واستعاراته" مؤرّخة في عام 1921، إشارة مباشرة إلى عين القرميد، حين يقول الشاعر، إنّه يأتي إليها في الصيف· طيور الوروار، النسيم بين الحور، صرير زيزان الحصاد، أعماق العين الخضر، أشجار الغرب المتهدّلة بجوار "لسان الماء"(*)، القصب، الماء الرقراق··· هنا "على ضفّة النهر الباردة" يحلّق لوركا بجناحي الخيال، ويشعر بأنّه جزء من عالم الماء في تجلّياته التي لا تعد، ولا تحصى·

في "كتاب القصائد" و"ألحان" لا ينفصل الحور حبيب الشاعر عن ضفاف الكيوبيلاس، ويظهر مرّة بعد أخرى في رسائل تلك الفترة· كتب لوركا سنة 1921 عينها رسالة إلى ميلثور فرناندیث ألماغرو، يعبّر فيها عن الفرح بعودته إلى الغوطة بعد فترة قضاها في مدريد· ويقول إنّه استعاد هنا بين هذا "الحور الموسيقي والأنهار الشعرية"، هدوء البال، وصفاء النفس، ونسي المشاعر التي كانت تنتابه "في برج المدينة، وكأنّها سرب نمور" ـ كما يقول· وتسلّم الرسّام غريغوريو بريتو، رسالة مماثلة يبوح فيها لوركا بالسر

---

* يقول لوركا في محاضرته عن غنغورا إنه سمع مرة فلاحاً في غرناطة يقول: الصفصاف دائماً يجب أن يكون على "لسان النهر".

نفسه· وبعد أن يحيي صديقه من "هذه الغوطة الغرناطية الرائعة"، يقول إنّه "محاط بالحور، بالنهر، والصفاء، بالسماء الشفافة·"

يا لجمال أقمار الغوطة في الصيف ! ولوركا الشاعر القمري الذي لا يضاهيه شاعر في حب القمر، يطرب، وتأخذه النشوة حين يعتلي القمر سماء الغوطة· يكتب إلى الموسيقي أدولفو سالازار قائلاً: "في الليلة التالية، اعتلى الضباب الأزرق لجبال الثلج، قمرٌ أخضر مصبوغ بالأرجوان " وتأخذه الحماسة في رسالة أخرى "لليالي البدر الفيروزي في الغوطة"·

نعود الآن إلى سيارتنا، ونقودها تلك المسافة القصيرة إلى قرية لوركا الثانية، وحالما ندخل القرية، ننعطف بالسيارة يساراً لنرى الكنيسة عن اليمين · نرى على الحائط شاهدة في ذكرى الاحتفال المهيب الذي أقيم في 15/ 8/ 1943حين أطلق على القرية اسم بلد روبيو· وكما ترى لا توجد أيّة إشارة إلى إسم القرية "المقزّز" السابق، وكأنّها ولدت في ذلك اليوم من عام 1943، ونشأت من العدم· لكن الاسم القديم سيبقى خالداً، والفضل للوركا حيث عاش، وكتب·

حينما انتقلت أسرة لوركا من عين الرعاة إلى أكسيروسا، سكنت أولاً في شارع أنشا (هو اليوم الشارع الملكي) ويمتد بجانب الكنيسة· أما البيت، فهو ذاك الذي خلف الكنيسة مقابل بيت فراسكويتا ألبا، الأنموذج الأصلي لبرناردا ألبا·

ولدت فراسكويتا ألبا عام 1858 (قبل والد لوركا بسنة)، وكان لها ابن، وبنتان من زواجها الأول· مات الزوج، فتزوّجت ثانية عام 1893 من

أليخاندرو رودريغيث كابيلا الذي يكبرها بسبع سنين، وأنجبت منه أربعة أولاد آخرين، ثلاثة بنات، وابن هو أليخاندرو الذي أخذ من أبيه الاسم، والشكل . وكان هذا بعمر لوركا، وزميله في الصف في مدرسة القرية. ماتت فراسكويتا عام 1924، ومات زوجها بعدها بسنة. وعلى الرغم من أنّها تُذكر إلى اليوم بقوّة الشخصية، إلاّ أنّها لم ترب أولادها كأرملة حُرمت الزوجين، وهذا ما أثبتته الأيام. أما استبداد ألبا بعد ترملها، فأمر من خلق لوركا.

فُتن لوركا، وهو طفل، بالحكايات التي كانت تقصّها خالته المحبوبة مرسيدس ديلاغادو غارثيا عن ألبا وأولادها، وكانت الخالة جارتهم، وتتشارك الأسرتان في بئر واحدة خلف البيتين يقسمها سياج. وكان ما يقال في البيت الأول يسمعه الأبناء في البيت الثاني من فُرجةٍ بينهما، فكانت مرسيدس وأخوتها يعرفون ما يدور في بيت جارتهم.

تزوّجت إميليا، إبنة فراسكويتا ألبا من زوجها الأول، خوسيه بينافيديس من قرية روميلا (والتي رأيناها خلف قرية برج روما). ويُدعى أبناء هذه القرية الرومانوس. وحين ماتت أميليا، تزوّج بينافيديس (ويسمونه في القرية بيبيكو روما) أخت الزوجة المتوفاة، كونسيلو،وكانت هي البذرة التي أنمى منها لوركا الدور المشهور لبيبي رومانو في "بيت برناردا ألبا".

وثمّة استعارات أخرى في المسرحية مستمدة من الحياة اليومية في القرية، كالحوار الذي يعكس لهجة أبنائها، وهو حوار مثير مفعم بالحياة على

الرغم من أنّ الشخوص مبطّنة نوعاً ما حين نقارنها بشخوص قرية عين الرعاة. كذلك نجد فترات الحِداد الطويلة، وكانت أمراً مألوفاً في القرية، قليلاً ما يبالغ فيه لوركا. ونجد العيون التي تتلصص من الستائر، والفضول لمعرفة الفضائح الجنسية. نجد الحاصدين حين يصلون إلى القرية كل صيف قادمين من التلال المحيطة بالغوطة، ويعدّ وصولهم حدثاً سنوياً تتطلّع إليه بنات القرية بأمل، ولهفة. ونجد الحرارة الشديدة التي تسحن القرية في الصيف.

من ناحية أخرى، وكما هي الحال في كل أعمال لوركا، "فالحقائق" ببساطة هي نقطة البدء حيث ينطلق العمل الأدبي. وما برناردا ألبا إلاّ تعظيم خيالي لفراسكوتيا ألبا. ولا يدهشنا كثيراً حين نعرف، أنّ أمّ لوركا توسّلت إلى ابنها أن يغيّر اسم فراسكويتا الأخير كي لا تغضب الأسرة. ولو قدّر للوركا العيش، ورأى مسرحيته، لتقبّل نصيحة أمّه، ورضي بالخسارة الجسيمة التي يسببها ضياع الدلالات الرمزية للاسم (وهو صفة مدروسة من البياض) والتي تتطوّر بتطوّر المأساة.

وليست مصادفة، أن يكتب لوركا مسرحية عن الاستبداد. وأبسط الناس يعرف بأنّ اليمينيين يدبّرون لقلب نظام الحكم في إسبانية. وبرناردا بنفاقها، وكثلكتها التعسّفية، وتصميمها على إخماد الحريّات، تمثّل عقلية لا يعرفها حق المعرفة إلاّ الشاعر نفسه. زيادة على ذلك، فحين يطلق لوركا على المسرحية عنوان "بيت برناردا ألبا" فإنّه يحمّل المحيط الذي تتحرّك فيه هذه المرأة الطاغية، وتحقق وجودها كل المسؤولية، ويجعل هذا القصد واضحاً

من العنوان الفرعي: "دراما عن النساء في قرىٰ إسبانية" وحينما وصف لوركا المسرحية، بأنّها "تسجيل فوتوغرافي" فقد كان يعني بأنّها نوع من التقريرية المعاصرة عن إسبانية الرجعية، يلتقطها باللونين الأبيض والأسود. تقول برناردا: "الفقراء كالحيوانات، يبدون وكأنّهم من طينة غير طينتنا." وحين يكتب لوركا عن تجربته الخاصة في الريف الإسباني، فإنّه يعي مرارة فشل الإصلاح الزراعي الذي تَعِدُ به الجمهورية ـ والذي بُدء العمل به في السنتين ا لأوليين من الحكم التقدّمي، ثم شُلَّ بقدوم اليمين إلىٰ السلطة عام 1933، وما زالوا يريدون تحقيقه في حزيران 1936 حين انتهىٰ لوركا من كتابة المسرحية.

أخيراً، أميل إلىٰ القول بأنّ لوركا كان يكتب، ويفكّر في أبيه. وينتظر أن فدريكو غارثيا رودريغيث الإقطاعي الوحيد القوي في أسكيروسا الذي يؤمن بالديمقراطية، والجمهورية، وكانت له مناوشات مع نظرائه الذين يكرهونه لدفاعه عن فلاحيه، حتىٰ أنّه ذهب بعيداً، فبنىٰ بيوتاً لهم. لم يسمع أهل القرية بمثل هذا الكرم من قبل، وهذا يفسّر وجود شارع في القرية باسم هذا الشيخ الجليل الكريم. كان الدون فدريكو الإقطاعي البلدي "الطيّب"، عكس برناردا ألبا تماماً. والمسرحية في جانب منها ثناء وتقدير غير مباشرين علىٰ والد الشاعر.

لا بد من أن نضيف هنا، أنّ الفاشيين حين جاءوا البيت يفتّشون عن لوركا كان بينهم بعض الرجال من أسكيروسا ممن يعارض الشاعر

كمعارضته أباه الدون فدريكو غارثيا رودريغيث (أنظر الفصل السادس)· وقد ناقشتُ هذا بالتفصيل في كتابي الأول عن موت الشاعر·

حالما وصلت الأسرة إلى القرية، انتقلت إلى شارع الكنيسة القريب، وسكنت البيت رقم 20 الذي اشتراه الدون فدريكو عام 1895· يمتد الشارع من الساحة المقابلة للكنيسة عند تقاطعه عند الزاوية اليمنى مع الشارع الملكي· أما البيت، فيقع عن اليمين، ويشغله اليوم المكتب المحلي للحزب الاشتراكي· ويحتفظ الفناء الخلفي للدار بأشياء قليلة مما كان يعرفه لوركا، فكانت فيه حديقة للزهور، وأشجار، وشجيرات· أنا واثق بأنّ لوركا في قصيدته الرائعة "1910 ـ اللحن الفاصل" التي كتبها في نيويورك، يتذكّر تلك الحديقة" حيث تأكل القطط الضفادع"، وحيث يوجد في الزريبة إلى الخلف بضع ثيران تستخدم في الحراثة ـ أو هذا ما أكّده لي الجيران· وهذا قد يفسّر الإشارة إلى "خطم الثور" في القصيدة، وهي من الذكريات الواردة في القصيدة عن البيت· كما أنّ عنوان القصيدة التأريخي، أمر ذو مغزى أيضاً، فحينما انتقلت الأسرة إلى غرناطة عام 1909 كان لوركا يقول دائماً إن فصله عن جنة طفولته حدث عام 1909 (وكان يدعي أيضاً أنّه ولد في 1900 وليس في 1898)· وبالنسبة إليّ، فالقصيدة من أكثر القصائد إثارة للمشاعر: يتذكّر بحنين قاتل، وهو في قلب الحاضرة الأمريكية، تلك القرية الصغيرة الغارقة وسط غوطة غرناطة، ويضعها نصب عينيه·

الحقيقة، أننا لا نعرف غير النزر اليسير عن السنتين أو الثلاث التي قضاها الشاعر هنا قبل انتقال الأسرة إلى غرناطة في عام 1909· وبحسب

علمي، أنّه لم يكتب شيئاً عن تجاربه في مدرسة القرية، أو عن أصحابه فيها. وكمترجم لحياته، فإنّ هذا يحبط أعمالي، ويثبّط عزيمتي.

حينما نصل إلى نهاية شارع الكنيسة، نستقل الطريق المؤدي إلى لاشار لنزور أطيان ديموث السفلى، والتي اشتراها والد لوركا عام 1895، وهي السنة نفسها التي اشترى فيها البيت الذي زرناه قبل قليل.

بعد كيلومتر تقريباً من طرف القرية، نعبر أخدوداً جافاً. وبعد ثلاثمائة متر من السير في الشارع، ننعطف مباشرة إلى اليسار ثم نمضي عن اليمين. هنا، تماماً حيث يبدأ المنعطف الأيمن، ثمّة طريق ضيق يمتد عبر الحقول. أرجوك، أركن سيارتك هنا، واقطع بقيّة الطريق سيراً. عن اليسار، كوخ أبيض، أمامه سروتان. وعلى البعد ترتفع جبال الثلج. بعد ثلاثمئة متر نصل إلى بيت فسيح في المزرعة، وهذه هي ديموث السفلى.

زرع الدوق فدريكو، مزرعة ديموث بالبنجر، وكان أغنى أغنياء البلدة، وكونت المزرعة أساس ثروة الأسرة. وحين اشتراها الدون، لم يفكّر بمصلحته حسب، بل نظر إلى تحسين أوضاع أخوته الستّة، فوزّع الأرض بينهم.

والمزرعة اليوم ليست بذاك الاتساع الذي كانت عليه حينما كان الصبي لوركا يعيش فيها، ذلك أنّها قسّمت عدّة مرّات. أما بالنسبة إلى البيت، فقد مرّ أيضاً ببعض التغييرات، أولها بسبب الحريق الذي شبّ منذ سنوات قليلة. لكنه لم يكن مختلفاً في أيام لوركا عمّا عليه الآن.

ولديموث تأريخ ظريف، فالاسم كما يقول المختص بتأريخ الأسماء الغرناطية، لويس سيكو دي لوشينا يعني بالعربية، الحقل ذا الكهف الكبير. ويقول مختص آخر هو ميخيل آثن بلاثوس، إنّه قد يعني كهفاً، أو حوضاً، أو مكاناً معيّناً. ويبدو أنّ المعنى الثاني أقرب إلى الصواب ما دام في البيت بئر عميقة. ولا أحد هنا يعلم بوجود كهف، ومن الصعب العثور على كهف في أرض مسطّحة كهذه . بعد سقوط غرناطة عام 1492، انتقلت ملكية ديموث إلى أمير من أمراء البحر العاملين في خدمة الملكين الكاثوليكيين. بعدها ظلّت آلاف السنين في حوزة عائلة غرناطية من النبلاء. وكتب فرانثسكو غارثيا لوركا، أخو الشاعر يقول إنّ ذكرياته الأولى تعود إلى ديموث. وكان الأخوان يحبان النظر في خاصية الأملاك ليجدا كيف تغيّرت ألقاب أصحابها من الدونيا سول، إلى الدون لوب، إلى الدونيا مينثا. ويقول فرانثسكو، إنّ العقود القديمة مكتوبة بالعربية.

لكن لوركا يقول في مقابلة معه في بيونس إيريس عام 1934، إنّ تأريخ ديموث يبدأ قبل سنين من قيام المسلمين بحراثتها، وزراعتها. ويتحدّث عن طفولته السعيدة في عين الرعاة، فيتذكّر حادثاً وقع له في أرض الأسرة:

> حدث ذلك نحو عام 1906. وكانت أرضنا الزراعية تُحرث بمحاريث خشبية قديمة لا تكاد تخترق السطح. لكن في تلك السنة حصل بعض الفلاحين على محاريث برافانت الجديدة (لا أنسى الاسم أبداً)، وذلك كجائزة على كفاءتهم في

معرض باريس لعام 1900 · وأنا ذلك الطفل الفضولي كنت أتبع المحراث الجديد القوي أينما ذهب· كنت أتمتّع برؤية الشفرة الحديدية الكبيرة تشق الأرض شقّاً تخرج منه عروق خالية من الدم· وفي أحد الأيام توقف المحراث بعد أن صدم شيئاً قوياً· بعدها بثانية أخرجت الشفرة الحديدية اللامعة من الأرض آنية فخار رومانية عليها نقش لا أذكره، ولسبب لم أعرفه حينذاك، ورد على ذهني اسما الراعيين دافنيس، وكلوي·

وهذه التجربة التي كانت الأولى في أعاجيب الفن مرتبطة بالأرض· ولإسْمَي دافنيس، وكلوي عبق الأرض، والحب أيضاً·

لكن هل وقع الحادث، أو ما شابهه حقّاً كما وصفه الشاعر بعد ثلاثين سنة؟ يشك فرانشسكو الذي يصغر أخاه بأربع سنين في حقيقة الحادث، ويزعم في كتابه عن أخيه "في الصباح الأخضر" إنّ الأمر قد يحدث في دارأغوليجا التي لا تبعد كثيراً عن أراضيهم، وتقع على ضفة شينيل بالقرب من لاشار، وقد عثروا بالفعل على مخلفات رومانية عام 1906· أما في ديموث السفلى، فلم يحدث شيء من هذا القبيل·

لكن مهما كانت ذاكرة الشاعر مدهشة، فإنّها لم تخنه، فمنذ سنين قليلة، وبعد موت فرانشسكو، قلب المحراث أرض ديموث ليظهر للعيان مخلّفات

بيت روماني. كما وجدت عدّة نقود رومانية، وكلّها تقريباً من العصر القسطنطيني. زيادة على هذا، يضم متحف الآثار في غرناطة (كما ذكرت في الجولة الخامسة) تمثالاً برونزياً صغيراً لمنيرفا طوله ثلاث بوصفات، عثر عليه في ديموث العليا القريبة من ديموث السفلى. إذاً يتأكّد لي، إنّ الشاعر في إثارته التجربة الأولى في عجائب الفن إنّما يتذكّر حدثاً حقيقياً حين ظهر له فجأة وبطريقة مثيرة لا تخطر بالبال تأريخ الأندلس القديم، ولمسه لمس اليد. إذاً فقد عاش الرومان على هذه الأرض عينها سنين قبل مجيء المسلمين الذين أطلقوا عليها ديموث، وهي الآن تعود إلى أبيه! من الصعب أن لا نربط التجربة التي يتذكرها الشاعر بتلك الحيوية، والإشراق بالأندلس التي تتكوّن شخصيتها من عناصر مختلفة، طرطروسيين فينيقيين، ورومان، ونصارى، ويهود، وعرب،وغجر.

كانت أم لوركا، الدونا بيثنته، تحب القراءة بصوت عال على أبناء القرية في العين، وأغلبهم أمي. ويتذكّر لوركا أنّه سمع أمّه هنا في ديموث تقرأ "هرناني" لفيكتور هيغو، تلك المسرحية التي هزّته من الأعماق (وكانت كل أسر آل لوركا تحب هيغو، وتحتفظ بالأعمال الكاملة لهذا الكاتب العظيم).

وفي هذه البطاح الرائعة نما حب شاعر المستقبل للطبيعة التي كانت عنصراً أساسياً في كل ما كتب. وحينما آتي إلى هنا أتذكّر دائماً، كلمات التسويغ التي يبرّر بها لوركا "كتاب القصائد" والمطبوعة على صفحته الأولى، وهي كلمات مبالغة، لكنها صادقة:

بغض النظر عن تعابير هذا الديوان غير الموفقة،
وقصوره الواضح، إلاّ أنّ له بعض المزايا التي
أشك في بلوغها، فهو يذكّرني دائماً بطفولتي
المشبوبة، أجري عارياً بين حقول الوادي الذي
تظلّله الجبال.

نعود الآن إلى الساحة في بلد روبيو، ونسير في الشارع المتجه إلى جسر الصنوبر، وأيورا، والذي ينتهي عن اليسار بعد الكنيسة مباشرة. وعلى بعد كيلومتر ونصف الكيلومتر من القرية عن اليسار، تماماً بعد الجسر الممتد على السكة الحديد، توجد المقبرة. و أهميتها بالنسبة إلى محبي لوركا، أن فراسكويتا ألبا، وزوجها الثاني، وأولادها مدفونون فيها، قبورهم خلف الأرض المسيّجة يسار الشارع الرئيس. وقد تسأل واحداً ليدلّك على المكان.

سترى من مدخل المقبرة، أننا الآن في منطقة انتقالية تفصل الأراضي الجافة بما فيها من قمح وزيتون عن الأراضي الخضر الممتدة للغوطة. ويرينا لوركا في "تأملات الماء واستعاراته " (1921) (والتي اقتبسنا منها من قبل في زيارتنا عين القرميد على نهر كيوبيلاس) إلى أي حدٍ كان حساساً لهذا الانتقال من اللونين الأصفر، والمغري إلى اللون الأخضر، ومن الجدب القاحل إلى الرطوبة. ولا بد لي هنا من الاقتباس:

كنتُ عائداً من الأراضي الجافة. هنا في الأسفل
ترقد الغوطة ملفوفة بالزرقة المشرقة. كانت

أشرطة الزيزان المرفرفة تخفق في هواء المساء الصيفي الذي يجثو كجثة هامدة.

لموسيقى الأراضي الجافة نكهة صفراء.

أفهم الآن كيف تُصنع الزيزان من الذهب الخالص، وكيف تتحوّل الأغنية إلى رمادٍ في بساتين الزيتون.

لا بد من أنّ الراقد في هذه المقابر، بعيداً عن الآخرين، قد صار أصفر كأشجار تشرين الثاني.

حالما نقترب من الغوطة نبدو وكأننا ندخل إناءً للأسماك الخضر، ويصير الهواء بحراً من الموج الأزرق، بحراً أُعِدَّ للقمر، حيث تعزف آلاف الضفادع مزاميرها من القصب اليابس.

وحين تخرج من الأراضي الجافة إلى الغوطة لا بد أن تجتاز مخاضة خفيّة لا يشعر بها إلاّ القليلون: إنّها مخاضة الأصوات. وهي حدٌّ طبيعي حيث يسعى الصمت الغريب إلى إخماد معزوفتين متضادتين. ولو كانت شبكياتنا الروحية مركّبة بطريقة صحيحة لرأينا كيف يصير الرجل الذي موّهته الأراضي الجافة أخضر حين يدخل

الغوطة، وذلك بعد أن يختفي لحظةً في تيار
الموجة الموسيقية المعتمة للحدّ الفاصل.

كان من عادة لوركا، أن يعي ذلك الحد الفاصل، وبلغة الموسيقى. وحين يقف المرء هنا بجوار المقبرة، ويمد البصر إلى هذا المشهد المثير، يرى ما رآه لوركا. وكنتُ قبل سنين من قراءة المقطع السابق (ولم يكن ديوان "ألحان" قد ظهر بعد) مفتوناً بالطريقة التي تتباين بها الحافات الجافّة للغوطة مع الخضرة المفاجئة للسهل الخصيب بدلاً من الإندماج التدريجي بها. والآن فقد "أوضح" الشاعر لي كل شيء.

ننطلق من جديد، وسرعان ما نصل إلى الشارع الموصل عن اليسار إلى إيورا (حيث إقطاعية آل ويلسلي)، ثم يقودنا عن اليمين إلى جسر الصنوبر. على الجانب الآخر من الملتقى، وعلى بعد مائة ياردة، أو أقل إلى الخلف، بين الزيتون، ترامت أرض زراعية تدعى الحقل الأحمر، وكان فيها في أيام صبابة لوركا برج عربي (وأغلب الظن، أنّه برج للمراقبة على حدود قرية برج روما)، هُدم منذ عدّة سنين. ويقول الناس في بلد روبيو، إنّه البرج الذي يشير إليه لوركا في قصيدة "غزلية الصيف" المؤرخة في آب 1920، والمنسوبة في "كتاب القصائد" إلى غوطة زخيرا:

أُربطي حِزامك بحزامي،
آه أستريلا الغجرية!
تحت شمس منتصف النهار الذهبية
سآكل التفّاحة.

في بستان الزيتون الأخضر على السفح

برج عربي،

بلون جسدكِ الترابي

الذي له نكهةُ الفجر...

ويقول الفلاحون المدعون العلم بالشيء، أنّ أستريلا كانت موجودة حقاً، وهي أستريلا مالدونادو. لكن يستحيل علينا الفصل ما إذا كان لوركا يعرف الفتاة شخصياً، أو له علاقة بها، ولم أجد لها، أو لأهلها أثراً في القرية.

يمضي الطريق إلى جسر الصنوبر وسط بساتين الزيتون المزهرة، وسرعان ما يجتاز ثلاث قرىً متجاورة، وكأنّها قرية و احدة: زخيرا، قرية الحور، وقرية البيت الجديد. حينما نصل إلى نقطة اللقاء باتجاه ش ـ 432 على بعد كيلومتر، أو يزيد، لاحظ التل الصخري عن اليسار إلى الجانب الآخر من الشارع. إنّه تل الأطفال، وعلى قمته المستوية بقايا قلعة يوركو التي تعود إلى ما قبل التأريخ، بُنيت قبل أن يغزو الرومان إسبانية عام 218ق.م. ننعطف يميناً، ونعبر نهر فيليلوس، وهو رافد يصب في كيوبيلاس، ثم نجتاز بسرعة محطّتين للبنزين، كل واحدة على جانب من الشارع. وبعد مائة متر ننعطف مباشرة إلى اليسار فنرى اللافتة التي تشير إلى تينا، وألوفاريس، ومقلين (وإذا لم يكن لديك متسع لهذا الجزء من الرحلة، فيمكنك السير قدماً، والانتقال إلى القسم الأخير من هذا الفصل).

في البداية يتبع الطريق وادي فيليلوس الخصيب، لكنه يلتف بعد تينا على أعلى منحدر جبلي حاد مزروع بأشجار اللوز، ثم يدخل حزاماً من

أشجار الصنوبر. على قمة الجبل، عن اليسار، لافتة تشير إلى منطقة تشرف على المكان. المنظر هنا رائع: أرض الغوطة الخضراء الفسيحة بقراها، وغابات الحور الكثيفة، جبال البيرة على حافة السهل، السفوح القريبة المغطاة بالزيتون، وعلى البعد تكتمل الصورة بذرى جبال الثلج. نرى من الجانب الآخر، منظراً رائعاً للقرية، وأسوار مقلين، وقلعتها على التل العالي المطلّ على الوادي الممتد إلى الغوطة. من السهل أن تقدّر من هنا الدور المهم الذي قامت به القلعة في الدفاع عن غرناطة التي احتلها بعد مكابدة طويلة الملكان فرديناند وإيزابيلا عام 1486. قضى الملكان الكاثوليكيان، ومستشاروهما سنوات في مقلين حتى استسلمت غرناطة بعد ست سنين، فعبّرا عن حبّهما للمكان بالتبرّع إلى الكنيسة الفتيّة براية تحمل صورة المسيح، كان المقاتلون يحملونها في المعركة لاسترداد آخر بقعة يحكمها المسلمون في شبه الجزيرة.

وخلال القرن السادس عشر أخذت المعجزات تنسب إلى الصورة. وما إنْ حلّت نهاية القرن السابع عشر حتى اعترف أسقف غرناطة رسمياً بتلك البدعة الجديدة، وعيّن اليوم الخامس من تشرين الأول موعداً لإحياء ذكرى يسوع القماش، كما أطلقوا عليه، وذلك بعد ما أشيع بأنّ الصورة شفت حالة عمىً أطلقوا عليها "مرض القماش" ويوماً بعد يوم، ازدادت شهرة العيد السنوي، وأخذ الناس في القرن الثامن عشر يأتون إلى مقلين في بداية تشرين الأول من كل أرجاء الأندلس. ولا أحد يعرف تماماً لماذا يشغل يسوع القماش نفسه بمسائل إخفاق الإنجاب، والعقم عموماً، وبالمراوغة الزوجية

خصوصاً. لكن هذا ما جرى ـ ويسافر المبتلى كل خريف إلى مقلين طلباً للشفاء وتسكين الأوجاع.

لا بد من أنّ لوركا حين كان طفلاً في عين الرعاة، ثم في أسكيروسا، شاهد مواكب الحجيج تمر كل سنة بالغوطة في طريقها إلى مقلين. زيادة على هذا يقول أخوه فرانشسكو بأنّ صورة بسيطة "ليسوع الأقدس صاحب القماش" كانت معلّقة في الغرفة التي يتقاسمها مع أخيه (وقد رأينا صورة مشابهة أيضاً في متحف بيت لوركا في القرية).

وفي بداية القرن العشرين، أضيف للمواكب بعض الطقوس العربيدة، وإن حصلت حالات حمل سنوية، فبسببٍ بشريٍّ، لا ربّاني، فمئات الرجال من القرى المجاورة، يشاركون في فعالية تولدية. وحين تسير المواكب يهتف أبناء القرية الواحدة: "مراوغون! مراوغون!" ويعنون بذلك، اللهو العاطفي حيث يتسامح الأزواج التعساء في الحملة أملاً بالذرية.

لا نعلم علم اليقين إن كان لوركا قد زار مقلين في أثناء الحجيج، أو في وقت آخر غيره. ويقول أخوه، إنّهما لم يضعا قدميهما في القرية، على الرغم من أنّ مارسيل أوكلير، وهو من أوائل الذين كتبوا سيرة الشاعر، ينقل تعليقاً للوركا على صورة يسوع القماش ينبئ برؤية المشهد الحقيقي: "لو حدّقت فيها جيداً سترى تحت الغلاف الرقيق الذي يغطّيها، حوافر الإله فون، وشعره الكثيف" (طفولة لوركا وموته"، 1968).

حدّث لوركا رفاقه في مدريد عن مقلين، وأحدهم، الموسيقار غوستاف بتالوغا الذي كتب باليه عن الفكرة يعتمد على قصة ابتكرها الشاعر،

وساعده فيها المخرج المسرحي، والأديب ثبريانو ريفاس شريف. أنهى بتالوغا عمله "حجيج الديوثين" عام 1927، لكنه لم يقدّم موسيقياً حتى عام 1930، ولم يعرض حتّى عام 1933. واليوم لا أحد يعرف عنه شيئاً.

وقصة الباليه بسيطة، وأسلوبها احتفالي، وهي بعيدة كل البعد عن قصة "يرما"، وأسلوبها. المهم أن لوركا قبل ثلاث سنين، أو أربعٍ من التفكير في كتابة مسرحية عن العقم الأنثوي تعاون لإنجاز باليه عن حجيج مقلين. والمشهد الأخير من "يرما" يدين بالكثير للاحتفالات الصاخبة التي كانت تدور في القرية. وحين عرضت المسرحية في كانون الأول 1934، تضايقت المؤسسة الكاثوليكية كثيراً.

وإذا كان لديك متسعٌ من الوقت، فلا بد من الصعود إلى الكنيسة، وإلقاء نظرة على "يسوع القماش" انظر إذا ما كنت تتفق مع الشاعر بشأن إله الخصب المترصّد أسفل الصورة. والحقيقة، أنّهم أضافوا إليها لمسات كثيرة، لكني أعتقد بأنّي أرى ما عناه لوركا، فنظرة هذا المسيح بعيدة كل البعد عن التطمين.

بعد مقلين نعود من حيث أتينا، وحين نصل من جديد إلى ش ـ 432 ننعطف يساراً باتجاه جسر الصنوبر. لاحظ قبل دخول المدينة المدخنتين في الغوطة عن اليمين، وأقربهما كانت لمصفاة روزاريو الجديدة لتكرير البنجر، والتي أنشئت عام 1905 (كما منقوش عليها)، وكان لوالد لوركا سهم كبير فيها.

نتجه الآن يساراً إلى جسر الصنوبر لنرى الجسر العربي الذي يتوقع أنّه أقيم على بقايا جسر روماني قديم. ويقال بأنّ رسول الملكين فرديناند وإيزابيلا أدرك على هذا الجسر كولمبس، وهو يحث الخطى عائداً من سانتا في بعد أن رفض الملكان تمويل حملته. وما كاد يبتعد عن المعسكر حتّى غيّر الملكان رأيهما. يقول ريتشارد فورد: "كانت من أشدّ اللحظات حرجاً، لكنّه متردّد في العودة،ورمى نفسه في أحضان الكائدين عديمي الرحمة. ولو استمر في سيره إلى ملكنا هنري السابع، ذلك الحصيف الذكي، المدرك دائماً لأهمية الحملات البحرية، لاستمع إليه، وتفهم غايته، ولأصبحت أمريكا الجنوبية اليوم انكليزية بروتستانتية: ففي مثل هذه الترهات تتحدّد مصائر الأمم." إنّها ملاحظة ذكيّة معروفة عن فورد.

لاحظ حين مغادرتك جسر الصنوبر متوجهاً إلى غرناطة كيف تندفع جبال البيرة العارية يميناً على حافة الطريق (وكانت في الماضي مشهورة بصخورها الخضراء المرقّطة). بعد ثلاثة كيلومترات، وبعد المرور ببناية عسكرية يتوزّع الحراس على أسوارها، ترى هياكل مصفاة الغوطة القديمة لتكرير السكّر، أنشئت كما هو محفور على مدخنتها عام 1904 (أي قبل سنة من روزاريو الجديدة)، وكانت آخر معملٍ للسكّر في الغوطة، أغلقت عام 1983.

ثلاثون دقيقة ونعود إلى غرناطة.

***

ملاحظة: إذا كان الهدف من رحلتك زيارة قرية عين الرعاة، فأنصح لك أن تسلك خط ش ـ 432 المتجه إلى جسر الصنوبر، وقرطبة، وتغادر الشارع الرئيس بعد عشر كيلومترات تقريباً من غرناطة حيث تجد علامة على طريق عين الرعاة· وهذه الطريق من أكثر الطرق المؤدّية إلى مسقط رأس الشاعر روعة، يجتاز مباشرة خط السكة الحديد، ويغوص في أعماق الغوطة بحورها، ومزارع تبغها (وسقائف التجفيف)، والذرة، وقنوات الري· وحتى اليوم لا يوجد الكثير من المباني على الرغم من أنني شاهدت في زيارتي الأخيرة، محطّة تبريد، وقد فرضت نفسها عن يمين الشارع· وحين نرى هذه الطبيعة، نتبيّن من جديد كيف استمد لوركا عالمه من ذكريات الطفولة الغارقة في الغوطة·

الجولــة العاشرة: جبال الثلج، والبشرات

المسافـة: تبلغ مسافة الرحلة الدائرية التي تستغرق نهاراً كاملاً من غرناطة إلى قمّة جبال الثلج، ثم إلى الجانب الآخر باتجاه البشرات، فالعودة إلى غرناطة نحو مائتين و عشرين كيلومتراً. وإذا قرّرت ألاّ تخاطر بالسير في الطريق من جبل الثلج إلى البشرات، فيمكنك الوصول إليها بالسير في ش 323 المتجه إلى موتريل، والذي يتفرّع عند لانخارون على بعد سبعة وثلاثين كيلومتراً من غرناطة.

إملأ خزّان الوقود قبل مغادرة غرناطة، إذ لا يوجد الكثير من محطات التعبئة على الخط.

*

تحذير: لا يكون الشارع غير المعبّد من ذرى دوارة الريح إلى بابيون على البشرات سالكاً إلاّ في أواخر الربيع، والصيف، وأوائل الخريف. أما في باقي فصول السنة، فتغطّيه الثلوج. ولحسن الحظ، فهو طريق مروّع، سريع جداً، يصبح مرعباً أحياناً. وأقول لحسن الحظ، لأنّه حين يكون سالكاً، يكتظ بالسيارات، فتتأثّر البيئة. ولا أفضّل لك اتخاذ هذا الطريق، وذلك لأسباب

بيئية، وأخرىٰ غيرها· وإذا كانت أعصابك قويّة، وقرّرت السير قدماً، فتأكّد من سلامة العجل· ولا تقل إنّي لم أحذّرك!

*

تطل علىٰ غرناطة سلسلة جبال الثلج الشاهقة، أعلىٰ جبال إسبانية· ولا يبعد البحر الأبيض المتوسط غير ثمانية وأربعين كيلومتراً بخط مستقيم، لكنه كان حتىٰ وقت قريب، وقبل أن تظهر الشوارع الحديثة أكثر بعداً· "غرناطة التي تتلهف علىٰ البحر"، كما يقول ديوان "قصيدة الأغنية العميقة" ولكي تقترب غرناطة من البحر تحتّم قطع أحد معالمها·

من المدينة، تبدو قمّة دوّارة الريح بتاجها الناتيء أعلىٰ ما في السلسلة· الحقيقة أنّها بارتفاعها البالغ أحد عشر ألفاً، ومئتان وستّة، وأربعون قدماً، أقل من قمّة مولاي حسن المدورة عن اليسار (والتي أخذت اسمها من والد أبي عبدالله الصغير آخر الملوك المسلمين في غرناطة) بحوالي مئتين، وخمسين قدماً·

ذكرت في الجولة الأولىٰ كيف بدأ المهندس خوان خوسيه سانتا كروز بشق طريق من غرناطة إلىٰ دوّارة الريح، وأصبح أعلىٰ طريق في أوروبا· وقلت، إنّ القنصل البريطاني وليم دافنهيل، الرجل غريب الأطوار، المحب تسلّق الجبال، لم يؤيّد الفكرة قط· ما إن حقّق سانتا كروز حلمه حتّىٰ قتله الثوّار في بداية الحرب الأهلية، فانعكس هذا الحدث الحزين علىٰ شخصية المدينة·

وقبل أن يشق سانتا كروز طريقه كان القليل من الغرنوطيين يصعدون في الجبل. وكان القادمون عادة من النيفروس (الثلاّجين ـ من "نيف" بمعنى الثلج ـ الذين يكسبون عيشهم من حمل قوالب الثلج على ظهور البغال، والنزول بها إلى غرناطة. وما زال طريق الثلاجين الذي يصعد إلى أعالي الجبال قائماً إلى اليوم. استخدمه كل من ريتشارد فورد، وتيوفيل غوتيه، في الوصول إلى دوّارة الريح، إنحنيا احتراماً للثلاّجين. وثمّة إشارات لذلك في كتاب إرفنغ "قصص الحمراء" أيضاً.

وثمّة جماعة في العشرينيات أطلقت على نفسها "الأصدقاء العشرة، المحدودة"، وكانت بسبب حبّها لجبال الثلج تنظم سنوياً رحلات قصيرة إليها. وذات يوم رافق لوركا الجماعة في الصعود، ويتذكّر صديقه ميغيل ثيرون بعد سنين من ذلك، ويقول إنّ الشاعر بسبب ضعفه في السير وجد الصعود قاسياً، وخاف السقوط في الأخاديد.

والطريق إلى جبال الثلج (ط.ع ـ 420) يبدأ من متنزه المضخة بجوار شينيل. وتوجد في المتنزه قطعتان أثريتان جميلتان من المتحف. الأولى زوج من العربات الصفر من مخلّفات ترام الجبل. كان الترام فكرة بارعة، أتى بها محسن غرناطة الكبير الدوق سان بيدرو غالاثينو، الذي بنى فندق قصر الحمراء. وبدأ العمل بالمشروع، المهندس خوان خوسيه سانتا كروز عام 1920، وافتتح الخط عام 1925. وحينما زرت غرناطة أول مرّة عام 1965، كان الترام يذرع وادي شينيل ذهاباً وإياباً، ويصل حتى قرية صنوبر

شينيل. كانت رحلة مدهشة. أما الآن، فقد أصبح الترام شيئاً من الماضي، وذكرى عزيزة.

أما القطعة الثانية المعروضة في نهاية المتنزه، فماكنة بخارية فرنسية الصنع من معمل سكر الغوطة الذي رأيناه في عودتنا من جسر الصنوبر إلى غرناطة.

على بعد كيلومتر من بداية شارع الجبل عن اليسار يشقون الآن طريقاً فرعياً جديداً بطول كيلومترين إلى الحمراء.

بعد نحو خمسة كيلومترات من غرناطة نصل إلى قرية زورق شينيل. وفي هذا الجوار افتتح في العشرينيات مطعم جديد باسم خان إيريتانا، حيث أقام لوركا وأصدقاؤه في 3/ 8/ 1928 مأدبة عشاء احتفاء بمجلتهم الطليعية "الديك" التي أشرنا لها في رحلتنا الرابعة. وأعرب لوركا في كلمته التي ألقاها في المأدبة، ونشرتها صحيفة المدافع عن غرناطة عن تقديره لإنخيل غانيفيت، وذكر ما تمثله المجلة، وهو بالتأكيد حب لغرناطة، "لكنّه حب وعقولنا مثبّتة على أوربا" لكني لم أجد أثراً لذلك المطعم. لا أحد يتذكره، وأعتقد أنّه أغلق بعد افتتاحه بفترة وجيزة.

سرعان ما نجتاز الطريق إلى الضفة الأخرى في شينيل. وبعد أن نصل إلى قرية صنوبر شينيل (2310 قدماً فوق سطح البحر) نبدأ الصعود ببطء، وتنفتح أمامنا مشاهد رائعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد نحو اثنين وعشرين كيلومتراً، نرىٰ عن اليسار أسفل الطريق، فندق سانتا كروز ليذكرنا بالرجل الذي أراد لنا الصعود بسياراتنا إلىٰ دوّارة الريح.

بدءاً من الكيلومتر واحد وثلاثين، نجد أنّ هواجس دافنهيل بشأن مشروع سانتا كروز كانت صحيحة، فقد أدّىٰ تطوير جبال الثلج، وجعلها منتجعاً للتزحلق إلىٰ أشياء مرعبة أشبه بلوحات غويا. خذ مثلاً منتجع سولينيف، وانظر إلىٰ مبانيه، و خذ مصعد التزحلق الكهربائي، وسياراته، وصخبها، وتخيّل ما يسببه كل ذلك لنظام البيئة. ولم يكتف المستثمرون بما حققوه، فيريدون الآن جعل المنتجع أكبر، وأحسن، وأجمل. أقيمت هنا عام1995 مباريات البطولة العالمية للتزحلق، وقد تكون العواقب وخيمه.

نمضي في طريقنا إلىٰ الدوارة، ولا بد من قطع المراحل الأخيرة سيراً علىٰ الأقدام.وإذا كنت محظوظاً، ترىٰ أفريقيا (أنا شخصياً لم يحالفني الحظ إلىٰ هذه الدرجة). ثمّة وصف بديع للمنظر في رواية أنخيل غانيفيت " محاولات المبدع بيوسيد الذي لا يكل"، لا بد من أن لوركا قرأها. ووصفه ثوفيل غوتيه أحسن وصف أيضاً. أما بطلي، ريتشارد فورد، فخصّص عمودين في كتابه السياحي لصعود جبال الثلج التي صعدها مرّتين. وحين يقول إنّ البيان يعجز عن وصف الشروق من الدوارة، فإنّه لا يخونه في بانوراما النهار من هنا:

والقمّة منبسط صغير علىٰ جرف غائر. نحن
الآن مرتفعون عن الأرض التي تمتد بكل جمالها

خريطةً مبسوطة عند أقدامنا. تطوف العيون في الفضاء اللامتناه أسرع من طواف خط السكة الحديدية لتدركه كلّه في وقت واحد. من ناحية، يبدو البحر المتوسط الأزرق ممتداً حتى حدود أفريقيا الواهية عند الأفق الباهت. وفي الداخل ترتفع تخوم قشطالة جبلاً مثلّماً فوق جبل. تشعر بالسمو البارد لهذه الثلوج الصامتة الأبدية تماماً على ذرى الألب التي تبرز عدوانية معزولة كطاغية مستبد، عالية حتى أنّها لا تشترك بشيء مع العدم تحتها. على هذه القمّة العالية التي تسفعها الريح نمت الخضرة، ونمت الحياة، حتى الأشنات الأخيرة، والبنفسج الأصفر الذي يضيع جماله حيث توجد صخرة تحميه من الثلج. آلاف الحشرات المجنحة تستلقي مكفّنة في ذلك الإكليل من الزهر، كل حشرة في خليّتها الصغيرة بعد أن عثرت على قبر يخلّصها من البرد، ويمنحها دفء الحياة الأخير. يعشش النسر في الذرى العمودية العارية، فلا بد من الجبال أوكاراً للنسور. هنا تحكم من دون مضايقة على عرشها الجليدي.

ثلاثة كيلومترات في العودة من قمّة دوارة الريح إلى البشرات، ثم ينحرف الطريق عن اليسار (ثمّة إشارة إلى كابيليرا). بيننا وبين القرى أربعون كيلومتراً هي طول الطريق الوعر.

لن تنسى هذه النزهة، فمشاهد الجبال، والبحيرات الجامدة رائعة، وسيكون عالم النبات في بيئته المناسبة، وإن كان الصيف في ذروته، على عكس عالم الطيور. ولم تعد نسور فورد الكثيرة موجودة، ولم أشاهد في زيارتي الأخيرة أيّاً من الجوارح، ولا زوجاً واحداً من الأفراخ.

لا تنسَ شرفة طرابليث المطلّة على أعلى القرى الإسبانية المشهورة بلحمها المقدّد. واعتقد أنّك سترتاح حين تصل أخيراً إلى قرية كابيليرا الساحرة ببيوتها العربية، وأختيها بوبيون، وبمبانيرا.

حينما زار لوركا هذه الأنحاء، لم يكن الطريق الجبلي موجوداً، فكان عليه المرور بلانخارون. أخبر أخاه عام 1926 في رسالة بأنّه زار للتو البشرات بسيارة صديقه خوسيه سيغورا، ووصلا إلى "قلبها نفسه" ولم يذكر كابيليرا، أو بوبيون أو بمبانيرا ـ ربما لم يذهب بعيداً إلى هذه القرى ـ لكنّه يقول، إنّ الناس في قرية كراتوناس الثانية أسفل الوادي أخبروه بأنّ الشرطة ضربت قبل أيام بعض الغجر.

بعد بضعة كيلومترات على الطريق من كراتوناس إلى لانخارون نجد منطقة عن اليمين، تماماً قبل الاستدارة يساراً باتجاه باياكار، وتدعى بويو ديوس (مقعد الرب، ربما لروعة المشهد). كانت لأسرة روفائيل أغوادو، صديق لوركا ضيعة في ذاك المكان الذي لا أكاد أتبينه. ويبدو أنّ الشاعر في

زيارة صديقه سمع قروياً يغني مقطعاً من أغنية ألهمته قصيدة "الزوجة غير الوفيّة":

وهكذا أخذتُها إلى النهر
ظانّاً أنّها بتولاً،
لكنها كانت مُنجبة.

في قرية الكنار التي يمكن الوصول إليها بواسطة طريق متحدّر من اليمين، وعلى مسافة كيلومترات قليلة باتجاه لانخارون، استنتج لوركا أنّ شرطة الدرك هم الحكّام الفعليون لجبال البشرات. ويذكر في الرسالة الآنفة إلى أخيه، أنّ الناس أخبروه أيضاً عن سلوك الشرطة البربري الذين ضربوا على مرأى ومسمع منهم غجرياً يبلغ الرابعة عشرة لسرقته خمس دجاجات من الحاكم.

وما سمعه لوركا عن طرائق الشرطة في كراتوناس، والكنار، عزّز نظرته إلى الدور الذي تقوم به الشرطة كعدوة تقليدية للغجر. وقبل سنة من ذلك، عام 1925، أوضح شعرياً، مسألة الثأر في "مشهد قائد الشرطة"، وذيّلها "بأغنية الغجري المضروب" . أما "قصيدة الحرس المدني الإسباني" فبدأ كتابتها قبل سنتين من ذلك، وسينهيها ذاك العام.

رأى لوركا في كنار النساء يغسلن الثياب ويغنين، ورأى الرعاة الداكنين. ونساء كنار اليوم يملكن المغاسل الكهربائية، ورعاة آخر الزمن أقل دكنة، يشاهدون التلفاز حين لا يرعون ماشيتهم.

وجد الشاعر قرىٰ البشرات مقطوعاً بعضها عن بعض، تكاد تخلو من الشوارع· أخبر أخاه أنّه سر إذ لم يجد أحداً من السياح الفرنسيين، أو الانكليز في "رحلاتهم الشعرية" إلىٰ المنطقة· وما لم يعرفه، أنّ جيرالد برينان يعيش منذ سنين في ياخين، إحدىٰ قرىٰ البشرات العالية التي لم يزرها لوركا· وسيصلنا من تجربة برينان في ياخين واحد من أكثر كتبه إمتاعاً بعنوان "جنوبي غرناطة"·

اقتنع لوركا بوجود مجموعتين عرقيتين مختلفتين تماماً في البشرات· الأولىٰ مجموعة النورديين، والقشطاليين، والنمساويين، إلخ، والثانية مجموعة العرب الذين لم يخالطهم عنصر آخر· ويضيف إلىٰ أخيه قائلاً: "رأيت امرأة أشبه بملكة سبأ تغربل الحنطة عن الذرة، وطفلاً ملوكياً مستخفياً في زي ابن الحلاق" وحين استسلمت غرناطة عام 1492، وهب الملكان فرديناند وإيزابيلا البشرات لأبي عبدالله الصغير، لكنهما سرعان ما نقضا العهد· وبعد حملة الدون خوان النمساوي، أخ الزنا لفيلب الثاني، لإبادة المورسكيين بين 1568–1571، انبث الناجون في طول إسبانية، وعرضها، وتم إعادة تأهيل المنطقة بكاملها بنصارىٰ الشمال ـ الكاليكو، والاستوريانو، كما يدعوهم لوركا· لكن بعض الأسر المورسيكية نجح في الاستخفاء، وظلّ في مكانه· وربما وجد الآخرون فيما بعد طريقةً للرجوع خفيةً إلىٰ هذه الوهاد قبل أن يُطردوا منها نهائياً عام 1609· وبكلمات أخرىٰ، لم يبالغ لوركا · أنظر أنت أيضاً، إنْ كان باستطاعتك تعيين أي ملكةٍ سبئيةٍ، أو طفلٍ ملوكيٍ متنكّر في زي أبناء الحلاقين·

لا تبعد لانخارون عاصمة البشرات غير عشرين دقيقة· وهي منتجع رائع كثيف الشجر مشهور بمياهه العلاجية، والمعدنية الصالحة للشرب· وكان لوركا يعرف المنتجع جيداً، وغالباً ما يزوره مع أهله، فقد كانت الدونا بيثنته تعاني من الكبد، وكانت مياه عين كابوشينا الشهيرة تريحها (تقع العين يسار الشارع الرئيس المحفوف بأشجار الدلب، والذي يربط لانخارون بالبشرات)· لا بد من الاعتراف بأنّ لانخارون كئيبة بشيوخها، وهم يحملون جرار المياه المعدنية المغلّفة بالسلال· ألقِ نظرة على داخل المنتجع، وستجد أنّك قد عدت سنين إلى القرن التاسع عشر·

أرسل لوركا عام 1926 بطاقة بريدية إلى مانويل دي فايا تحمل صورة لآثار القلعة العربية· وكتب إلى خورخيه غيين ذلك الصيف، قائلاً: "أنا الآن في جبال الثلج، وغالباً ما أنزل في الأصيل إلى البحر· يا لجنوب البحر الأبيض المتوسط من عجيب ! الجنوب، الجنوب! (كلمة رائعة هي الجنوب)· هنا تتكشّف أكثر الخيالات جموحاً عن منطقية، وصفاء·"

ويبدو القول، أشبه بالسريالي· والحقيقة، أنّ لانخارون أكثر المدن سريالية· وحين عاد لوركا إليها في صيف 1927 بعد أشهر قضاها مع سلفادور دالي في قطالونيا، كان في حالة من الحساسية المفرطة التي زادها جو القرية الدافيء· كتب رسالة إلى صديقه البرشلوني سباستيان غاش، يقول: "يستحيل الحديث مع الناس في المنتجع، ذلك لأنّ عيوني، وكلماتي على مكان آخر ـ على المكتبة العامرة التي لا يقرأ كتبها أحد، على النسيم العليل، على الريف حيث ترقص الأشياء على قدم واحدة·"

وكان لوركا في ذلك الوقت يرسم أشياء سريالية غريبة متحرّرة من كل القيود العقلية· وأراد أن يشرح لغاش ما يحدث له، فقال: "يبدو أنّ ليدي استقلالية خاصة، فهي تدخل الأعماق كخيط صيد السمك لتعود بحفنة من الأفكار الغريبة الرائعة، والاستعارات التي تشكّل نفسها في صور، وخطوط نادرة على الورق·" ويُطمْئِن غاش بالقول: "وهذه الأحلام ليست خطرة علي، ذلك لأنّي أملك وسائل الدفاع· إنّها خطرة على من تفتنه المرايا الكبيرة المعتمة التي يضعها الشعر، والجنون في أعماقه فقط· أعرف أنّ لي في الفن قدماً من رصاص· إنّ خوفي في حقيقة حياتي، في الحب، في الاتصال اليومي بالآخرين حيث الهوّة وعالم الحلم· أجل، فهذا أمر رهيب، وخيالي"·

ولا بد من أنّ لوركا في قلقه، وهواجسه في ذلك الحين قد صُدم حين وجد أنّ شفيع لانخارون هو القديس سباستيان، وكانت له كنيسة صغيرة وتمثال بسيط في موضع قبل دخول المدينة بجوار محطّة الوقود، في الطريق القادم من قرى البشرات· وكان دالي ولوركا قد انغمسا سنين في أفعال سريّة تخصّ معنى القديس سباستيان (الراعي غير الرسمي للشواذ، والمنحرفين)، ونشر دالي في ذلك الصيف، مقطوعته الهزلية "القديس سباستيان" في مجلة جمعية الفنون الطليعية القطالونية، وكان لوركا شديد الإعجاب بما كتب صديقه·

نحن واثقون بأنّ لوركا في ذلك الصيف كتب الكثير من الرسائل إلى دالي، على الرغم من أننا لم نرَ غير رسالة واحدة مصوّرة نشرت في الأربعينيات، أرسلها الشاعر من لانخارون بعد فترة قصيرة من وصوله مع

أسرته، ولا شك أنّها تتمحور حول فكرة القديس نفسه. ويوضح لوركا في نهاية الرسالة، اشتياقه الشديد لصديقه، ويشكو أنّه لم يرَ صبياً وسيماً واحداً في المدينة، فحتّى سعاة الفنادق الوسيمون لا يثيرون فضوله.

ألق نظرة على فندق إسبانية من الداخل حيث كانت أسرة لوركا تقيم في زياراتها، ويقع في الشارع الرئيس، المبنى قم 42 (مقابل الشارع الممتد إلى عين كابوشينا)، ولم يتغيّر كثيراً عمّا كان عليه أيام ما قبل الحرب.

وفي البطاقة البريدية التي تحمل صورة شجرة كستناء لانخارون العملاقة التي بعثها لوركا ذلك الصيف من عام 1927 إلى سباستيان غاش، يؤكّد من جديد على الصفة الأفريقية لجبال البشرات، وساكنيها، فيقول: "هنا يفهم المرء جروح قديس الصخرة، دموعه من الدم، وطعم الطعنات"، ثم يضيف: " غريبة، الأندلس البربرية" ولقديس الصخر ضريح في المدينة، لا بد أنّ لوركا يعرفه، ويقع في الشارع الرئيس بجوار البيت رقم 32. وفي الضريح تمثال للقديس يرفع الحبل ليكشف أحد الجروح التي عناها الشاعر.

بعد الخروج من لانخارون نرى في الطريق إلى غرناطة، منظراً جميلاً للقلعة العربية، والوادي العريض المضيء الذي ترتفع المدينة على طرفه.

سبعة كيلو مترات أخرى، ونصل إلى الشارع الرئيس بين غرناطة، ومورتيل، ولم يبقَ غير سبع وثلاثين كيلو متراً عن العاصمة، وخمس وعشرين أخرى عن تل البذول المعروف بزفرة العربي. ويقال، إنّ أبا عبدالله

الصغير نظر من هذه الشرفة في طريقه إلى المنفى في البشرات، وسرح النظر آخر مرّة في المدينة· مرّة أخرى نعود إلى كلام ريتشارد فورد بهذا الشأن:

> تخفق على أبراجه الحمر راية القديس ياقوب، والكل ضاع· خلفه جنّة عدن، واحدة من أمجاد حكمه السالف· وأمامه صحراء حزينة كقصور مُلْكِه المخلوع· خرجت الدموع من مآقيه، وأمّه عائشة الحرّة التي كانت منافساتها سبب نكبته توبخه، وتقول: "إبك كالنساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال·" وصلت القصة إلى سمع شارل الخامس، فقال الإمبراطور: "صدقتْ عائشة· قبرٌ في الحمراء، ولا قصر في البشرات·" هناك، في بورشينا، انزوى أبو عبدالله، ولكن إلى حين· لحقه الذل في منفاه، فمرض، وعوّل على الرحيل إلى فاس· ويقال إنّه قتل في معركة حامية، وضاع عمره في معركة ثانية·

بعد كيلومترين آخرين، وقبل مدينة الهندين، يبدأ طريق غرناطة الجانبي المثير للجدل، والذي انتهى العمل فيه في مايس 1991· وإذا كنت تستعجل العودة إلى فندقك، فاسلكه (يوجد العديد من الطرق الجانبية إلى المدينة)، وإذا لم تكن على عجل، فامض عبر الهندين· ولاحظ عند خروجك من

المدينة عن اليسار، المساحة الواسعة لمطار أرميلا الذي قامت طائراته بدور مهم في الحرب الأهلية، وكان أول هدف احتله الثوّار حين نشبت الحرب في غرناطة في 20/ 7/ 1936. ومن هنا انطلقت المقاتلات لتقصف العمّال المتحصّنين في البيازين في 22/ 7. ومن هنا أيضاً، طار اللواء ميخيل كامبينس، القائد العسكري الجمهوري لغرناطة إلى إشبيلية بعد فترة قصيرة ليُعدم على يد اللواء الخائن كويبو دي يانو.

تبعد المدينة الآن سبعة كيلومترات ليس غير.

يوجد في دوركال التي تقع على طريق غرناطة، دار مولينو الرائعة، وهي في الأصل طاحونة ماء قديمة، أقام فيها المركز الأندلسي لبحوث الطعام متحفاً بديعاً، ومطعماً مختصاً بالأكلات الغرناطية المعروفة. يمكنك أن تجرّب هنا أنواعاً مختلفة من الأكلات العربية، وغير العربية. وإذا رغبت في الأكل، فعليك الحجز سلفاً. رقم الهاتف: 780247(958)، والعنوان: المولينو، منطقة الجزيرة، شارع العيون، دوركال (غرناطة).

مكتبة
t.me/soramnqraa